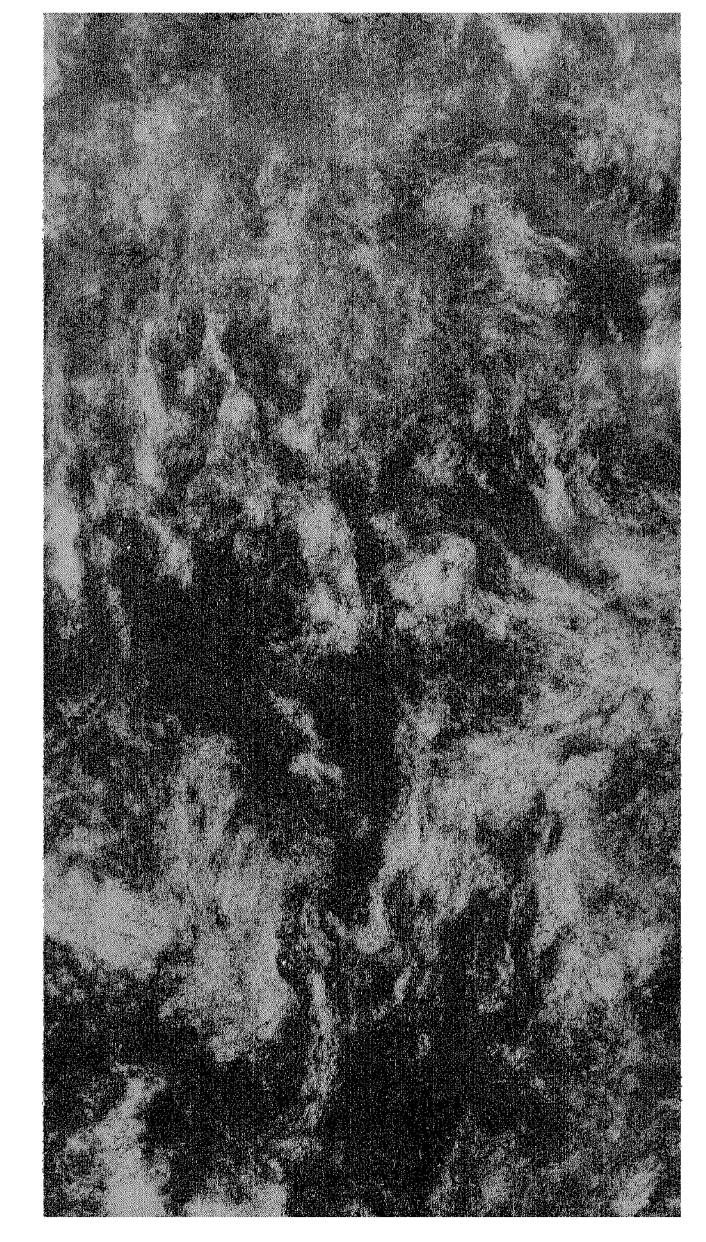
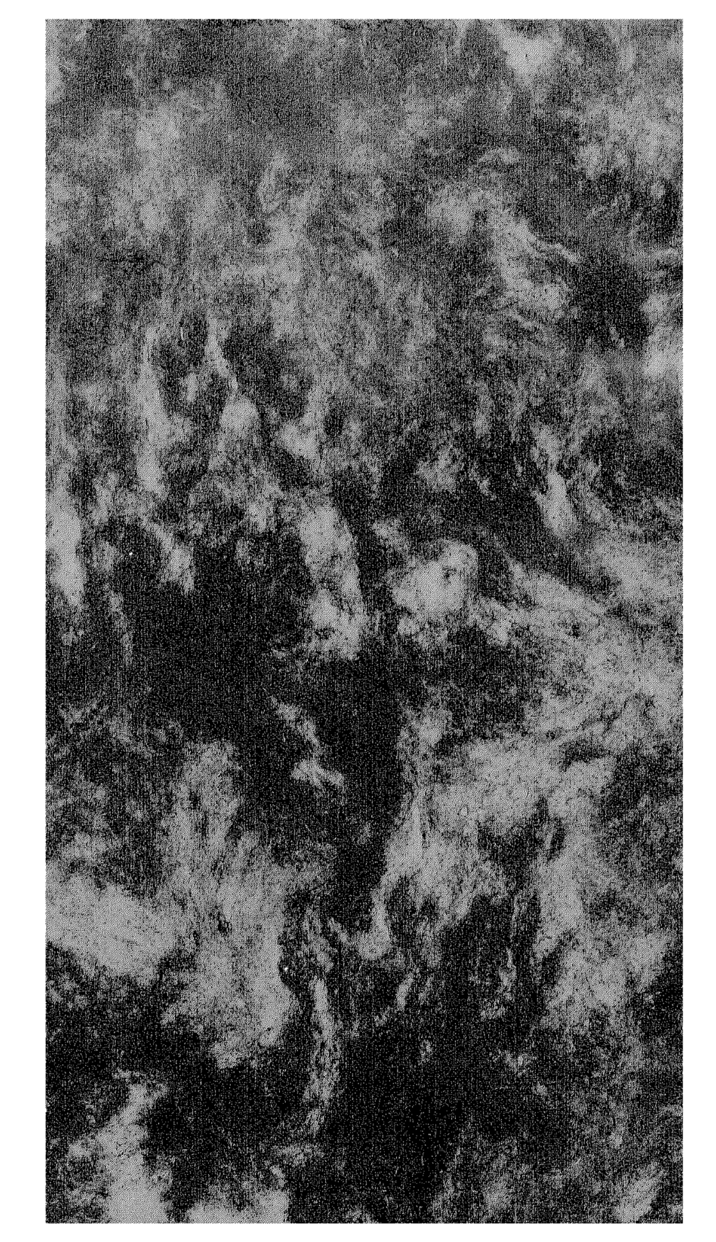
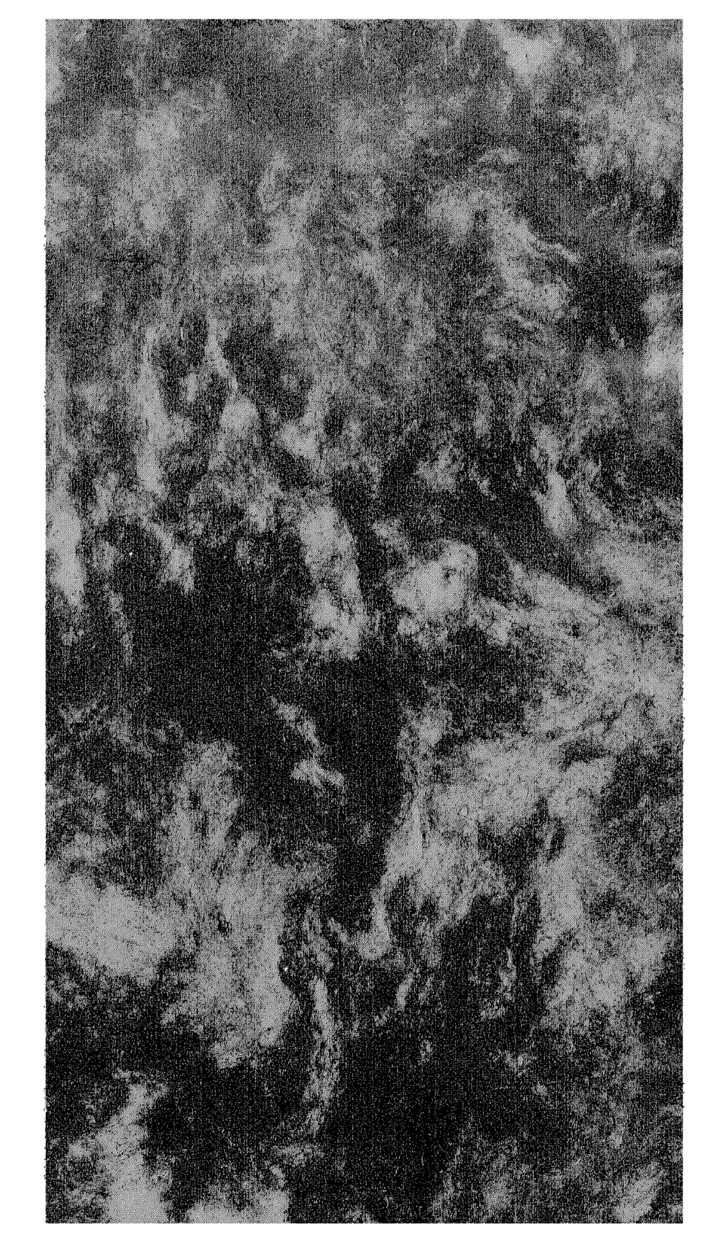








محمد حسين هيكل

هكذا خُلِقَتْ!

قصة

تقديم

كانت أسرتى فى المصيف ، وكنت أتردد بين المصيف والقاهرة لبعض شئونى • وقد اعتدت فى ذلك العهـد أن أنزل فندق (منا هاوس) ، أستمتع من نوافذه بمنظر الهرم والصحراء ، ذلك المنظر البديع فى كل حين ، وهو الروعة والسـحر فى الليـالى القمرية • ويزيده سحرا مايسرى الى نفسك معه من نسيم عذب ينسيك قيظ النهار ، ويبتعث خيالك الى تصور القرون الخالية حين كان أجدادنا يشيدون هذه الأهرام الضـخمة لتكون مقرا للفرعون الذى أمر بتشييدها سكنا له فى حياته الآخرة •

وكنت أستيقظ بكرة الصبح فأنزل الى حديقة الفنـدق أجوس خلالها ، ثم أتناول طعام فطورى تحت شجرة من أشجارها الباسقة • وكثيرا ماكنت أقضى فى هذه الحديقـة سويعات الغروب ، ولم يكن نادرا أن ألقى بعض الأصـدقاء الذين يجيئون اليها من العاصـمة يبتغون فى رقة نسيمها وبعدها عن ضجة المدينة ما يعوضهم عن جهد نهارهم وقيظه •

واننى يوما لجـالس قبل الغروب أتوقع أن أرى بعض هؤلاء الاصدقاء ، اذ رأيت فتاة شابة تقبل على متأبطة حافظة أوراقها ، ثم تقف عنـدى وتسلم على باسـمى • ولم يدهشنى أن عرفتنى وأنا لا أعرفها • فكثيرا مايقع ذلك لى ولأمثالى ، وكثيرا مايقدم الى بعض الشبان والشابات كراسات صـغيرة ويطلبون أن أوقع باسـمى على صفحة من صفحاتها ، أو أن أكتب فيها عبارة ما • ولقد خيل الى

أن هذه الفتاة تقبل على لمثل هذا الامر ، وأنها ستخرج من حافظة أوراقها كراستها وتطلب الى أن أوقع باسمى عليهـا أو أكتب لها عبارة تعتز بها بين صديقاتها • لكنها لم تفعل من ذلك شيئا • بل رأيتهـا ما لبثت حين وقفت أمامى أن اسـتأذنت فى الجلوس • فلما هممت بعد جلوسـها أن أدعو الخادم ليقـدم لها ماتطلب اعتذرت وشكرت وقالت أنهـا لا تريد شيئا ، ولكنها قدمت فى مهمة كلفت بها ، وكل الذى ترجونى فيه ألا أسألها عن شخصيتها ولا عمن كلفها بهذه المهمة •

وبعد هنيهة فتحت حافظة أوراقها وأخرجت منها ملفا أنيقا وقالت: هذه ياسيدى قصة كتبتها صاحبتها ورغبت الى فى أن أضـعها بين يديك • وقد تركت لك الحرية المطلقة فى شأنها • لك أن تقرأها أو تهملها • فاذا تفضلت وأضـعت وقتك فى قراءتها فلك أن تلقى بها فى النار ، أو تحتفظ بها بين المهمـلات من أوراقك ، ولك ان شئت أن تنشرها على النـاس • فاذا كان لها من الحظ أن راقتـك فنشرتها فستكون هى احدى قارئاتها ، ولن تعرف أنت ولن يعرف غيرك عن صاحبتها شيئا •• هذه ياسيدى رسالتى • وهذه هى القصة فى ملفها أدعها بين يديك وأستأذنك فى الانصراف •

تولتنى الدهشة لهذه المفاجأة ، فحدقت بالفتاة الشابة وقلت : قد أفهم أن تحرص صاحبة القصة على ألا أعرف أنا أو يعرف غيرى من هى ، وأن يدفعها هذا الحرص على أن تجعل منك رسولا يحمل الى قصـتها • لكننى لا أفهم سببا يدعوك أنت لاخفاء اسـمك وكل مايتعلق بشخصك الا أن تكونى أنت صاحبة القصة •

قالت : كلا ياسيدى • لست أنا صاحبة القصــة ولا كاتبتها • وسترى حين تتلوها أنها قصـــة سـيدة فى سن والدتى ان لم تزد على ذلك •

قلت : فما يمنعك اذن من أن تذكرى لى اسمك • انك شابة رقيقة يلمع فى عينيك الجميلتين ذكاء قل أن تعبرعينا أنثىعن مثله• ولعلى ان سعدت بمعرفتك أن أكون أكثر سعادة بمعرفة من تمتين اليهم بصلة ممن تربطنى بهم صداقة أو معرفة •

قالت : ذلك أدعى أن لاتعرف عنى شيئا • وقد استحلفتنى صاحبة القصة أن لا أذكر لك شيئا عن شخصى وقطعت لها العهد والميثاق أن أكون عند رغبتها • وأحسبك ياسيدى تشجعنى علىأن أحفظ عهدى وتسمح لى بالانصراف •

قالت ذلك وهمت بالوقوف • وأيقنت أن ماأبذل من جهد لمعرفة اسمها أو شخصيتها سيذهب سدى ، فوقفت وودعتها قائلا : لعلى أراك من بعد • وأجابت : علم ذلك عند ربى • وانفلتت فى رشاقة وسرعان ما اختفت عن ناظرى تاركة لى هذا الملف الأنيق الذى أخرجته من حافظة أوراقها •

وكان الملف مربوطا بشريط من الحرير الازرق زرقة السماء ، ففككت رباطه وأجلت بصرى فى صحف القصة الأولى • ثم اننى تخطيت هذه الصحف الى فصل يتوسط القصة فاذا هو يثير طلعتى ، بل يثير دهشتى ، وتكاد تهتز لقراءته أعصابى • عند ذلك آثرتأن أصعد الى غرفتى وأن أبدأ قراءة القصة من أولها • وفعلت • واننى لأتابع القراءة اذ دق الخادم باب الغرفة وقال : ألا ينزل سيدى ليتناول عشاءه ، فقد جاوزت الساعة التاسعة •

وأجبته : بل أوثر الليلة أن أتناول طعاما خفيفا • فأحضر لى ها هنا خبزا وجبنا وأكثر من الفاكهة •

وخرج الخادم يعد ما طلبت ، وعدت أنا أتابع قراءة القصة • وكنت كلما انتقلت فيها من فصل الى فصل تولتنى الدهشة •

فصاحبتها تروى حكاية حياتها فى بساطة. ويسر يكاد يخيل اليك معهما أنها حياة عادية لأية امرأة تعرفها • ولكنك تقف بعد قليل دهشا تتساءل : ماهذه المرأة ؟ ومن هى ؟ انها فريدة فى طرازها ، بل هى نسيج وحدها • انها تحب الحياة ولا تريد مع ذلك أن تسلم للحياة أمرها ، بل تريد أن تصوغ الحياة كما تشاء هى ، فاذا صدمها الواقع لم تذعن لصدمته ، بل حاولت أن تواجهه فى كبرياء المعتز بنفسه ، المؤمن بقوته ، لتبلغ آخر الامر الى الاسلام للحياة ومقاديرها ، وللطبيعة وحكمها •

والعجيب فى أمر هذه البطلة أنها لم تقف ازاء معركة من المعارك الكثيرة التى خاضتها لتحلل نفسيتها ولتجاهد كى تصلح مايكاد الدهر يفسده • بل هى تنتقل فى قصصها من معركة الى معركة • وقد كان فى مقدورها أن تجد فى حمى السلام ملجأ يجنبها هذا النضال ، ويظلها بوارف من الطمأنينة بل السعادة • لكنها لم تكن تعرف للطمأنينة معنى ، ولم تكن تفهم السعادة الا أن تكون هى المتحكمة فى أقدارها وأقدار غيرها • فلما طال بها أمد النضال وشعرت أنها أصبحت كالكرة تتقاذفها الأهواء التى ابتدعتها هى من صنع يدها لجأت الى الحصن الذى يلجأ اليه كل من عبثت به أنواء الحياة • لكنها ما لبثت أن اضطرت للخروج من هذا الحصن لتذعن آخر الأمر لحكم القضاء ولسلطان الطبيعة •

لم أنم تلك الليلة حتى فرغت من قراءة القصة • فلما أصبحت فكرت : من تكون بطلتها ؟ ومن تكون الفتاة التى حملتها الى ؟ ولماذا اختارتنى صاحبتها لتدفعها الى وتترك لى مطلق الرأى فى مصيرها ؟ وماذا عساى أن أفعل بها ؟

أألقيها فى سلة المهملات أم أدفعها طعاما للنار ؟ كلا ! فهى تستحق غير هذا المصير لا ريب • وان أنا فكرت فى نشرها فأى عنوان أختار

لها • لقد تركتها صاحبتها بغير عنوان • أفأجعل عنوانها : قصة امرأة؟ لكن قصص النساء كثير ، وليست هذه البطلة فى غمار هاتيك النسوة اللاتى أحببن أو أبغضن ، كما تحب كل امرأة وتبغض ، بل ان لحبها وبغضها لطابعا خاصا بها لايتسق هذا العنوان معه ••

ومالى لا أتخذ عنوانها من طريقة تحريرها • فلم يرد فيها اسم بطلتها ، أو اسم شخص من أشخاصها رغم وضوح شخصياتهم جميعا وبروزها • مالى لا أجعل عنوانها : قصة بلا أسماء •• ثم مالى لا أجعل عنوانها صفة اختارتها البطلة لنفسها فى آخر قصتها : المذنبة التائبة ، أو صفة أخرى اختارها لها زوجها الاول : غيرة وغرور • وترويت فى اختيار العنوان طويلا ثم ألهمتنى شخصية البطلة بشذوذها وذكائها وجاذبيتها ، وبغرورها وغيرتها ، كما ألهمتنى الخاتمة التى أضافتها ذيلا لروايتها ، فجعلت عنوانها « هكذا خلقت » مقتنعا بأن هذا العنوان يصف البطلة وطريقة تفكيرها أصدق الوصف •

ولا أريد أن أحكم لهذه القصة أو عليها ، وحسبى أن أذكر أن حديث البطلة عن نفسها جعل القصة أكثر واقعية فى تصوير عواطفها واحساسها ، وتطور هذه العواطف والمشاعر فى دخيلة وجودها وهى فى غمرة المضطرب الذى تعانى العيش فيه •

والواقع أن ماصورته هذه القصة لايزيد على أنه أثر من آثار التطور الاجتماعى الذى شهدته مصر ولا تزال تشهده • واذا كان فى البطلة شذوذ غير مألوف فهو يصور واقعا ان قل أن يجتمع كله فى نفس واحدة فى فترة واحدة من الزمن ، فهو يرسم لاريب صورة من صور تطورنا المتصل فى هذا الدور الحاضر من أدوار المجتمع المصرى • وبعض البلاد الشرقية معرضة لأن تمر بهذا الدور مثلنا •

ولعل من القراء من شهد مناظر فى الحياة تشبه ما صورته هـذه القصة ، وان اتصلت هذه المناظر بأكثر من شخص واحد فى الطبقة المصرية المستنيرة فى هذا الزمن الذى نعيش فيه • وتلك ألوان من الحياة لم تكن تمر بخاطر جيلنا أو الجيل الذى سبقه •

ومن الخير تصوير الجوانب المختلفة من أطوارنا فى هذا الوطن اذا أردنا أن نوجه التطور الحاضر لفائدة المجتمع ، وحرصنا على ألا تسوء آثاره فى بعض الطبقات زمنا طويلا • ولن يستطيع كاتب فرد أن ينهض بهذا العبء الجسيم ، سواء اختار القصص أو الرسالة أو البحث العلمى أو الفلسفى • فحياة المجتمع تزداد تعقيدا كلما ازداد المجتمع ارتقـاء • وقد أصبح التخصص ضرورة فى الكتابة كما أنه ضرورة فى الطب أو الهندسـة أو غيرهما من المعـارف والاعمال الانسانية • وغاية ما أرجو أن تتضافر جهود الكتاب على اختلاف نزعاتهم ليوجه هذا التضافر مجتمعنا الوجهة الصحيحة فى تطوره ، وليكفل له سرعة السير فى معارج الرقى الى أسمى درجات الحضارة •

هدانا الله جميعا سواء السبيل •

محمد حسين هيكل

الفصل الاول

ما أكبر الفرق بين القاهرة اليوم ، فى هذه العشرة السادسة من القرن العشرين ، وبينها أيام طفولتى وصباى فى العشرة الأولى من القرن نفسه • وما أكبر الفرق بين الحياة فى هذه المدينة العاصمة اليوم ، والحياة فيها اذ ذاك •

أنا اليوم أسكن شارع الهرم على مقربة من نهايته عند فندق منا هاوس ، وتقلنى السيارة الى قلب المدينة فى عشر دقائق أو نحوها • وذلك مالم يكن يحلم به أحد فى أخريات القرن الماضى وأوائل هذا القرن • لم يكن أحد يومئذ يسكن شارع الهرم ، بل كان النيل يفصل بين القاهرة وما على شاطئه المقابل لها من مزارع ممتدة الى مدى النظر • ولم تكن السيارات يومئذ وسيلة المواصلات ، بل لم تكن موجودة بالنسبة لسواد الناس • ولست أذكر متى جاءت أول سيارة الى مصر • لكن السيارات بقيت بعض مظاهر الترف الى مابعد الحرب العالمية الاولى ، أى الى سنة ١٩٢٠ ، فكان طبيعيا أن تظل رقعة المدينة ضيقة تتفق مع وسائل مواصلاتها ، وأسرعها عربات الخيل (الحناطير) والحمير • أما الترام الذى بدأ سيره فى السنوات الخمس الاخيرة من القرن الماضى فلم تكن شبكته قد امتدت الى ما وراء حدود المدينة كما صورتها •

ثم انى لأذكر يوما من سنة ١٩٠٩ ذهبت فيه مع أبى الى ضاحية مصر الجديدة ، وكانت فى بدء انشائها ، فلم يكن بها غير عدد قليل من المنازل على مقربة من فندق هليو بوليس بالاس • ويومئذ سمعت أبى يبدى عجبه كيف تغامر الشركة البلجيكية القائمة بهذا

المشروع باختيار تلك البقعة من الصحراء لبناء ضاحية فيها • لكن المصريين كانوا يومئــذ يؤمنون بعبقرية الاجانب حتى ليــكادون يضعونهم فى مصاف الملائكة أو فى مصاف الشياطين ، ولذلك كانوا يحتاطون فى الحكم على تصرفاتهم لاقتناعهم بأن هؤلاء الاجانب يدركون مالا ندرك •

ولقد آمنت يومئــذ بمــا أبداه أبى من عجب لانه أبى ، ولاننى رأيت الترام الابيض الذى يصل القاهرة بمصر الجديدة ينســاب بعد العباسية فى صحراء خالية لا حياة فيهــا ، فلا ترى العين على جانبيه الا الرمال الممتدة لتلامس السماء عند الافق •

وكانت العباسية نهاية القاهرة من هذا الجانب ، وكانت أشــبه بضاحية يقطنها العسكريون الذين ألفوها أثناء خدمتهم فى الجيش لأنها تجاور ثكناته ، فلما انتهت خدمتهم فيه أقاموا مساكنهم هناك على أرض رخيصة الثمن لبعدها عن المدينة وعن مواصلاتها •

أما سرة المدينة فكان ميدان العتبة الخضراء • منه كانت خطوط الترام تبدأ سيرها ، وفيه كانت تقوم المحكمة المختلطةميدان النشاط القضــائى بين الاجانب والمصريين فى العاصــمة وما حولهــا ، وعلى مقربة منه كانت تقوم حديقة الأزبكية التى كانت قبل مائة عام بركة ثم انقلبت حديقة باســقة الشجر محاطة بأســوارها المنيعة • ومن ميدان العتبة الخضراء يمتد شارع عابدين المعروف الى قصر الحكم عن شمالك ، وتقوم متاجر فخمة عن يمينك ، وينحدر شارع الموسكى ذو الشهرة العالمية لانه كان شريان النشاط التجارى بالمدينة •

وكان ميدان العتبة الخضراء والشوارع المتفرعة منه يفصــل بين الاحياء المصرية والاحياء الأجنبية فى القاهرة • فما امتد منه غربا الى النيل كان مســتقر الاجانب • وما امتــد شرقا متجها الى جبل

المقطم كان مستقر المصريين والشرقيين وميـدان نشاطهم • لذلك كان شـارع الموسـكى تختلط فيه العنـاصر الثـلاثة : الشرقيون والأجانب والمصريون ، يزداد الأجانب فى جانبـه القريب من العتبة ، والمصريون فى جانبه المتصل بالسكةالجديدة المؤدية الى أحياء سيدنا الحسين والازهر وماوراءها الى الجبل من أحياء وطنيـة صميمة •

وكان سكان القاهرة يومئذ لايبلغ عددهم الثلث بل الربع من سكانها اليوم •

كان طبيعيا ، وتلك حال القاهرة فى العشرة الاولى من هذا القرن، ألا ترى فيها عمـارات شاهقـة كالصروح التى تراها اليوم ، وأن تتألف منازلها من طابقـين أو ثلاثة على الاكثر • وكانت منـازل الذوات وأهل اليسار أشبه بالحصـون ، ترتفع جدرانها الخارجية لتستر كل مافيهـا وكل من فيها ، ولتستر السـيدات المخدرات صاحبات العصـمة بنوع خاص • وبين هـذه الجدران كان المنزل يتألف من (سلاملك) متصـل بالباب الخارجى خاص بالرجال ، ومن (حرملك) منفصل عنه هو مستقر السيدات • ويغلب أن تقوم أمام (الحرملك) حديقة صغيرة يتنسم السيدات فيها الهواء بعيدات عن أعين الرجال •

وكان والدى من المصريين ذوى الجاه واليسار ، فكان البيت الذى ولدت به ونشأت فيه من هذا الطراز الذى وصفت • وكان يقع على الميدان الذى يقوم فيه تمثال (لاظوغلى) • وكان سلاملكه يقع الى يمين الداخل من بوابته الـكبيرة ، مكونا من غرفة واسعة للجلوس ومن غرفة أصغر منها ، يدخل الانسان اليهما من بهوفسيح أمامهما، ويرتفع الـكل عن الارض بضـع درجات • وكان يفصـل بين (السلاملك) و (الحرملك) جدار يزيد ارتفاعه على قامة الرجل ، ومن ورائه حديقـة غرس فيهـا الجـازون ، وقامت على جوانبهـا

أحواض من أشـجار الورد والزهور المختلفة ، كما قامت فى أحد أركانها جبلاية صغيرة تجرى فيها المياه •

كنت ابان طفولتى أقضى معظم وقتى فى هذه الحديقة ألعب مع اثنتين من بنات الجوارى اللاتى تعملن فى خدمة المنزل • وكانت والدتى اذا أرادت دعوتى الى داخل الدار بعثت الى باحدى هاتين الطفلتين أو بجارية من الجوارى ، ولم تكن تنادينى مخافة أن يسمع صوتها خادم من الرجال ، أو أحد معارف أبى الجالسين معه فى (السلاملك)، فصوت المرأة كان يومئذ عورة لا يجوز أن تداعب آذان الرجال •

وكانت والدتى من قريبات أبى ، وكان أهلها من الاعيان الذين يرون تعليم البنت القراءة والكتابة أمرا نكرا ، ولكنها كانت بارعة فى ادارة المنزل ، تحذق كل شئونه ، وكانت لذلك مدبرة فى غير شح ، لاترمى قرشا فى غير موضعه ، ولاتضن على خادم ، رجلا كان أو امرأة ، بما يحتاج اليه رغم أنها لم تكن ترى الخدم الرجال أو تخاطبهم •

وكانت والدتى تستقبل السيدات من صديقاتها مساء الثلاثاء من كل أسبوع • وفى هذا اليوم كان الخدم الرجال يتمتعون باجازة من بعد الظهر • وكان والدى يغادر المنزل فلا يبقى به رجل الا بوابنا العجوز المتهدم ليستقبل السـيدات عند دخولهن من البوابة وخروجهن منها • وكنت أغتبط بمقدم يوم الثلاثاء لانه كان أشبه بأيام العيد ، ولان بعض المغنيات والراقصات من معارف والدتى كن يحضرن فيحيين هذا الاجتماع النسائى • وكنت قلما أحضر هذه الاجتماعات الى نهايتها ، فقد كانت والدتى تبعث بى الى الحديقة ألعب فيها ، أو الى صديقة لى من الاطفال كان منزل أهلها قريبا منا ، لان هذه الاجتماعات النسائية كان يدور فيها من الحديث مالايجوز أن يسمعه الاطفال • ذلك ماتيقنته من بعد حين كبرت وحين عرفت ماتتبادله النسـاء من أحاديث تافهة أساسها الغيبة التى لاتخلو من

قصص يألفها النسـاء ويرين عيبا أن يسـمعها الأطفال أو يسمعها الفتيان .

وكنت أغتبط بالذهاب الى منزل صديقتى الصـغيرة التى تجاورنا لأن والدها كان رجلا رقيقا غاية الرقة ، وكان يحبها أعظم الحب ، وكان يحبنى لأننى صديقتها ، وكان ينتظرنى يوم الثلاثاء وقد أعد لى هدية من اللعب التى يغتبط بها أمثـالى ، فكنت لتوقعى الهـدية أسارع الى تلبيـة والدتى والذهاب مع خادم من الجوارى أقضى مع صديقتى ووالدها سويعات هنيئة سعيدة .

ولما بلغت السابعة بعث بى والدى الى المدرسة السنية ، ولم يكن بينها وبين دارنا مايدعو الى ركوب عربتنا . لذلك كنت أذهب مع البواب العجوز كل صـباح وأعود معه كل مسـاء ومعى كتبى وكراريسى . وكان معلم القرآن والديانة والخط العربى يشـغل معظم حصص الدرس معنـا ، فكنا نراه ثلاث ساعات كل يوم على الاقل . وكان شيخا رقيقا شديد اللطف بنا ، يعاملنا معـاملة الأب لبناته ، فكنا نحبه ونسر بمقـدمه ، وكنا لذلك نحفظ الدروس التى يلقيها علينا ونحن مغتبطات أشد الاغتباط . ولهذا حفظت من القرآن جزء (عم) فى السنة الأولى ، وجزء (تبـارك) فى السنة الثانية ، وكنت أشعر بالمسرة حين أتلو منهما أمام والدى ما يزيدهما عطفا على واغتباطا بنباهتى . وازداد عطفهما على وضوحا حين رأيانى مذ تخطيت الثامنة من سنى لاأترك فرضا الا صليته لوقته ، فكنت أصلى الصبح قبل الذهاب الى المدرسة ، وأصلى الظهر فى مصلى المدرسة ، وأصلى بقية الفروض لأوقاتها بالمنزل . ولم يكن العطف على هو وحده مظهر تقدير أبى لهذا الصلاح وهذه التقوى . فقد جاء يوما الى المدرسـة وطلبنى وطلب الشـيخ معلم القرآن والديانة والخط وشكره أمام ناظرة المدرسة ، وكانت انجليزية ، على عنايته بتقويم أخلاق التلميذات عن طريق الدين وفرائضه .

ومذ بدأت السنة الدراسية الثانية بدأنا نتعلم اللغة الانجليزية • وفى السنة الثالثة كنا ندرس التاريخ والجغرافيا ، تاريخ مصر وجغرافيتها ، باللغة الانجليزية ، ولذلك اسرعنا الى التقدم فيها وأمكننا ان نتكلم بها •

***

كان لأبى على حدود مديريتى القليوبية والشرقية ، عزبة كنا نمضى بها جانبا من الصيف فى كل عام • وكانت والدتى تغتبط أشد الاغتباط بهذه الفترة التى نمضيها فى الريف • فقد كان حول منزلنا حديقة فسيحة فيها أزهار وفواكه ، وكان كثيرون من أهلنا الأعيان يترددون علينا هناك فيجدون من والدى مودة ولطفا ، وتجد والدتى فى أحاديث قريباتنا الريفيات عن الزراعة وأحوالها لونا من الحياة غير الذى ألفته فى العاصمة ، فتتسلى بهاتيك القريبات الودودات وبقصصهن • وكنت أنا أجد فى الحديقة وفى الحقول القريبة ما يبعث الى نفسى المسرة • فلما بلغت الثالثة عشرة من عمرى ذكرت لى والدتى ان التقاليد تمنع خروجى نهارا الى ما وراء أسوار الحديقة ، وتمنع نزولى بها ساعة وجود العمال من الرجال فيها • عند ذلك شعرت بأننى بدأت أدخل ميدانا جديدا من ميادين الحياة ، واننى موشكة متى عدت الى القاهرة أن ألبس ملابس النساء : الحبرة والبرقع ، وألا أخرج الى الطريق وحدى •

كانت عمتى تكثر التردد علينا أثناء مقامنا بالعزبة • وكانت سيدة من أعيان الريف المحترمات فى وسطها ، المحافظات على كرامة العائلة ومكانتها ، المتصدقات على الفقراء والمساكين من أهل قريتها • وكانت تكبر والدى عدة سنوات • وكانت ورعة تقية قوية الايمان بالله ورسوله ، شديدة المحافظة على فروض دينها ، تصلى الخمس فرضا وسنة ، وتصوم ثلاثة الأشهر ، رجب وشعبان ورمضان •

وكان والدى يحبها ويحترمها ، وكانت تغدق على من عطفها وحبها ماكنت أغتبط به • وكان حبها الشديد اياى يرجع الى أننى كنت، رغم أننى تلميذة بالمدارس ، شـديدة المحافظة على فروض دينى ، وكنت أتلو عليها من سور القرآن ما يثلج صدرها ، سواء أفهمته أم لم تفهمه •

وكانت عمتى تقضى معنا أحيانا أسابيع متعاقبة ، وكان لها غرام بأن تقص علينا صورا من ماضى الحياة فى الريف ، هذا الماضى الذى تطور فى نظرها تطورا لا تطمئن اليه نفسها • وكانت تقص على من تلك الصور ما يثير عجبى • كانت تذكر أن أسرتنا التى استأثرت بعمدية البلد ومشيختها ، ولا تزال تستأثر بهما،كانت تعد بالعشرات وتقيم فى منازل عدة ، وأن الفلاحين الذين كانوا يعملون فى أراضينا كانوا يجتمعون كل مساء بعد صلاة المغرب فى صحن الدار الكبيرة يتناولون طعام العشاء الذى يطهى لعشراتهم فى هذه الدار ، ثم لا يصد عن الطعام فقير وان لم يكن يشتغل معهم فى المزارع ، وانهم جميعا كانوا ينظرون الى جدى لأبى على أنه والدهم جميعا ، فلا يتزوج أحدهم الا بعد مشورته ، ولا يختلف اثنان الا احتكما اليه وقبلا حكمه ، ولا تطلق امرأة من زوجها الا بعد ان يقتنع بأن الصلح بين الزوجين غير مستطاع •

وكانت تذكر أن هذه الابوة لم تكن مقصورة على أبناء العـائلة والعمال فى مزارعنا ، بل كان أهل القرية جميعـا ينزلون على حكم جدى اقتناعا منهم بعدالته ، وبأنه رجل صالح يخاف الله ولا يرضى بما يغضبه ، وأنه الى ذلك رجل خير يعين البائس والمحتاج ويأنف أن يتدخل فى شئون البلد غريب أو أن يستبد بأهله حاكم ظالم •

وان نسيت الـكثير ممـا قصت على اذ ذاك فلن أنسى تصويرها للقرية المصرية فى النصف الثانى من القرن الماضى • فهذه الصورة

لاتزال عالقـة بذاكرتى ، وهى تجعلنى أرى أهـل تلك القرية يعيشون عيش القبائل فى البادية رغم أنهم أهل زراعة . ولم يكن هذا النوع من العيش عجيبا فى ذلك العهد . فقد كانت كل قرية تعيش فى عزلة عن غيرها من سـائر القرى لأن المواصـلات السريعة لم تكن قد ابتكرت ، وكان أهلها لايكادون يسـمعون شيئا عن حيـاة المدن ، الا ماتصل منها بعقائدهم وايمانهم الراسخ بالمشايخ والاسياد ، وتطلعهم لزيارة هؤلاء الاسياد للتبرك بهم . ولم يكن ذلك مستطاعا لغير ذوى اليسار ومن يلوذون بهم . أما سائر أهل القرية فكانوا يمضون حياتهم كادحين فى غير ملل ، مؤمنين بأن الله قسم الحظوظ ، وانا لن يصـيبنا الا ماكتب الله لنا ، هو مولانا عليـه توكلنا وعليـه فليتوكل المؤمنون .

كنت أطيل الاستماع لعمتى وأطرب لحديثها . وكنت أشد اغتباطا بما تقع عليه عينى من مناظر هذا الريف الممتعة حين أتردد عليه غير مرة خلال السنة . ولم يكن جمـال الريف هو وحده الذى يأخذ بنـاظرى ، بل كان لى من الطمأنينة الى أهله حظ عظيم . وكيف لأطمئن اليهم وأنا أرى من مظاهر ورعهم وتقواهم مايثير اعجابى . لقد كنت أخرج مع والدى أحيانا بعد الغروب فأرى أحدهم يقوم لصلاة العشاء فى مصلى سـاذج مفروش بالحلفـاء على حافة الترعة بعيدا عن الاعين فيهتز لذلك قلبى وتتأثر بهذا المنظر كل مشاعرى . فهذا الرجل المنفرد وسـط لا نهايات المزارع فى هـذه الساعة من المساء يدعو ربه ويستغفره كان مثـال الورع فى نظرى . ولم يدر بخلدى فى تلك الايام من طفولتى وبدء صـبای ماعسـاه يدور برأسه أثناء صـلاته أو بعدها من أفكار قد لايرضى الله عنها . بل كنت أومن بأنه فى وحدته قريب من ربه ، وأن حرصه على فروض دينه خير شاهد على نقاء قلبه وصفاء سريرته .

وعدنا الى القاهرة أخريات الصيف من تلك السنة وأنا موشكة

أن أدخل ميدانا جديدا من ميادين الحياة ، وأن ألبس ملابس النساء : الحبرة والبرقع . واني لأذكر اليوم في ابتسامة لاتخلو من مرارة ماكان يدور برأسى الطفل اذ ذاك من غبطة لهـذا الانتقال من حرية الطفولة الى قيود المرأة ، هذه الغبطة التى لاتفسير لها الا التطلع الى المستقبل الذى كتب على جنسنا ، والذى لانعرف غيره ولا مفر لنا منه ، والذى تنتظره كل فتاة ، أو على الاقل كانت تنتظره فتاة ذلك العهد وترى فيه أحلام السعادة ، ويرى أهلها فيه أحلام الطمأنينة الى الحياة ، أقصد الزواج . أواه لو علمت كل فتاة ، وآه لو علم أهلها مايخبىء الغيب !!

لاأريد أن أسبق الحوادث أو أعبر عما شعرت به فى لحظة غير اللحظة التى أكتب عنها . لقد كنت يوم دخلنا القاهرة فى ذلك العام سعيدة تفيض عنى المسرة . لقد كنت أحبو من الطفولة الى الصبا فى صحة ونضارة ، وكانت تحيط بى كل أسباب النعمة على ماكان يتصورها ذلك الجيل . كان أبواى يسبقاننى الى رغباتى ، وكنت أجد من حنانهما وعطفهما وبرهما مايسبغ على الحياة خير ألوانها ، ومايجعلنى أشعر كأننى فى جنة الخلد . وكان تقدير أساتذتى فى المدرسة وتقدمى فيها يزيدنى نعيما وغبطة .

وكان الامل الباسم الذى يفتح أجنحته الأثيرية للشباب الموشك أن يتفتح كما تتفتح الزهور ينشر أمام خيالى الساذج ألوانا من الهناءة لم أعرف لها فى الحقيقة مثالا . وكان مرجع رضـاى يومئذ عن نفسى الى ماعرفت به بين زميلاتى فى المدرسة من حسن الخلق لشدة محافظتى على صلواتى ، حتى كان بعض معلماتى يسميننى « رضوان الجنة » نسبة الى حارس جنة الخلد ، وذلك لشدة عنايتى بمصلى المدرسة .

وبعد أسابيع من استقرارنا فى العاصمة فكرت والدتى فى أن

تفصل لى حبرة ألبسها وألبس البرقع معها • ولهذه المناسبة جعلت أذهب معها الى المحال التجارية لتختار القماش المناسب والى الخياطة لافصل الحبرة • ويومئذ أحسست أن شعورا جديدا يخالط نفسى ، شعور الانوثة التى تسرى فى عروقى وأعصابى ، كما يسرى ماء الحياة فى الشجر فيزيده رواء ، ويزيد خضرة أغصانه بهجة وأكمام أزهاره تفتحا •

ولقد كنت اذ ذاك أعنى بملاحظة السيدات المبرقعات وما يسبغه عليهن الحجاب من جمال تزيد عيونهن النجل روعة وبراعة • وكنت نحيفة القوام معتدلته • وكانت والدتى لاتفتأ تلفتنى الى هاتيك السيدات الممتلئات يتحدث جسمهن البض عن معانى النعمة وتكاد تؤنبنى لنحافتى • بل لقد كانت تذكر لى ان من هاتيك السيدات من تشعر بنحافة جانب من جسمها فتطالب «الخياطة» بأن تضع تحت الحبرة أسلاكا أو تحشوها فتستر هذه النحافة • مع ذلك بدأت أشعر أن فى عينى من الجاذبية مايغنينى عن هذا الجمال المصطنع ، وان لم أجرؤ على أن أذكر شيئا من ذلك لوالدتى •

ولبست حبرتى وبرقعى وانتعلت حذاء عالى الكعب وأخذت أخرج مع والدتى الى الاسواق وفى بعض زياراتها لصديقاتها فاذا هـذا الشعور بالانوثة يزداد فى نفسى ، واذا حيويته تسرع الى النماء أضعاف نموها قبل أن ألبس الحبرة والبرقع • ولعل ماشعرت به من اختلاف نظرة الرجال الى أثناء سيرى مع والدتى عما كانت عليه قبل هذا الحجاب قد كان سببا فى هذا التزايد السريع فى نمو شعورى

وأدى ذلك بى الى مزيد من عنايتى بهندامى ، فكنت أقضى أمام المرآة زمنا أصلح أثنـاءه من شـأنى وألاحظ أثناءه أدق التفاصيل فى مظهرى • فكنت أعنى حتى بالشعرات التى تخرج من تحت

رأس الملاية ونظامها ، عنايتى بموضع البرقع من أنفى حتى يزيد فى جاذبية نظراتى ، ثم أعنى بانسدال الملاية على جسمى حتى تنم فى دقة عن ميول قوامى وبارع اعتداله •

ولم يزعجنى حديث والدتى عن نحافتى • فقد كنت أقرأ بعض المجلات والقصص الانجليزية ، فأرى فيها تصويرا للسيدات والأوانس النحيفات يشهد بجمالهن ويثير الاعجاب بهن • وكنت أقرأ مثل ذلك فيما تترجمه هذه المجلات عن الادب الفرنسى • ليست النحافة اذن عيبا لذاتها ، وان أثار الجسم الناعم البض من المعانى المألوفة فى مصر مالم يكن يدور اذ ذاك بخاطرى • ثم اننى رأيت فى هذه المجلات والقصص حديثا عن جاذبية المرأة وأنها ترجع الى رقتها ودماثة طبعها وحسن حديثها فأغرانى ذلك بالعناية بهذه النواحى من أنوثتى أكثر من عنايتى بما أقاوم به نحافتى

على أن شيئا من ذلك كله لم يصرفنى عن صلواتى احتفاظا بمكانتى بين زميلاتى وأساتذتى فى المدرسة ، وارضاء لشعور داخلى كان يتردد فى أعماق وجدانى بأن الزينة لاتخالف التقوى • وكم اغتبطت حين سمعت الشيخ الذى يتلو القرآن كل صباح جالسا فى غرفة الانتظار بالطابق الاسفل من منزلنا يرتل : « خذوا زينتكم عند كل مسجد» • فقد ثبتت هذه الآية شعورى الداخلى واطمأن لسماعها وجدانى فازددت عناية بزينتى كما ازددت حرصا على أداء فروض الله •

وازددت على الزمن شعورا بأن القراءة تتم الزينة • صحيح أنها ليست الزينة المادية التى تلفت النظر الى أشخاصنا حين مسيرنا فى الاسواق ودخولنا على صديقات والدتى ، بل هى الزينة المعنوية التى تزيد نظراتنا ذكاء وجاذبيتنا فعلا فى النفوس • لذلك أكببت على الكتب والمجلات التى كنت أستعيرها من مكتبة المدرسة ، أو

اشتريها من المكاتب ، وشعرت لهذا الاكباب بلذة قوية كانت تأخذني عن نفسي وتصرفني عن كل ماسواها ، وان جلبت على في كثير من الاحيان لوم والدتي خوفا على عيني ، واشفاقا منها أن تصرفني القراءة عن الاضطلاع بواجبات الفتاة والمرأة في العناية بأمور المنزل وحسن تدبيره

وخشي والدي حين رأى اكبابي على قراءة الكتب والمجلات الانجليزية أن يضر ذلك بلغتي العربية وثقافتي الدينية ، فاختار لي مدرسا شيخا كانت له به ثقة ، وكثيرا مارأيته يصحبه . بل لقد حضر الى العزبة أثناء مقامنا بها في الصيف مما دلني على أن له على أبي دالة تزيد في ثقته به .

وكان هذا الشيخ على حظ غير قليل من الذكاء . درس أول أمره في الازهر ، ثم انتقل الى دار العلوم فجود اللغة العربية بها ، وجعل همه أن يطلع على مايظهر من كتب مؤلفة أو مترجمة الى العربية ليجاري العصر ولا يقبع في زوايا الماضي على حد تعبيره . فلما بدأ تدريسه لي لم يلبث حين وقف على مبلغ علمي أن أختار لي كتاب « عيسى بن هشام » للمويلحي ، وكتاب « تحرير المرأة » لقاسم أمين ، وكتاب «التربية » الذي ترجمه محمد السباعي عن هربرت سبنسر . وقرأت جانبا من هذه الكتب الثلاثة معه وسمعت اليه يفسر مارآه غامضا علي من ألفاظها وعباراتها فأغراني ذلك بالمضي في قراءتها أثناء وحدتي ، وتفتحت لذلك أمامي آفاق جديدة يقصر دونها الكثيرات من أمثالي ، بل يقصر دونها كثيرون من رجال ذلك الوقت ونسائه . وقد كنت أقف وجلة أحيانا أمام ماأقرأ لأنه يخالف مألوف الحياة في مصر اذ ذاك ، وهو مع ذلك مكتوب بلغتنا العربية ، فيجب أن نفكر فيه ، وألا نعتبر قراءته مجرد تسلية لقتل الوقت ، ويجب أن ننتهي من هذا التفكير الى رأي . وكنت أسأل

أستاذى الشيخ أحيانا فيما يستوقفنى فلا يزيد على أن يبتسم ثم يقول : الزمن يافتاتى كفيل بانضاج رأيك فى كل ماتقرئين •

ولقد أخذنى العجب يوما لحوار جرى بين والدى وأستاذى حسبت حين سمعته أن الشيخ يبالغ فيما يسميه «عصريته» • فقد ذكر والدى أن شابا من أبناء أحد أصدقائه تزوج من أجنبية يهودية ، فكان جواب الشيخ : وماذا فى ذاك ؟ ثم تطور الحوار الى جدل دينى كان الشيخ فيه دون والدى تعصبا لعقيدته • فقد رأى والدى أن زواج اليهودية من المسلم يتيح لها الفرصة لتقف من زوجها أو من أهله أو من خلطائه على حقيقة الاسلام ، فاذا هى لم تعتنقه من بعد كانت مكابرة وكان مصيرها الى الجحيم • أما الشيخ فرأى أنها اذا لم تقتنع بحجة زوجها أو أهله أو خلطائه وعملت صالحا فلا جناح عليها أن تقيم على دينها وأن يغفر الله لها ويدخلها الجنة

كانت تدور أحاديث من هذا القبيل بين الرجلين ، وكان الجدال بينهما يبلغ الحدة ثم لايغير ذلك من ثقة والدى بالشيخ واطمئنانه لحسن ايمانه ، فاذا نودى للصلاة من مئذنة المسجد القريب من دارنا وقلم الشيخ للصلاة ائتم به والدى وقضى فرضه وراءه •

كنت أسمع وأرى مايحدث من مثل ذلك فلا أقف طويلاعنده • ومن كان فى مثل سنى يومذاك لايقف طويلا عند شىء ، بل تمر أمامه الاحداث والآراء فيلم بها الماما سريعة تبقيها فى ذاكرته لتنضم على الايام لأشباهها ثم تكون موضع تفكير وعبرة من بعد ، حين نصبح قادرين على أن نبدى حكما ذاتيا على مانرى ونسمع • وكذلك بقيت ذاكرتى تختزن ماستطاعت اختزانه حتى اذا آن الأوان تفاعل ذلك كله فى نفسى وكون وجودى الذاتى وكيانى المعنوى •

تعاقبت الأيام والاسابيع والشهور وانقضت السنة الدراسية واحتملنا قيظ العاصمة أسابيع من أوائل الصيف ثم ذهبنا الى العزبة وبدأ أقاربنا يزوروننا • وأقبلت عمتي وعلى رأسها طرحة بيضاء على خلاف ماألفت من لباس رأسها فى الاعوام الماضية ، اذ كانت طرحتها سوداء • ذلك لانها سافرت الى الحجاز وأدت فريضة الحج واستبقت الطرحة البيضاء من لباس احرامها • ولم يكن حديثها ذلك الصيف عن ماضى الحياة فى قريتنا العزيزة ، بل كان كله عن الحج والحجاز والكعبة ومسجد المدينة والمقصورة النبوية • وكانت تقص ذلك فى تفصيل يشهد بطمأنينة نفسها اليه واستراحة قلبها له • وكنت أشعر فى بعض ماتقصه بأنه أدنى الى الأساطير • لكنها كانت ترويه فى حرارة ايمان تنقل صداه الى قلب والدتى فلا تفتأ تكرر : يابخت من زار النبى • ولو أننى استطعت يومئذ أن أنقل كل ماروته عمتى عن حجها لتألف منه كتاب شائق • فقد كان حديثها عن هذا الحج يتصل يوما بعد يوم وكأنها شهر زاد فى الف ليلة وليلة • لكننى كنت فى شغل بقراءة مجلاتى وقصصى الانجليزية وبمراجعة عيسى بن هشام وتحرير المرأة والتربية ، لأن أستاذى الشيخ أخبرنى قبيل سفرنا أنه سيزورنا بالعزبة بعد شهر من مقامنا ويسألنى عما قرأته •

وجاء الشيخ الى العزبة فى الشهر الاخير من أشهر الصيف ، وكنت فى فترة هذه الاجازة المدرسية قد أسرعت فى النمو وبدأ تكوينى النسوى رغم نحافتى ، وشعرت فى نظراتى بجاذبية قوية كنت أغتبط بها حين أقف أمام المرآة أصلح من هندامى • ترى أكان هذا هو السبب فى أن والدى لم يكن يذرنى وحدى مع الشيخ ساعة تدريسه لى ! فقد لاحظت أنه كان يحضر دروسى جميعا على غير عادته من قبل • وما احتسبه خالجته شبهة فى خلوتى مع الشيخ ساعة الدرس أو خالطت نفسه ريبة من أمره • فقد كانت ثقته

بورعه فوق كل شبهة . وانما أحسبه خشى قالة الناس ، وقالة النساء أكثر من قالة الرجال . فقد علمتنى السنون من بعد أن الناس فى مصر ، من أهل المدن كانوا أو من أهـــل الريف ، يسرعون الى الريبة فى غير موضع الريبة ، ويتناقلون من الاحاديث الكاذبة فى أمر غيرهم مايسرعون الى تصديقه . هذا فى اعتقادى هو مادعا والدى لمصاحبة الشيخ ساعات تدريسه لى ، وبخاصة بعد أن رأى منذ كنا بالقاهرة عنايتى بهذه الدروس واستفادتى منها .

وجاءت موليات الصيف وآن لنا ان نعود الى العاصمة ، واننا لنأخذ أهبتنا للعودة اذ شعرت والدتى بمرض ألزمها فراشها . وتولت عمتى الحاجة العناية بها ، فكانت تلازمها ليلها ونهارها ، وكانت تتلو وهى فى مجلسها الى جانبها كل ماعرفت من رقى وتعاويذ ، وكانت تدير البخور على رأسها تطرد به حسد الحاسد . لكن المرض كان يشتد يوما بعد يوم . واستدعى والدى الطبيب من أقرب مدينة فلما فحص والدتى أشار بضرورة اسراعنا الى القاهرة أو بادخالها مستشـفى المدينـة القريب منا . وآثر والدى أن نعود الى القاهرة فعدنا اليها مسرعين .

وجاء الطبيب الذى اعتادت والدتى أن تعرض نفسها عليه كلما مرضت ، ففحص وأطال الفحص ودقق فيه ، ثم كتب تذكرة دوائه ووعد أن يعود المريضة بعد ثلاثة أيام . وخرج والدى معه من غرفة المريضة ووقفا هنيهة يتهامسان . وبعد أن ودعه عاد يؤكد لوالدتى أن الامر بسيط ، ولن يمضى أسبوع حتى تكون قد استردت عافيتها . ورأيت على وجه والدتى سـيما الالم ، وان ردت اليهـا هذه الكلمات من الطمأنينة ماخفف بعض وقعه .

وفى المساء جاء والدى بعد أن خلع ملابسه وتمطى على كنبة تواجه السرير الذى رقدت والدتى فيه ، بعد أن دعا الخادم وأمرها ففرشت عليها ملاءة ووضعت على طرفها الملاصق للحائط مخدة

نوم . وعجبت لما رأيت من ذلك . فلم أر والدى من قبل ينام
على هذه الكنبة قط . وألحت عليه والدتى أن ينام على السرير فى
الغرفة المجاورة لغرفتها فأبى قائلا : لقد نمت أنت على هـذه الـكنبة
غير مرة حين مرضى ، فلا أقل من أن أؤدى بعض ماعلى من دين
لك ، وان كنت موقنا أننى لن أؤدى الا القليل مقابل ماغمرتنى به
دائما من رقة وود خالص .

وغادرت الغرفة وقد زادنى مارأيت وسمعت اعجابا بأبى وبهذا
الحب المتبادل وتمنيت أن أسعد فى الحياة بمثله ..

وانقضت الايام الثلاثة التى تحدث عنها الطبيب وشكوى والدتى
من علتها لا تنقص ، بل تزيد . وجاء الطبيب فى موعده وأعاد
الفحص وخرج بعده مع والدى . وفى صباح الغـــد علمت أنه
سيحضر ومعه طبيبان آخران من كبار الأطباء لاجراء «كونسلتو»
يشخصون بعده المرض ويصفون علاجه . وجاء الاطباء الثلاثة بعد
الظهر من ذلك اليوم ، وفحصوا المريضة وما عولجت به من دواء ،
ثم تبادلوا الرأى ، وكتبوا تذكرة جديدة .

كانت والدتى تذكر للأطباء الثلاثة أثناء الفحص ماينتابها الوقت
بعد الوقت من آلام مبرحة ، وتنظر اليهم نظرة رجاء واستعطاف
لعلهم يخففون آلامها ويبرءونها من علتها . وكان الأطباء ينظر
بعضهم الى بعض لدى سماع حديثها ثم يقول كبيرهم العبارات
المطمئنة المألوفة وكأنه يتلو وردا من الأوراد أو دعاء من الأدعية
التى تتلوها عمتى الحاجة ، فلا يفتر ثغره عن ابتسامة ولا يلمع
فى عينيه معنى الرجاء الذى طمعت والدتى فى أن ترى بريقه .
فلما انصرفوا وودعهم والدى وعاد الى غرفة المريضة نظرت اليه
نظرة استفهام فقال :

– انهم يستحسنون نقلك الى المستشفى زيادة فى العناية بك .
وأجابته والدتى منزعجة ..

ـ المستشفى .. كلا . كل شيء الا المستشفى . واذا كان قد كتب لى أن أموت فخير لى أن أموت على فراشى هذا . أما ان كان الله قد كتب لى الشفاء فلن يكون فى المستشفى شفائى .

ورأيت فى عينيها دمعة تترقرق . فأخذ والدى يسكن من روعها ويذكر لها أنه كان على يقين من أنها لن تقبل الذهاب الى المستشفى، وأنه ذكر ذلك للأطباء ، ولقد رأى أن يعيد على مسمعها ماقالوا وأنهم يرون الخير أن تكون فى عناية ممرضة ورقابة طبيب . ثم ان والدى أضاف : وقد ذكرت لهم أننا نستطيع أن ندعو الممرضة لتكون الى جانبك هنا ، وأن طبيبك يستطيع أن يعودك كل يوم فى الصباح وفى المساء .

وجف الدمع فى عين والدتى ونظرت الى والدى نظرة عرفان وبدت على ثغرها المتألم شبه ابتسامة ، لكنها قالت :

ـ لا ضرورة لممرضة فأنا لا أريد أن تطلع أجنبية على دخائل بيتنا . واذا أمكن أن تحضر عمتى الحاجة الى هنا ففيها البركة ، وفى يدها الشفاء .

وكانت والدتى تحب عمتى حقا ، وتبادلها عمتى هذا الحب الصادق . وقد رأيتها تحضر صبح الغد من هذا الحديث وتدخل على والدتى تقبلها وتكرر لها الدعوات بالشفاء . وفى لحظات خلعت ملابس السفر وجاءت وعلى رأسها طرحتها البيضاء وجلست الى جانب والدتى وأخذت تتلو من الأدعية ماطمأنت له المريضة وشعرت لسماعه براحة نفسية لعل سببها أنه أزال ماتبدى لناظرها من شبح المستشفى ومنظر الممرضة .

وقد قامت عمتى بمهمة التمريض باخلاص وتفان لما بينها وبين والدتى من الود الصادق والمحبة الخالصة . فلم تكن المريضة ترغب

فى شيء الا سبقت الى تنفيذ ارادتها بهمة لاتعرف الكلال • وكم من ليلة باتت الى جانبها ساهرة تقص عليها من أخبار القرية أو من أخبار الحجاز ماتتسلى به المريضة عن آلام كانت مبرحة فى بعض الاحيان • وكثيرا ماسمعت العمة العزيزة تمنيها بعد أن يمن الله عليها بالشفاء أن تؤدى فريضة الحج وتزور القبر النبوى وتتمتع بلمس شباكه ولثمه • ووالدتى تسمع لذلك فيعاود نظراتها أمل يرد اليها الحياة بعد ذبولها • ولا أحسب ممرضة كانت تستطيع — وان بلغت من الدقة فى عملها أعظم مبلغ — أن تخدم المريضة بخير مما كانت تخدمها الصديقة الوفية الصادقة الود •

وكان الطبيب يعود والدتى كل يوم ، بل كان يعودها مرتين أحيانا • وكان والدى يقف الى جانبه أثناء هذه العيادة فاذا فرغ منها وطمأن المريضة بأن صحتها فى تقدم خرج مع والدى ووقفا برهة يتحدثان • وقد لاحظت غير مرة أن أسارير والدى خلال هذا الحديث كانت أدنى الى الانقباض ، وأنه كان يودع الطبيب الى الباب ثم لايعود الا بعد زمن لعله كان يحاول فيه أن يدخل غرفة المريضة بوجه تبدو عليه ملامح الطمأنينة ولا ينم عن شيء من اليأس والالم •

ولم يكن شيء يبعث الطمأنينة الى نفس والدتى ماتبعثها اليه صلوات عمتى الحاجة ودعواتها الصادرة من القلب • فقد كانت تؤدى الفرائض لأوقاتها على مقربة من سرير والدتى ، وكنت كثيرا ماأأتم بها • فاذا ماقضيت الصلاة رفعت كفيها ضارعة الى الله أن يشفى المريضة لتتمتع بشبابها وتفرح بابنتها • وكانت نجواها أثناء هذه الدعوات تخالطها حرارة الايمان الصادق والرجاء العميق فى وجه الله أن يستجيب لها •

رغم هذه الدعوات ، ورغم العناية الصادقة ، شعرت والدتى فى

احدى الليالى بألم ممض لا قبل لها به . وأسرعت عمتى فأيقظت أخاها من نومه . وجاء والدى مسرعا يحسب أنه يستطيع أن يخفف من هذا الالم بما يضفيه على زوجه من محبة وعطف وحنان. لكن الالم كان قد بلغ بالمريضة فكانت تتأوه وترسل من أعماق صدرها أنات تذيب الجماد . وأسرع والدى الى الطبيب فى منزله فكان كل مااستطاعه أن حقن المريضة بالمورفين تسكينا لحدة الالم، وأن أشار بضرورة استدعاء زميليه اللذين شاركاه فى(الكونسلتو) وفى تقرير العلاج . وهدأت حقنة المورفين من شدة الألم وأغمضت والدتى عينيها فى غفوة ذكرت لى عمتى من بعد أنهم كانوا يرجون أن تنام بعدها نوما هادئا . لكن الصباح تنفس عن معاودة الألم المريضة . ولما جاء الاطباء وفحصوا المريضة كانت سيماهم تنطق بمعانى اليأس ، ولا يبدو فى نظرات بعضهم لبعض شىء من الامل أو الرجاء . وكتبوا تذكرة دواء جديدة ، وودعهم والدى منصرفين

أفأستطيع اليوم ان أصف حالى أثناء مرض والدتى ؟. لقدانقضى الآن على ذلك الزمن مايزيد على ثلاثين سنة ، ولا أزال مع هذا أذكر كيف كنت فى ذلك الظرف القاسى أدور فى أنحاء الدار كأنى الروح الحائر لايعرف لنفسه مستقرا ، ثم أرتد الى غرفة المريضة فاذا سمعتها تتأوه أو تئن اضطرب فى صدرى قلبى وشعرت بالالم يحز فى كبدى فارتسم ذلك على قسمات وجهى ثم لم يغننى ماكان أبى يسبغه على من عظيم عطفه وسابغ حنانه . بل لقد كنت أشعر حين يزيد به الحنان عن مألوف عطفه كأننى أصبحت يتيمة الأم ، وكأنه يريد أن يكون أبى وأمى فى وقت واحد . وكانت عمتى تحاول جاهدة أن تقنعنى بأن والدتى ولله ألف حمد وشكر تتقدم نحو العافية ، وتذكر لى أنها رأت رؤيا تفسيرها أن المريضة ستعود الى مثل صحتها فى خير أيام عافيتها ، وأن رؤياها

لاتكذب أبدا ، فأطمئن لحديثها بعض الشيء ، ثم لا ألبث حين أسمع أنات الالم تكظمها المريضة جهدها كلما رأتني مقبلة عليها أن تذهب طمأنينتي وأشعر في دخيلة نفسي وأعماق وجداني بأنني مقبلة على أمر جلل ، فيزداد روحي حيرة ويزيدني الحنان والعطف الأبوي وحشة على وحشة . وتشتد مخاوفي أحيانا وأكاد أسائل نفسي : أأذنبت في حق والدتي يوما حتى أجثو أمامها وأطلب عفوها ومغفرتها ؟ بل لقد اعتزمت ذلك يوما ودخلت عليها أريد أن أقبل وجهها ويديها وقدميها وأسألها العفو عما لعله سلف مني . لكنها اذ رأتني أتخطى الباب نحوها أشارت الى اشارة فهمت منها أنها تريد أن تطالعني بشيء أو تسر الى أمرا . فلما دنوت منها أجلستني على السرير الى جانبها وأخذت تقبلني وتبكي وكأنها هي المذنبة تطلب الصفح . ولم أملك عبراتي فوضعت خدي على خدهاواختلط دمعي بدمعها ولم تنبس أيتنا ببنت شفة . واننا لكذلك اذ دخل علينا والدي ورأى مانحن فيه فانهمرت من مآقيه عبرات جعل يحاول حبسها ، ثم تقدم نحونا وقد اختنق صوته وأخذ يقول لزوجته :

« آمني بالله ياحبيبتي انه الرءوف الرحيم ، وعما قريب سيشفيك . فلا ترهقي نفسك ولا ترهقي هذه الصبية العزيزة بما لا طاقة لها باحتماله» . ودفعتني أمي عنها دفعا رقيقا لدى سماعهاهذه الكلمات فخرجت من الغـرفة مسرعة الى غرفتي وحبست نفسي ، وأسلمت العنان لدموعي . وبعد هنيهة رأيت والدي يقبل علي وحمرة عينيه تشهد بأنه مسحهما ساعة دخوله عندي . وما زال يتلطف بي حتى خرجت معه من الغرفة الى البهو ، وهناك جلسنا ندعو للمريضة بعاجل الشفاء .

لكن رؤيا عمتي والدعوات الصادقة الصادرة من قلوبنا جميعا لم تكن لتغير حكم القدر . فلكل أجل كتاب ، واذا جاء أجلهـــم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

فقد خرجت مطلع الفجر يوما من غرفتى فاذا عمتى جالسة على باب غرفة والدتى ، واذا هى لاتكاد ترانى حتى تأخذنى الى صدرها وقد هزه البكاء المختنق وتقبلنى وتقول : الامر لله يابنيتى،والله يحفظ لك أباك • ثم انها لم تطق كتمان بكائها فعلا صوتها به • وبكيت أنا كذلك وارتفع صوتانا ، وأقبل أبى وعليه ثياب النوم مايزال وأخذ يسكن من ألمى وكل ملامحه تدل على أنه لايقل ألما عنى ، وعبراته تحدث عن عميق حزنه • ولما تنفس الصبح جاء الخدم وهن يتوقعن المصاب الفاجع ، فلما عرفنه ارتفعت أصواتهـــن بالصريخ المزعج • وبعد سويعة أقبلت جاراتنا وانقلب البيت مناحة تدوى أصواتها فيما حولنا من الارجاء •

وتركنا والدى الى غرفتــه وهو يدق رأسه كأنمـا خرج الالم به عن صوابه • وأقبل صديق له من جيراننا سمع الصريخ وكان يتردد من قبل على والدى يسأل عن أخبار زوجته ، فلما رآه والدى ناداه قائلا : أرأيت ياأخى خراب بيتى • وأخذ الصديق يسكن من لوعة صديقه ويذكر له أن أهله ومعارفه سيحضرون له عما قريب فلامفر لهرغم هول المصاب من أن يتجمل بالصبر حين يتقبل العزاء • وذهب الرجلان الى السلاملك بعد أن ذهب والدى الى غرفته وارتدى ملابسه محاولا جهد طاقته أن يبدو فى وقاره الذى اشتهر به وعرف عنه

ودفنت أمى فى مشهد مهيب وتقضت ليالى المـأتم الثلاث وانصرف المعزون والمعزيات وأقفر بيتنا من روحه ، فكنت أرى والدى يتنقل فيه من غرفة الى غرفة ، بينما كانت عمتى تدبر شئونه وتبذل الجهد لراحة أخيها وراحتى • وكم رأيت أبى فى تطوافه من غرفة الى غرفة يدق يدا بيد ، أو يسير شارد الذهن ، مشتت اللب كأنما أذهله الخطب الذى نزل بنا ، أو كأنما يفكر فى أمر خطير • وكنت كلما

رأيته على هذه الحال ازددت شعورا بفداحة اليتم الذى أصابنى فحرمنى حنان الام وأنا أشد ماأكون حاجة اليه • وكان والدى يحاول مااستطاع أن يخفف لوعتى ، غير متكلف فى محاولاته الا مايمليه عليه وجدانه وتفيض به عاطفة الابوة وقد اختص بها الابنة الوحيدة التى رزقها منذ تزوج • وكنت ألمح فى عينيه حين يحدثنى أنه لم يبق له فى الحياة أمل غيرى ، وكنت أتمنى لذلك لو استطعت أن أدخل الى قلبه من السعادة ماكانت أمى تدخله على هذا القلب العطوف الرفيق

ولم يجر فى خاطرى أن أبى يمكن أن يتزوج بعد موت أمى • واننى لفى براءة صباى اذ طرق سمعى حديث يتبادله الخدم فيما بينهن وهن لايريننى •• حديث أفزعنى ولم أكد أصدقه •• قالت احداهن أنها سمعت عمتى تتحدث الى أخيها بأنه لايزال فى فتوة رجولته وأن بيته لايصلح الا أن يتزوج ، وأن والدى أظهر بادىء الرأى عدم الرضا اكراما لذكرى المرحومة أمى بعد الذى كان بينهما من صادق الحب ، فكان جواب أخته أنها كانت تحب المتوفاة كما كان يحبها ، وأنها حزنت لموتها مثل حزنه • لكن الله فى تصاريفه أحكاما لايدركها البشر ، وأنا اذا وجب علينا الوفاء لمن نحب فذلك واجب ماعاش المحبوب ، أما اذا اختاره الله الى جواره فقد سقط عنا هذا التكليف لأن قيمة الوفاء فى تبادله • فاذا لم يكن متبادلا فلا مسوغ لوجوده • والأموات يحلوننا بموتهم من واجب الوفاء لهم • ثم ان عمتى ضربت على الوتر الحساس من قلب أخيها فقالت : ولعل الله قد كتب لك ذرية صالحة من البنين يحفظون اسمك ويفتحون بيتك • والزواج سبيلك الى هذه الذرية • وابنتك هذه لاتستطيع أن تعيش وحدها فى هذا البيت الفسيح ، فهى بحاجة الى من تحسن توجيهها وتقوم بشأنك وشأنها •

وسمع والدى هذا الكلام من عمتى فأطرق طويلا ثم خرج بالصمت عن كل جواب • وسمعت أنا هذا الكلام من خادمات البيت فأخرجنى من أحلامى السوداء حزنا على أمى الى مخاوف أشد سوادا ، اشفاقا من المستقبل الذى يفغر فاه ليبتلعنى فى جحيمه • لكننى لم أكن أستطيع أن أقول شيئا أو أنبس بكلمة ، وكل الذى فعلت أن منيت نفسى أن تكون اطراقة أبى شاهدا بعدم رضاه عما سمعه من أخته • ولقد بدأت أشعر لهذه العمـــة بالبغض والكراهية ، وبدأت أفر من كل مكان أراها فيه ، فاذا جلست فى بهو الطابق الاول أو نزلت الى الطابق الأرضى أسرعت الى الحديقة ألتمس فيها الوحدة • واذا نزلت الى الحديقة ، وقلما كانت تفعل ، صعدت الى الطابق الاعلى والتمست فى غرفتى ملجأ أسكب فيه الدمع السخين على هذا اليتم الباكر •

ولست أدرى أأفضت عمتى الى والدى بميلى الى العزلة أم أنه لاحظ هذا الميل من تلقاء نفسه ، أم أنه كان صريحا حين قال لى ان عمتى تريد العودة الى قريتها ، وأنه يؤثر أن نغير الهواء بالسفر الى الاسكندرية والمقام بها أسبوعا أو أسبوعين •

وسافرنا بالفعل وسافرت معنا طاهيتنا ونزلنا طابقاصغيرا استأجره والدى من أحد معارفه كانت به خادم صغيرة السن تتقن تنظيف المسكن وقضاء ماتحتاج اليه الطاهية من السوق القريبة منا •

وكان لهذا التغيير فى لون حياتنا من الأثر الحسن على نفسيتى ماخفف بعض الشىء من عميق لوعتى • فقد كنت أجد من هواء البحر المنعش فى هذه الايام الاولى من فصل الخريف ماينشط ذابل حيويتى ، وكنت أجد فى زرقته الممتدة الى الأفق حيث يتعانق الماء والسماء مسرحا لأفكار مبهمة يذوب خلالها جـــوى الحزن الذى ناء به صدرى • وكان صريف أمواجه المتكسرة على الشاطىء يداعب سمعى وكأنه أنغام يبعث تشابهها الى الأعصاب نوعا

من السآمة المريحة التى تدعونا الى النوم كما تدعو أنغام الام طفلها الرضيع اليه .

ثم اننى قلما كنت أرى ماينبهنى الى ذكر والدتى . فقد كان والدى يخرج كل صباح ثم لايعود الا لتناول طعام الغداء ، وليستريح بعده فى سريره ساعة يخرج بعدها من جديد . ولم أكن أسأله كيف كان يقضى وقته . وكانت الطاهية تدخل مطبخها فى الصباح لاعداد الافطار ثم لاعداد طعام النهار . أما الخادم الصغيرة فكانت من الاسكندرية ولم أكن قد رأيتها من قبل ، وقلما كنت أجد الفرصة للتحدث اليها ، الا حين تصحبنى ساعة خروجى بعد الظهر أسير على شاطىء البحر . وفى تلك الساعة كانت تقص على أنباء تافهة عن مخدوميها أصحاب الطابق الذى نقيم به . ولم يثر عنايتى من حديثها الا اعجابها الذى لا حد له بجمال سيدتها ، وجمال أخت هذه السيدة التى تزوجت قبلها ثم ظلت سنوات مع زوجها لم تنجب فطلقها لانها لم ترض أن تشاركها فيه امرأة أخرى يرجو أن يرزق منها الخلف الصالح .

على أن هذه السكينة المحسنة التى خففت بعض لوعتى لم تبلغ أن أنستنى فادح مصابى ، ولا حجبت عنى طيف المتوفاة العزيزة أذاقنى موتها طعم اليتم المرير . فقد كانت تتبدى لى فى أحلامى ، وكنت أرى طيفها فى شبه اليقظة وأنا أنظر من نافذة الدار الى غاية الافق وكأنها ترنو الى بعيون ممتلئة حنانا وعطفا . وكثيرا ماكنت أناجى السماء عند هذا الأفق البعيد أسائلها لم حرمنى الله من أمى وما جنت ذنبا ، بل كانت البر والرحمة بكل محتاج الى البر والى الرحمة

وكنت أعيد هذا السؤال على نفسى اذا تبدت لى أمى أثناء النوم ثم استيقظ بكرة الصباح دامعة العين منقبضة النفس . واستبد بى هذا السؤال أيامنا الاخيرة بالاسكندرية حتى كنت أخرج أحيانا من

صلاتى قبل أن أتمها مخافة أن يجزينى الله بالتعرض لقضائه أو الاعتراض عليه • وكنت فى بعض الاحيان أجمع بين يدى كل قوتى وأمضى فى الاعتراض على ما أراده ظلما وقع بوالدتى وبى ، حتى اذا شعرت أننى أصبحت على شفا جرف من هاوية التجديف ارتددت فزعة أبكى وأنا لا أدرى أكان بكائى فرقا من هـــول ما اجترحت فى حق ربى ، أم من هول المصاب الذى أذبل صباى وشبابى وجعلنى أرى المستقبل أمامى أسود لايبدد ظلمته خيط من ضياء •

وأدت بى هذه الحال الى اهمال بعض صلواتى وكنت من قبل حريصـــة على ألا يفوتنى فرض منها ، كما بدأ يخـامرنى شىء من الشك فيما كان أستاذى يلقيه على من دروس الديانة

وعدنا الى القاهرة لموعد بدء الدراسة فى المدرسة السنية ، فلما كنت بين زميلاتى ومعلماتى لم أجد بدا من العود الى العناية بمصلى المدرسة محافظة على مكانتى • وانخرطت فى الدرس وضاعفت مذاكرة علومى فى البيت ووجدت فى ذلك مسلاة عن همى • وجاءت عمتى من جديد فتولت تدبير المنزل ، ثم أعفتنى المذاكرة من طول المكث معها • واطردت حياتنا على هذه الوتيرة زمنا كان والدى يسبغ على أثناءه أضعاف ماكان يسبغه على من قبل من عطف وحنان • وأخذت عمتى تدنينى منها ، فأنسانى مر الزمن ماسمعته من خدم البيت عن حديثها مع أبى فى أمر زواجه ، فلم تبق فى نفسى من ناحيتها تلك الحفيظة التى شعرت بها من قبل • وتعودت حياة اليتم وأخذت أشعر بضرورة الاعتماد على نفسى فى كل شأن من شئونى ، وبأنى مطالبة فوق ذلك بالاشتراك مع عمتى فى تدبير شؤوننا المنزلية ، وبخاصة ماتعلق براحة أبى فى ملبسه وفى غرفة نومه ، آملة أن يجد فى عنايتى بأمره مايصرفه عن التفكير فى الزواج •

الفصل الثانى

أقبل شهر رمضان بعد أسابيع من بدء السنة الدراسية فاختار أبى فقيها ندى الصوت أحيا لياليه مع الفقيه الذى ألفنا سماعه عندنا فى هذا الشهر المبارك • فلما كان عيد الفطر خرجت مع والدى وعمتى وزرنا قبر والدتى وذرفت عليه دمعات سخينة ووضعت عليه الورود وأغصان الشجر التى أحضرها والدى • وبعد شهرين كان عيد الاضحى فزرنا القبر كرة أخرى وسمعنا عنده من يرتل القرآن ووضعت عليه الورود وأغصان الشـجر ، وشعرت بدمعى أقل سخاء مما كان فى عيد الفطر ، وان بقى قلبى يشـعر بألم اليتم شعورا قاسيا عميقا •

وبعد أسبوعين علمت أن أبى سافر الى الاسكندرية لأمر لم أعرفه ، ولم تطل غيبته هناك غير أسبوع ثم عاد الينا وقد تزوج •

تزوج السيدة الجميلة المطلقة شقيقة صاحبة الطابق الذى نزلنا به حين سافرت معه • فلما دخل البيت معها نادانى وقال : سلمى على تيزة • ونظرت اليها فاذا هى جميلة هذا الجمال الشركسى البارع •• فارعة القد ، عالية العنق ، دعجاء العينين ، رقيقة البشرة ، دقيقة الانف والشفتين ، يلفت جمالها النظر ويمسكه • وسلمت عليها فى تأدب وبقيت هنيهة صامتـة ، ثم شعرت بأنى أطلت المقام فانفلت مسرعة الى غرفتى وقد أحسست بالعبرات تملأ عينى ، وخشيت عدم القدرة على أن أحبس فى صدرى نشيج البكاء • وأغلقت باب الغرفة وانخرطت فى حزن صامت مخافة أن يسمع أبى صوتى • ترى ماعسى أن يكون مصيرى مع هذه السيدة البارعة الجمال ؟ وهل اصطحبنى والدى الى الاسكندرية ليخطبها الى نفسه وأنا عما

صنع فى جهل وعمـاية ؟ لاريب أن عمتى لن تلبث أن تغادرنا الى قريتها وتترك أمر البيت وتدبيره الى الزوجـة الجـديدة التى حلت محل أمى ، وأصبحت ربة البيت ومن فيه ٠ وستغادرنا عمتى بعد أن دبرت هذا الزواج مع أبى ،وبعد أن علمت به منذ عدنا من الاسكندرية ثم كتمته عنى كل هذا الزمن

وطال احتباسى فى غرفتى ولم يدعنى أبى ولم تدعنى زوجه للانضمام اليهما ، ولم تفكر عمتى فى الدخول على لمواساتى ، وأغلب الظن أنهم رأوا الخير فى تركى أسلس العنان لعواطفى فى هذه اللحظة الاولى تقديرا منهم لما أثاره هذا الموقف فى نفسى من ذكر أمى وذكر مرضها وموتها ٠ لكننى لم أقدر الامر على هذا النحو فى هذه اللحظة ٠ فقد أيقنت أن العزلة أصبحت نصيبى ، وأن هذه الزوج الجديدة قد اختطفت أبى كما اختطف الموت أمى ، وأنى لم يبق لى الا أن أعتصم برحمة الله وأنزل على حكم قضائه القاسى٠

ولم يدر بخاطرى أن زوج أبى لم تلبث بعد أن اطمأنت الى مكانها من بيتها الجديد أن قامت تدور فى أرجائه لترسم فى ذهنها صورته ، ولترسم بعد ذلك أسباب تدبيره ٠ واننى لفى مجلسى من غرفتى وقد جف دمعى وان ظلت عيناى محمرتين من أثر البكاء اذ فتح الباب ورأيت الاب والزوج والعمة يدخلون على ثم يقول أبى موجها الكلام الى : أنت هنا ياابنتى ! وسرعان ماأقبلت زوجه نحوى وأخذت تطرى نظام الغرفة وحسن ذوقى فى تنسيقها ٠ وكان صوتها رقيقا فيه من الحنان مالم تتكلفه ٠ فلما آن لهم أن يتركوا الغرفة أخذتنى من يدى وأخذت تسألنى عن شأنى سؤال من يعنيه أمرى ويحرص على راحتى ٠ ونظرت اليها ألتمس مبلغ الصدق فى كلامها فسحرنى جمالها وخلتها ملاكا كريما بعثت به السـماء ليضمد جراحى ويأسو كلوم قلبى

وسرت الى جانبها وهى ممسكة بيدى ، فلما كنا فى البهو وأخذنا مجالسنا منه رأيتها تفتح حقيبة وتخرج منها عقدا جميلا تثبته حول عنقى ، ثم تخرج من حقيبة يدها مرآتها الصغيرة لأنظر جمال العقد على صدرى • ونظرت فى المرآة فأعجبنى العقد وكان أول مصاغ تحليت به من نوعه • وأدرت عينى الى ناحية أبى فاذا على ثغره ابتسامة راضية تشهد باغتباطه لما يرى •

غادرتنا عمتى بعد ثلاثة أيام الى قريتها • وانخرطت أنا فى نشاطى المدرسى وفى الدروس الخاصة التى كنت أتلقاها فى اللغة العربية وفى الديانة وأنا أحسب أن شيئا ما لم يتغير فى حياتى المنزلية • ترى هل كان للجمال البارع الذى اختصت به زوج أبى أثر فى هذا الحسبان ؟ ربما ! فقد تخطت الثلاثين وكانت فى نظرتها مع ذلك براءة الطفولة وفى ضحكتها سذاجة الصبا الذى تتفتح عنه هذه الطفولة ، وكانت قسمات محياها كأنما صورها فنان أدق تصوير مر بخياله • وكان شعرها الناعم الفاحم المنسدل على كتفيها خير اطار يزيد حديث عيونها بلاغة وجمال قسماتها روعةوسحرا • وكان قوامها بهجة للنظر باعتداله ودقته • وكان كل شيء فيها يقف الناظر اليها مسبحا بقدرة الخالق الذى أبدع هذه الفتنة الباهرة • وكانت حركاتها وسكناتها طبيعية وتبدو مع ذلك وكأنما درست بعناية لم تذر للمصادفة حظا فى شيء منها • وكنت كلما رأيتها سحرت بها وازددت ايمانا بالله بارئها وشعرت بأن لجمالها من السلطان على جنانى ماكان لحنان الام الرءوم من السلطان على وجودى كله •

تنصفت السنة الدراسية ثم قاربت نهايتها وأنا منكبة أشدالانكباب على دروسى ، ووالدى يحضر كعادته درسى الخاص مع الشيخ موضع ثقته • واننى لكذلك اذ مرضت وانقطعت عن المدرسة

قرابة عشرة أيام . فلما أبللت وأردت الاكباب عـــلى الدرس لأستعيض مافاتني أثناء علتي دعاني والدي اليه وقال لي : « لقد رأيت ياابنتي خوفا على صحتك أن تنقطعي عن المدرسة ولا تذهبي اليها منذ غد » . ولم يكن لي عهد بأن أناقش قرارا اتخذه، فخرجت من عنده وآويت الى غرفتي وقد عرتني الدهشة . صحيح أنني كنت أسمع زوج أبي تبدي من البرم بتعليم البنات الشيء الكثير ، وتذكر أن البنت خلقت للبيت وللأمومة لا لممارسة الأعمال والوظائف الحكومية ، وأن الخير لذلك كل الخير في أن تتدرب منذ صباها الباكر لتتقن ماستقوم به في مستقبل حياتها . لكني لم أكن أعير حديثها في هذا الشأن بالا لأني كنت أعلم أن أبي على غير هذا الرأي ، وأنه يرى أن تعليم الفتاة تعليما عاليا بعض مايجب لكمال وجودها الانســاني ، واحتياطا لمســتقبلها حتى يكون لها فيه من الحرية مايرفع عنها ذلة العبودية للرجل ، أيا كان مصـــدر هذه الذلة . فماذا حدث ؟ ما الذي دفع والدي ليبلغني هذا القرار ولم أبلغ بعد من التعليم غاية مرحلته الثانوية ؟ وهل للمرأة من الأثر على الرجل ، وان كان حصيف حصافة أبي ، أن تبدل تفكيره كما تشاء ؟ أم أن السلطان كان لهذا الجمال الساحر الذي اختصت به زوج أبي ؟ أيا كان الأمر لقد أيقنت من اللهجة التي أبلغ بها هذا القرار الى أنه قرار مبرم لا رجعة فيه .

وكان لهذا القرار أسوأ الاثر في حياتي . فقد أنشأ عندي عقدة نفسية لازمتني ولم أنج قط منها . وقد كان الأثر الاول لقرار أبي أن بدأت أعرف ماكنت أجهل . بدأت أعرف الكراهية وكان قلبي لايعرف غير الحب . كنت أحب الناس على اختلاف طبقاتهم ، وكنت أحب الطبيعة وفتنة جمالها ، وكنت أحب الحيوان والطير ، وكنت أحب الحياة ونعمتها حبا جما . ذلك بأنني لم أشعر منذ ولدت بما يزهدني في الحياة ، بل كان المتاع بها وبكل مافيها بعض

حظى • لقد كنت وحيدة بين أمى وأبى ، وكانا يفيضان على من حنانهما وبرهما مايجعل الهواء الذى أتنفسه كله الحنان والرحمة ، وكله المحبة والود ، وكله نسمات السحر وبسمات الزهر وأغاريد الطير والشذا المتضوع بأرق العواطف وأحلاها • لكننى مالبثت حين سمعت هذا القرار يبلغه الى أبى أن شعرت بأن زوجه صاحبة الوحى به ، وأن ماأسمعه عن زوج الأب وبرمها بأبناء زوجها صحيح ، وشعرت لذلك بهذه العاطفة الكريهة عاطفة الكراهية تندس الى قلبى وتجد منه مكانا لم يكن لها من قبل فيه موضع • وعجبت كيف ينطوى هذا الجمال الفاتن الذى صوره الله فى هيئة هذه المرأة على روح خبيثة كل هذا الخبث ، وكيف تستر هذه النظرات البريئة قلبا آثما كل هذا الاثم • وأيقنت فى قرارة نفسى أن برمها بتعليم البنت لم يكن رأيا تؤمن به وتبديه ، بل كانت البنت أنا ، وكانت برمة بتعليمى أنا ، ولهذا لجأت الى كل وسائلها وكل حبائلها وكل شباكها فانتشرت بسلطان جمالها فى دخيلة أبى وحملته على أن يتخذ قراره فيحرمنى نعمة كانت لذتى وسلواى ، وكانت صارفى عن أن أرى مافى الحياة من قبح وسخف

وأخذت أفكر كيف أقاوم ماقرروا • ولم يكن الذهاب الى المدرسة سبيلى بطبيعة الحال الى هـذه المقاومة • فأنا لم أكن أذهب اليها وحدى ، بل كان يصحبنى فى ذهابى اليها وأوبتى منها بوابنا العجوز ، كما أننى لم أكن أستطيع أن أعلن هذا العصيان الصريح ، وأنا موقنة أن ثورتى لن تلبث أن تتحطم ، ولن يكون من أثرها الا أن يغضب منى والدى وتشمت زوجه بى • ولذلك قررت أن أقضى معظم وقتى فى قراءة ماأستطيع قراءته من كتب عربية وانجليزية أستطيع الحصول عليها بوسـائلى • ولم أجرؤ يومئذ أن أستشـير أحدا فيما أقرأه ، فكنت أقرأ كل مايقع فى يدى ، صالحا كان أو طالحا ، نافعا كان أوضارا •

وبدأت زوج أبي تشغل نهاري بما سمته اعدادي لحياتي المقبلة، فأخذت تعلمني التطريز والخياطة والطهي وما الى ذلك مما يتصل في نظرها بتدبير المنزل • فهي لم تكن تعرف القراءة والكتابة ، لكنها كانت تجيد هذه الأعمال كما كانت تجيد العناية بجمالها كل الاجادة • لذلك كان اشرافها على نظام المنزل وحسن تدبيره وعلى كل مانأكل ونشرب بالغا غاية الدقة • صحيح انها لم تكن تباشر من ذلك شيئا بنفسها ، لكن نظرتها الى مايجري في المطبخ أو في الكرار والى ترتيب الاثاث وحسن تنسيقه وما تبديه في هذه الشئون من نقد وماتصدره من أوامر ، ذلك كان كافيا ليجعل عيون الخدم في رءوسهم فلا يهملون شيئا ولا يغفلون واجبا • وهي لم تكن مسرفة ولم تكن مقترة ، وكانت تعرف كيف تضع كل شيء في محله • لذلك أسرعت الى كسب ثقة أبي كما كسب جمالها ناظره وقلبه وعواطفه منذ اللحظة الاولى

أما أنا فلم أكن شديدة الاقبال على ماتعلمني من شئون المنزل • أكان ذلك رغبة مني عن هذه الشئون ، أم كان لأنها هي التي تعلمني اياها !• وقد خلق انقطاعي عن المدرسة جفوة بيني وبينها جعل كل ماتقوله لي أو تريدني على عمله موضع الريبة عندي • وأقبل والدي يوما يوجه الى لوما رقيقا على مايبدو من عدم اقبالي ، وينصح الى في لطف أن أقدر عناية زوجه بي وحرصها على مستقبلي ، فازددت بسبب ملاحظته نفورا من زوجه ، اذ شعرت أنها تريد ان تصرف عني محبته لتستأثر وحدها بكل قلبه • وذكرت له انني ربما ازددت اقبالا على هذه الشئون لو تعلمتها في مدرسة فابتسم ابتسامة ذات معنى وتركني وشأني ، اذ أدرك أنني أريد أن أبتعد عن البيت وربته جهد المستطاع •

وخيل الى بعد زمن أنني وجدت الوسيلة لما أريد ، فذكرت لأبي بحضور زوجه أن المرحومة والدتي كانت تود لو تعلمت

البيانو • ذكرت ذلك وكنت مقتنعة بأن امرأة والدى ستعارضه • ولشد ماكانت دهشتى اذ رأيتها تقول : كلامك هذا معقول ياعزيزتى • فكل فتاة مهذبة لاتعرف اليوم أن تلعب احدى آلات الطرب ينقصها شيء جوهرى لحياتها الزوجية ، ثم أشارت الى والدى قائلة : ومن الخير أن تشترى لها البيانو منذ الآن فهو بعض جهازها • ومتى جيء به الى البيت جاءت معلمته تدرسه الى بنتنا •

ونظر الى أبى مبتسما وهز رأسه كأنما يعاتبنى على مايدور بخاطرى من ظنون بزوجه ، وكأنما يقول لى : ان روحها جميلة جمال شخصها وأنها تحبنى حبها لابنة أحشائها • وجاوبت ابتسامته بابتسامة مثلها شكرا له على عطفه وانتظارا للبيانو الذى كنت أحلم به ••

وكان حقا على أن أشكر زوج أبى لتأييدها طلبى • لكننى لم أفعل • فقد كنت أريد أن أتخذ من تعلم البيانو فرصة للفرار من جو المنزل • أما أن تجيء معلمة البيانو اليه فقد أصبحت دروسه تحت سمع امرأة أبى وبصرها ، وهذا السمع والبصر يضيعان على الفرصة التى كنت أطمع فى انتهازها • ولم أكن أستطيع أن أعبر عما يخالج خاطرى من ذلك مخافة أن يساء تأويله ، وما أغنانى عن سوء التأويل • وحسبى أن صديقتى وزميلتى التى كانت تقيم على مقربة منا كانت تكثر التردد على ، وكان يسمح لى برد بعض زياراتها ••

واشترى والدى البيانو ، وجاءت معلمته فأكببت على استذكار دروسه ، اكبابى على قراءة كتبى • بذلك شغلت معظم وقتى ولم يبق فيه لتدبير المنزل فى صحبة زوج أبى مايثقل على نفسى أو تنوء به روحى • ومع ذلك بقيت الحيرة تتولانى كلما خلوت هنيهة الى نفسى ، وأشعر كأنى غريبة فى هذا المنزل الذى ولدت به ، والذى أعيش

فيه مع أبى ، وكأن روحا آخر يرفرف من وراء الحجب يريد أن يطمئن على ، وعلى أننى لاأنوء بألم الحياة •

وكان أبى يشاركنى الحيرة ، وان كانت حيرته من نوع آخر • لقد كان يسبقنى الى رغباتى ، فلم أكن أطلب شيئا الا أجابنى اليه ، وأضاف الى ماطلبت مايظنه يزيد فى غبطتى • وكان يرى زوجه تشاركه فى العمل على ارضائى ، ثم يرانى رغم ذلك قليلة الابتسام ميالة الى العزلة ، يبدو على دائما أن شيئا ينقصنى ، وأننى غير مستريحة لما أنا فيه • وكان من حقه والأمر كذلك ألا يعبأ باعتزالى • لكنه مع ذلك كان يحاول دائما أن يبلغ مرضاتى على حين كانت زوجه ترى فى تصرفه من المبالغة فى تدليلى مالا يتفق مع حسن تربيتى •

ولقد طالما ذكرت تلك الايام ، بعد أن تزوجت وصرت أما ، وطالما سألت نفسى أكنت متجنية فى حيرتى وفى عزلتى وفى عدم رضاى • فلم يكن ينقصنى يومذاك شىء ، ولم تكن زوج أبى تسيئنى بكلمة ، وكان جوابى على هذا التساؤل هو الجواب الطبيعى • فسعادتنا لاتتعلق بحاجتنا المادية بقدر ماتتعلق بحالتنا النفسية وباحساسنا وعواطفنا • ولئن جرت فى شأن امرأة الاب الاقاويل ، لحق أن زوج أبى لم تتعمد يوما أن تجرح عواطفى،أو أن تمنع عنى خيرا • بل لقد كنت أرى والدتى قبل مرضها ووفاتها توجه الى من ألوان النقد مالم توجهه الى زوج أبى • لكن النقد الذى كانت توجهه الى أمى ، والذى كان يغضبنى أحيانا ، كان صادرا من أمى • كان الدواء الذى لانسيغ طعمه أحيانا ، ولكننا نرى فيه الشفاء • فاذا لم نؤمن بأن فيه الشفاء فلا ريب عندنا فى أنه صادر من قلب سليم ، واخلاص صادق لخيرنا ، بل لاريب عندنا فى أن الحنان المتفجر من أعماق القلب البر العطوف ، قلب الام ، يمحو كل مافى هذا الكلام من شائبة تكدر صفونا • وهل الام كلها ، وكل

مايصدر عنها ، الا حنان وبر وعطف وايثار لبنيها على نفسها ؟ وهل الام وما أنجبت الا شجرة واحدة تتشعب فروعها ، وكل ما يمتصه الجذع من أسباب الحياة انما يمتصه لحساب هذه الفروع ولبهائها ونمائها وحسن اثمارها ؟ أولا تدل قوانين الوراثة على أن الاسرة وحدة متصلة على الزمن ، وأن عصارة الحياة فى عروق الاجداد تمتد الى أحفاد الاحفاد • وقلب الام لايعرف نفسه ولا يفرح لصاحبته أو يأسى لما يصيبها ، وانما فرحه لابنها أو لابنتها وأساه لما يصيبهم • والام تجمع الى قلبها قلب الاب لتسكبه حنانا ومحبة وبرا فى روح ذريتها • هذا كله تراث معنوى ضخم هو مصدر طمأنينتنا للحياة وسعادتنا فيها •

أما زوج الاب فشخص مستقل عنا كاستقلالنا عنه ، تتضارب مصالحه مع مصالحنا ، وميوله مع ميولنا • وهى تنافسنا فى كسب قلب أبينا زوجها • قد تنشأ بيننا وبينها صداقة ، ولكن محال أن يربط الحب الصادق بين قلبها وقلبنا • وأنى لها حب الوالدين لابنائهما وان بلغت من طيبة القلب وصفاء النفس أعظم مبلغ ؟ •• أذكر قصة طريفة تصور فى سخرية عاطفة الامومة وكيف تسمو بفطرتها على العقل ومنطقه • فقد كان لواحد من أقارب أبى زوجتان أنجبتا فى عام واحد ولدا وبنتا • وكبر الطفلان • وكان للولد غرام بأن يعض بأسنانه من يناوشه • وتأصلت هذه العادة فيه ، فكان يلجأ اليها من غير أن يناوشه أحد • وان أخته لتجلس الى جانبه يوما اذ بدا له أن يعضها ففرت منه الى أمها • وحمتها أمها من أخيها فبكى وأمعن فى البكاء • وعرفت أمه سبب بكائه فصاحت بضرتها : « ألا تشفقين على هذا الطفل ؟ • وما ضر أخته اذا هو عضها واستراح وانصرف عن البكاء ؟ » فأجابت أم الطفلة : « أتريدين أن يستريح هو ، وأن تبكى أخته لغير ذنب جنت ؟ •• فليبك ولينفلق من البكاء فلن أريح شذوذه» • وتبادلت الضرتان ماشاءت الشحناء أن تتبادلا •

من عبارات أوحت بها لكل واحدة منهما أمومتها . ألا يدل مافى هذا الحادث من سخرية وسخف على احتقار نظرة الامومة لكل منطق ؟ أولو كان الطفلان توأمين لام واحدة ، أفكانت تحاول أن تريح شهوة الولد على حساب البنت ، أو أن تدع الولد يمعن فى بكائه ولو انفلق ؟ أم كانت تجد فى حنان أمومتها مايسكن الطفل عن غضبه وما يصلح بينه وبين أخته من غير أن يعضها !

ولا ذنب على زوج الاب فيما تتهمها به الاقاويل . فالاقاويل تريدها أن تكون أما لغير بنيها ، وهى لاتستطيع ذلك وان حاولته . ولا وزر فى ذلك عليها . انما الوزر على الرجل الذى تزوج بعدما أنجب بنين ، سواء تزوج فى حياة زوجه الاولى أو بعد وفاتها . وما حاجة الرجال الى الزواج بعد أن يصبحوا آباء . ان نساء كثيرات يكرسن حياتهن لتربية ذريتهن . وحق على كل امرأة وكل رجل أن يكون ذلك شأنه .

لست أدرى لم أنزع الساعة للدفاع عن امرأة الاب بعد الذى كنت فيه من حيرة وعزلة وعدم رضا منذ تزوج أبى اثر وفاة أمى . فلادع هذا ولاعد الى قصتى . لقد انقضت الشهور منذ اشترى والدى لى البيانو ، ومنذ عكفت نهارى على استذكار دروسه عكوفا أنسانى شئون المنزل ، وكيف تكون العناية بتدبيره . مع ذلك بقيت أشعر بالوحدة والعزلة رغم عطف أبى وحنانه . ولقد زاد فى شعورى هذا حادث لم أكن أحسب أنه سيترك فى نفسى أثرا . فقد كان طبيب من كبار الاطباء المتخصصين فى أمراض النساء يتردد على المنزل ويعود زوج أبى . وقد كان أول أمره لايبدو عليه حين انصرافه مايدل على جديد . واستمر كذلك شهورا حتى رأيته يوما متهللا ، ورأيت والدى يودعه الى الباب الخارجى وعلى ثغره ابتسامة عريضة تنم عن مسرته واغتباطه . وسرعان ماعلمت

أن زوج أبى حامل ، وذكرت لسماع هذا النبأ حديث عمتى لابى بعد قليل من وفاة أمى تحرضه على الزواج لينجب الخلف الصالح وليكون له بنون يحفظون له اســـمه وذكره • عمـا قريب اذن سيشركنى فى عطف أبى طفل يستأثر بقلب أمه وبكل روحهـا ووجودها •• أترانى يومئذ أحب هذا الطفل كما لو كان ابن أبى وأمى ؟ وماذا يكون موقف أمه منى ؟ لعــلى لم أبلغ من تحليل الموقف مايجول الآن بخاطرى !• ولكنى ازددت اكبابا على البيانو نهارا ، وعلى القراءة ليلا ، ولم ألق بالا لمـا بدا على زوج أبى من أعراض كانت تلزمها سريرها أحيانا ، وتدعوها لتكليفى بمراقبـة مايدور فى المنزل • أما أبى فقد ازداد حدبا على زوجه ورعاية لها ، وجعل يدعو الطبيب ليراها كل أسبوع أو أسبوعين مبالغة فى العناية بها ، وبالطفل المستكن فى أحشائها • وكان الطبيب يستصحب فى بعض زياراته طبيبا شابا يعاونه فى قياس الضـغط ، أو فى اجراء بعض تحاليل سريعة يرى الطبيب المباشر أنه فى حاجة للوقوف على نتائجها لوقته •

وكان هذا الطبيب الشاب وسيما دقيق العناية بهنـدامه ، وفى عينيه بريق خاص ينم عن الذكاء والطيبة مجتمعين • وقد كان يسرع بالدخول مع الطبيب الكبير الى غرفة الحامل ، فـكان قصـاراى أن ألمحه من وراء حجاب ســاعة دخوله وخروجه • وكانت نظراته وحركاته تجعلنى أغتبط بمـا أرى منه ، وأود لو أسـتطيع التعرف اليه • أما هو فكان فى شـغل عنى بمـا يوكل اليـه اجراؤه أثنـاء الزيارة ، فاذا انصرف مع الطبيب الـكبير المتخصص فى أمـراض النساء تابعته بنظرى من نافذة غرفتى •

ولم يكن لى سبيل الى التعـرف اليه ، والحجـاب المضروب على النساء كان يومئذ على أشده ، فلم يكن يتاح لواحدة من بنات طبقتنا

أن تقف مع رجل أو تتحدث اليه أيا كانت سنه • بل لقد كانت الفتاة تخطب الى شاب لم تعرفه ولم تره ، ويكون القول الفصل فى زواجها منه لامها ولابيها ، وكان العار أكبر العار أن يكون لها فى الامر رأى ، أو تكون لها فيه كلمة •

وانقضت مدة الحمل ، ووضعت زوج أبى غلاما جميلا ابتهج والدى بمولده ، وفاض عنه السرور به • وجاءت أخت زوج أبى وأقامت لها حفل سبوع منقطع النظير • وبدأت أشعر نحو هذا الطفل البرىء بعاطفة الاخوة التى لم أعرفها من قبل • فلما صلب عوده وأصبح مستطاعا حمله كنت آخذه من مربيته وأضعه فى العربة فى بهو الطابق الاول ، كما كنت أجد فى النزول به الى الحديقة خير تسلية ، حتى لقد كانت هذه التسلية تصرفنى الى حد كبير عن استذكار دروس البيانو •

وتوعك الطفل فجن جنون أمه ، وأسرعت الى استدعاء الطبيب الشاب الذى عرفته أيام حملها • وفحص الطبيب الطفل وطمأن أمه وأباه وأخذ يحدثهما عما يجب من رعاية « لولى العهد » • ورغبت الام أن أسمع كلام الطبيب اقتناعا منها بأننى أقدر من المربية على العناية بالطفل • ولم يجد أبى بأسا بدعوتى • فلو أننى مرضت لعادنى هذا الطبيب وأنا فى فراشى • فلما نادانى وعرفت أن الطبيب لايزال فى غرفة الطفل شعرت بقلبى يخفق ، ثم هدأت نفسى اذ وجدت الفرصة سانحة لما كنت أطمع فيه من التعرف الى هذا الشاب الذى كان يكبرنى بعشر سنوات أو نحوها ومن محادثته • واستمعت اليه يصف الدواء ، فأخذت أسأله عن تفاصيل طعام الطفل وشرابه ونومه واستحمامه • وسرت زوج أبى بما بدا من عنايتى بابنها فنظرت الى الطبيب نظرة استعطاف وقالت : لاتؤاخذها يادكتور ، فهى تحب أخاها أصدق الحب ، وهى تتولى الكثير من شئونه •

ووصف الطبيب دواء بسيطا وقال أنه سيعود بعد ثلاثة أيام ليطمئن على صحة الطفل وعلى أثر الدواء • وعنيت أنا خلال هذه الايام الثلاثة بتنفيذ أوامره فى شأن الطفل بدقة أثارت اعجاب أمه ، ومسرة أبى • وكنت أنتظر اليوم الثالث بصبر نافد ، وبخاصة لانني رأيت الطفل قد زالت وعكته ، وعاودته الابتسامة البريئة الملائكية التى تجعل الاطفال جميعا أحباب الله ، وتجعل هذا الطفل الجميل ملاكا يشع منه نور يسعد به كل من حوله •

وجاء اليوم الثالث وجاء الطبيب ورأى الطفل وأبدى اغتباطه بشفائه • ولم تضن على زوج أبى بشهادة طيبة ، اذ قالت انني أنا التى بذلت كل العناية فى تنفيذ العلاج • وأدار الطبيب الشاب نظره الى وقال : يظهر أن للآنسة غراما بالطب • أم أن حبها لاخيها وعاطفتها الرقيقة نحوه كانا أشد أثرا من الدواء فى سرعة برئه •• وأنا مع ذلك سأعود بعد أسبوع لأزداد اطمئنانا على صحته • فالأطفال فى سن التسنين معرضون لوعكات لا خطر منها ولكنها تزعجهم وتزعج أمهاتهم أحيانا •

وجعل الطبيب يعود الطفل بعد ذلك كل أسبوع ، وجعلت أنا أزداد بهذا الاخ الصغير الجميل عناية وله حبا • أفكانت عاطفة الاخوة وحدها مبعث هذه العناية ؟ أم كان مبعثها فطرة الامومة التى تتحرك فى أحشاء كل شابة لمرأى طفل جميل ولاجتلاء ابتسامته ولاتصال جسمه بجسمها ؟ أم ترى كان لهذا الطبيب الشاب وزياراته المتعاقبة أثر فى هذه العناية ؟ يصعب على أن أبدى حتى اليوم رأيا فى الأمر • ولعل هذه الدوافع جميعا كانت ذات أثر فيه • ولكن الذى أذكره أدق الذكر أننى رغم ماشعرت به نحو هذا الطبيب من جاذبية ، وما كنت أجد فى حديثه من متعة ، كنت شديدة الحرص على أن لاتبدر منى بادرة تكشف عما فى نفسى ، بل كنت أبدو أشد

حرصا على أن أثير اعجابه وتقديره لعنايتي بأخي مني على أن أكشف له عن عواطفي •

فقد سمعت أن احدى زميلاتي في المدرسة أحبت شابا نابها وعرضت نفسها عليه ليتزوجها فرغب عنها وخطب غيرها ، فلما تمت الخطبة حاولت هذه الزميلة الانتحار • وان كبريائي لتسمو بي عن أن أعرض نفسي على كائن من كان ، بل اني لاشعر بأن الحب اذا انحدر بصاحبه ، رجلا كان أو امرأة ، الى هذه المنزلة كان ضعفا يجب أن تتنزه عنه كل نفس مهذبة •

وقد استأثر أخي الطفل بقلب أمه وبعقلها وبكل وجودها ، فلم تكن ترى في محيطها غيره ولم تكن تسمع غير صوته • لقد كنت أراها جالسة الى أبي يتحدث اليها وتستمع هي اليه ، ثم أراها تندفع قائمة نحو غرفة الطفل تقول : انه يبكي • هذا ولم يكن أينا سمع بكاءه • وتجيء به وقد حملته الى صدرها وقلبها فاذا الدموع بالفعل في عينيه ، واذا هو حقا كان يبكي في صمت لايسمعه الا قلب الام • ولم يكن أبي يسمع هذا البكاء الصامت ، ولكنه لم يكن لذلك أقل اقبالا على الطفل واعزازا له من أمه • كنت أرى هذا الرجل الرزين الحصيف يدخل الى البيت وفي يده غير مرة في الاسبوع لعبة من لعب الاطفال ممن هم في مثل سن أخي • وكان يجد متاعا بل سعادة كلما رأى الطفل يبتسم أو سمعه يضحك • وكان الوالدان يزدادان للطفل حبا كلما تقدم نموه • فلما استطاع أن يقف على قدميه ليمشي كانت حركاتهما لتشجيعه تثير الضحك • لكنني لم أضحك لأنني كنت أحب أخي كما كانا يحبانه ، وكنت سعيدة كسعادتهما به •

وشغل « ولي العهد » خدم البيت كما شغل سادته ، فلم تكن مربيته وحدها تلحظ حركاته وسكناته بعطف وعناية ، بل كانت

كل واحدة من الخـدم تود لو اسـتطاعت أن تخدم سيدها « البيه الصغير » لتسعد بهـذه الخدمة ، ولتنـال بها حظوة عند أمه وأبيه وأخته • ولست أبالغ حين أذكر أن الكل كانوا يسعدون لعنايتهم بهذا الطفل البرىء الذكى الجميل • وكانت أمه مع ذلك تخاف عليه من خياله ، فاذا سقط على الارض وهو يمشى أقامت الدنيا وأقعدتها، واذا صاح لان أحدا أخذ منه شـيئا مخافة تلفه صـاحت لصـياحه وأثارت فى البيت ضجة كأن حادثا خطيرا حـدث • ولم يكن أبى يلومها على شىء من ذلك أو يسدى اليها النصيحة لخير الطفل ، بل كان يجاريها فى غضبها ورضاها ، لانه كان لايرى الا بعينيها ولا يسمع الا بأذنيها ، ولا يعرف فى الحياة منطقا غير منطقها •

بدأت رغم حبى لأخى أضيق ذرعا بهذه المبالغات وأشعر أننى أصبحت من رعاية أبى فى المحل الثالث لا فى المحل الثانى ، وأن أخى وأمه مفضلان على عنده ، فازداد برمى بزوج أبى ، وأحسست أن البيت على سعته يضيق بى • وكنت قد تجاوزت اذ ذاك السابعة عشرة من سنى حياتى • وكانت صديقتى التى تعيش مع أبويها على مقربة من بيتنا قد خطبت الى شاب موظف فى الحكومة أثنى عليه أبى غير مرة أمامى • قلت فى نفسى : أولا يكتب لى الحظ ماكتب لها فأنتقل الى بيتى أنا بدل أن أبقى حبيسة مع امرأة أبى ؟! وتصورت يوما قريبا يكون لى فيه طفل كأخى أسبغ عليه من حبى ومن قلبى ومن عنايتى ورعايتى كل مايحتويه قلب الام من بر وحنان •

ساورتنى هذه الاحلام واشتد أخذها بخناقى حين اشتدت لهفة زوج أبى على ابنها الطفل حتى جعلت تلومنى على ماسمته عدم عنايتى به • وهى قد زادت فى التثريب على منـذ رأتنى عدت أسـتذكر دروسى على البيانو وأقضى وقتا غير قليل أمامه • فقد كنت أهملت هذه المذاكرة شهورا عدة لفرط اشتغالى بأخى • فلما رأيت مخاوف أمه ولهفتها عليه وتعلق أبيه به أخذت أعود الى دروسى أتسلى بها

عن هذا الشعور الذى استبد بى وجعلنى أشعر أننى صرت من رعاية أبى فى المحل الثالث • ولئن حز هذا الشعور فى نفسى لقد دعانى من بعد الى أن أتساءل : ترى لو أن أمى لم تمت وأنجبت غلاما كما أنجبت زوج أبى ، أكانت الرعاية الابوية تنصرف اليه عنى ، كما انصرفت الى أخى من غير أمى ؟ أم كنا نعيش أسرة واحدة يجرى فى عروقها دم واحد هو ماء الحياة الذى يمتصه جذع الشجرة ليبعث منه الى فروعها البهاء والنماء والحيوية المترعرعة بمعانى النعمة والسعادة ؟ فأين نحن الآن من هذا الوضع • ان الفرنسيين يعبرون عن الأخ أو الأخت لأب ، وعن الأخ والاخت لام انه نصف أخ أو أنها نصف أخت • وقد يكون لهذا التنصيف المادى مايسوغه • ولكنى أحسب أن للتعبير الفرنسى معنى أعمق من ذلك بكثير • معنى يتناول الجانب العاطفى فى صلات الاسرة وأفرادها بعضهم ببعض • فصلة الام بأبنائها صلة مباشرة • هم من دمها ولحمها ، ومن قلبها وروحها ، ومن أعماق وجودها• أما صلة الاب بالابناء فصلة بالواسطة • والام هى هذه الواسطة • فاذا كان له أبناء لاكثر من أم تأثرت عواطفه لابناء كل أم بمبلغ مابينه وبين الام من مودة ، وان اختلف هذا الاثر فى نفس أب عنه فى نفس أب آخر • هذا اذا كانت الامهات جميعا أحياء • أما فى مثل حالنا حين تكون أم حية وأخرى قد انتقلت الى جوار الله فذكرى المتوفاة تقوم فى نفس الاب مقامها ، وان كان الحاضر أفعل أثرا من الغائب • وأبى كان يحب أمى أشد الحب ، وهو اليوم يحب زوجه أشد الحب • ولا يستطيع الحاضر أن يحجب الماضى وان استطاع أن يتغلب عليه • ولطفولة أخى ولجمال أمه أثر فى هذا الغلب •

ولعلى لو أتيح لى من الحظ ما أتيح لصديقتى التى تقيم مع أبويها قريبا منا فخطبت ثم تزوجت لاستردت رعاية أبى كاملة ، ولتخلصت من لوم زوجه اياى وتثريبها على •

وفيما تساورني أحلامي عاودت الوعكة أخي ودعى الطبيب الشاب لعيادته • فلما رآني أخذ يسألني عنه ثم يسألني عن نفسي • وكان هذا الطبيب هو الشاب الوحيد المثقف الذي أتيح لي أن أتحدث اليه غير الشباب من ذوي قرباي وأبناء أسرتي • ولم يكن واحد من هؤلاء يطمع في يدي لانهم كانوا ينظرون لأبي على أنه أكبر مقاما وأوسع ثروة وأعرض جاها من آبائهم جميعا • ولم أكن أشعر نحو أحد منهم بمحبة ولا بجاذبية خاصة • ولذلك كنت أتمنى لو أن هذا الطبيب خطبني الى أبي ، ولو أن أبي قبل هذه الخطبة وبشرني بها •

ومن يومئذ جعلت أخلق لنفسي منه تمثال المحبوب العزيز الذي أتمناه لنفسي • وكان أشد ما جذبني اليه ماتنم عنه نظراته من طيبة قلبه ورقة شعوره ، وهو قد بلغ من ذلك مبلغا غير مألوف • كان رغم أنه طبيب ، يتحدث عن مرض أخي والدمعة تترقرق في عينيه • وكان اذا قص على والدي نبأ من الأنباء بدا عليه التأثر لكل مصاب أو محزون • وكان الى ذلك محبا للحياة ومتاعها ، تبدو عليه آثار اليسار والنعمة • كانت السيارات في ذلك العهد مركبا نادرا ، وكانت له مع ذلك سيارة أنيقة يسر العين مرآها • أما وذلك شأنه فلا بد أن يكون خلقه رضيا وأن تكون الحياة معه حياة طمأنينة ونعمة وسعادة •

وجاء يوما يعود أخي وكان والدي قد استدعى الى العزبة على عجل • فلما أتم فحصه وبدأ يكتب تذكرة الدواء أخذ يتحدث الى فيما يجب للعناية به • وقبل أن يتم حديثه نهض فنهضت معه وسرت الى جانبه وأخذ يكمل حديثه ونحن على السلم في طريقنا الى الطابق الارضي • وبعد عدة درجات هبطناها على السلم قال :

ـ اسمعي يا آنسة • انني فكرت أن أخطبك الى أبيك • لكنني رأيت ألا أفعل مالم تكوني أنت موافقة على ذلك •

فألقيت ببصري الى الارض واحمرت وجنتاى خجلا وقلت فى شيء من الكبرياء •

ــ ليس ذلك شأنى ولكنه شأن أبى •

وكان تعليقه على عبارتى : يكفينى هـذا منك • وأنا أشكرك أجزل الشكر •

وعدت مسرعة الى غرفة أخى مخافة أن تظن أمه بى الظنون ، وأخبرتها أن الطبيب ذكر أن مابه ليس الا سوء هضم بسيط سرعان مايزول أثره • وبعد أن طمأنتها أويت الى غرفتى وجعلت أكرر فى ذهنى ماسمعته عن خطبتى من أبى ، وأخذت أسائل نفسى أأحسنت أم أسأت فى اجابتى ، وأمنى نفسى الامانى للمستقبل ، وأرقب عود أبى من العزبة بصبر نافد • أفلا يجب أن أذكر له ماحدث أول ما أراه ؟! وهب الطبيب عدل فلم يخطبنى اليه ولم يذكر له شيئا ! وأقمت زمنا أضرب أخماسا لأسداس وأبنى قصورا فى الهواء ••• ولما جن الليل جفا النوم عينى وأنا بين الامل الواسع الفسيح أقيم فى قصوره بعد أن أنظمها على هواى ، وبين الخوف أن يفلت منى هذا الامل فلا أفوز منه الا بسراب •

وارتسمت أمامى صورة الطبيب الشاب كما أرادها خيالى وشعرت لمرآها بأن قلبى ينبض بعاطفة كانت مستكنة فيه ، وكان الحياء والكبرياء يأبيان عليها أن تبرز الى الوجود • أما الآن وأنا فى دثار من جنة الليل وحمايته فقد تجسم الحب فى قلبى وانتقل منه الى وجدانى بل الى حسى المادى ، فشعرت كأنى أضم هـذه الصورة الى صدرى وأرى فى صاحبها ملاكى الحارس وحصنى الامين •

وعاد أبى من العزبة بعد أيام عاد الطبيب خلالها أخى ثم انصرف ولم يذكر لى شيئا عن اعتزامه خطبتى الى نفسه ، وان حدثنى فى حضرة زوج أبى عما يجب للطفل ــ وقد زالت وعكته ــ من احتياط

حتى لاتعاوده • وبعد أيام جاءت زوج أبى الى غرفتى تقبلنى وتهنئنى بمفاتحة الطبيب أبى فى أمر خطبتى ، وتسألنى عن رأيى ، فألقيت بصرى الى الارض واحمرت وجنتاى خجلا وقلت :

ـ لا رأى لى الا مايراه أبى •

فقبلتنى مرة أخرى وقالت :

ـ نعم الجواب ياحبيتى ، فهكذا يكون الادب ، وهذا ماكان ينتظره أبوك وما كنت أنتظره منك •

وفى الغد جاء الطبيب ومعه صديق له وقابلا والدى فى السلاملك • فلما انصرفا جاء والدى فقبلنى وأخبرنى أنهم سيقرأون فاتحتى بعد غد •

وبعد غد جاء الطبيب ومعه أهله واستقروا مع والدى فى فى السلاملك وقرأوا الفاتحة وأديرت عليهم المرطبات • هنالك انطلقت ألسن الخدم بالزغاريد ، وهنالك شعرت بأنى خطوت خطوة واسعة نحو آمالى فى حياة جديدة •

وأصبح خطيبى أكثر حرية فى التحدث الى حين زياراته ايانا ، وشعرت بأن الحظ أسعدنى بما لم أكن أسعد به لو أن أحدا غير هذا الطبيب قد خطبنى • فلو أن ذلك حدث لما رأيت خطيبى الا من فرجات النوافذ ولما استمعت الى صوته الا اذا تسمعت من وراء الأبواب حين حديثه مع أبى • كان ذلك حكم الوقت على كل فتاة تخطب • أما وقد سعدت بما لم تسعد به غيرى فقد أيقنت أن الحظ يبسم لى ، وأن القدر سيعوضنى عن فقد أمى عاطفة جديدة ، تلك عاطفة الحب المتبادل •

وشغل أبى وشغلت معه بجهازى • وكانت زوج أبى تشاركنا الرأى فى بعضه ، وتكون صاحبة الرأى الاخير فى أمر الحلى

والثياب • وكانت فيما تقوم به من ذلك غير ضنينة ولا متلكئة • فلما أتممنا الجهاز أقيمت حفلة الزفاف ، حفلة نادرة باهرة ، وبدت زوج أبى ليلتها فى أبهى حللها وأبدع زينتها ، وقد تلألأ جمالها حتى كانت كأنها عروس الحفل • أما أنا فكنت أنتظر بصبر ذاهب نهاية الاحتفال لاذهب مع زوجى الى بيتى ولأنسى فى أحضانه متاعب الحياة •

وانتقلت معى الى بيتى خادم كانت عندنا من عهد أمى ، وكانت أمى وعدتها بأن تكون فى خدمتى حين أتزوج • فلما اطمأننت فى غرفة نومى وآن لى أن أخلع ثيابى وجاءت هذه الخادم تعاوننى قالت فى ابتسام :

ـ أسمعت ياسيدتى كلام السيدات فى الفرح • أحسبك كنت مشغولة عن كل شيء بانتظار المجيء الى هنا •

قلت : هذا صحيح • وماذا قلن •

وأتمت الحديث بقولها : « لقد أدهشتهن زنة سيدتى زوج أبيك حتى قالت احداهن • لمن الفرح ؟ أهو للبنت أم للست ؟ وأجابت الاخرى : هو للبنت اغتباطا بذهابها الى بيتها • وهو للست اغتباطا بتخلصها من بنت ضرتها واستقلالها بالبيت وسيده فلا يكون لها فيهما شريك • »

وابتسمت لحديثها ، ولم تلبث حين رأتنى خلعت ثيابى أن غادرت الغرفة ليجيء اليها رب البيت ، ليجيء اليها زوجى العزيز الحبيب الطبيب الشاب •

وبدخوله الغرفة بدأت سنوات هانئة سعيدة ليتها دامت •

الفصل الثالث

قضينا بدء حياتنا الزوجية سنوات هانئة سعيدة ليتها دامت • ولقد طالما بحثت عن السبب فيما طرأ عليها من بعد • أنا أعلم أن كثيرين يتهمونني بأني السبب ، وأنه لولاى لبقينــا فيما كنا فيــه من نعمة وطمأنينة • ولكنى لاأقر هذا القول ولا أرضاه ، بل أحسبنى كنت ضحية أكثر مما كنت مســئولة عما حدث • ولست أريد بتدوين هذه القصة أن أدافع عن نفسى • وحسبى أن أسوق الحوادث كما وقعت وأدع من تقع عينه يوما على هذه القصة أن يحكم لى أو على • ولا أريد بتبرئة نفسى أن أتهم زوجى بأنه هو وحده سبب ماأصابنا• ولو أننى فعلت لكنت ظالمة ، وان كنت لاأســتطيع أن أبرئه براءة كاملة ، مع الاعتراف من جانبى بأنه لم يقصد الى غرض سىء ، بل لعل طيبته وبالغ عطفه يحملانه من التبعة أكثر مما كان يحمل لو أنه كان أكثر قصدا فيهما •

لقد بدأنا حيــاتنا الزوجية حبيبين ســعيدين • كان كل ماحولنا يبسم لنا ويشدو لنا بأنغام السعادة • كنا نخرج تحت جنح الظلام فى سيارته وكان هو يقودها ، مرة الى سفح الهرم ، وأخرى الى القناطر الخيرية ، وثالثة الى المعــادى ، ورابعــة الى عزبة والدى ، فلم أكن أرى فى الطريق الى أى من هــذه الاماكن الخلوية الا الســعادة يحملها الهواء معه الى قلبى وروحى • وكنت لا أشعر حين عودتنا من هذه الجولات بشىء غير عبير الحب يحمله النسيم على أجنحته ويدخل به وايانا الى عشنا الصغير الجميل • وكان زوجى الشاب الرقيق العزيز يتمنى لو اســتطعنا أن نســافر الى أوروبا نمضى فى ربوع سويسرا أو النمسا شهر العسل، لولا أن كانت الحرب العالمية

الاولى تحول بيننا وبين تحقيق هذه الامنية الساحرة البديعة • وقد استعضنا عن هذا السفر بالمقام زمنا فى دهبية لاحد أصـدقاء أبى ، فكنت أحس اذ أنظر الى ماء النيـل من نوافذها وكأنه يحمـل فى تياره أريج الصبا ونسيمه العليل • وكان زوجى يغيب عنى ساعات كل يوم فى عمله فكنت أشـعر بأنى من انتظـاره على لظى لايبرد سعيرها الا أريج يحمل الحب شذاه آتيا من ناحية عيادته ، فاذا عاد الى عشنا وتعانقنا شعرت كأننى ذبت فى هذا العناق خلاله وأصبحت حبة قلبه • وكان هو من جانبه يبادلنى حبا بحب وهياما بهيام • كان كل تفكيره متى فرغ من عمله كيف يزيدنى سـعادة وهناءة • فاذا جلس الى جانبى وألقيت برأسى على صدره شعرت من نبضات قلبه بطمأنينة الى الحياة تنقلنى من هذا العالم الذى يضـطرب فيه الناس جريا وراء أهوائهم ومنافعهم الى عالم من الاحلام مفروشة أرضه بالورد ، معطر هواؤه بشـذا الحب وأنغام الهوى والغرام • أين أنا الآن مما كنت منذ توفيت أمى • بل أين أنا الآن مما كنت منـذ ولدت • اننى سعيدة سعيدة سعيدة • سعيدة بمالا تعبر عنه الالفاظ بل لاتعبر عنه الموسيقى ، وكأنى أتقلب من عالم الناس فى نعيم جنة الخلد ، فيها ماتشتهيه الانفس وتلذ الاعين وما يحملنى على أجنحة من الخيال الى عالم السعداء والراضين ، عالم المحبين الذين يستمتعون بنعمة الحب الى غاية حدود المتاع •

انقضى العام الاول من حياتنا الزوجية وأنا فى هذا البحر اللجى من فيض السـعادة • وكنت أثنـاء ذلك لا أخالط غير زوجى من الرجال الا أبى والاقربين من محارمى ، فلم يكن يباح للمرأة من طبقتنـا يومئـذ أن تتحدث الى غير هؤلاء من الرجال • أما النسـاء فكانت تزورنى منهن بعض زميلاتى وصديقات صباى وحبيبات أمى • وكانت زوج أبى تزورنى أحيانا بطبيعة الحال • وكنت أنقل كل حـديث يجرى بينى وبينهن ، أو بينى وبين أبى ومحـارمى ، الى

زوجى العزيز • وكنت أشعر بالغبطة حين أراه مسرورا لسماع هذا القصص الساذج ، لانى كنت مصدره • ولم يكن يخفى ذلك على ، بل كثيرا ماكان يقول لى اذا أنا فرغت من رواية أقاصيصى : تحدثى ، تحدثى ، ان نغمات صوتك تشجينى ، ونظراتك الى أثناء الحديث تنفذ الى قلبى وتبعث الى وجودى كله النشوة والطرب •

وكنت أعلم أن فى نظراتى جاذبية طالما سحرت بها وأنا أنظر الى نفسى فى المرآة • جاذبية لاترجع الى جمال عينى ، بل الى قوة التعبير التى تنبعث من هـذه النظرات • ولم أكن أحسب أن هذه الجاذبية قديرة على أن تسـحر غيرى كما كانت تسـحرنى • وكنت أشعر كذلك أن لصوتى حين أتحدث سلطانا لايقل عن سلطان نظراتى • وكنت قد ورثت نغمة صوتى عن المرحومة أمى ، كما ورثت لباقة حديثى وقوة تعبيره عن عواطفى ومقاصدى عن أبى • ولا شك فى أن قراءاتى الـكثيرة فى الكتب العربيـة والاجنبية قد أعانت هـذه الوراثة وبلغت بى الى هذه المقدرة التى كان يعجب بها زوجى • على أننى لم أقدر سلطان هذه الملكات على غيرى لأول ماحدثنى زوجى عنها ، بل حسبت أن حبنا المتبـادل هو الذى يوحى اليـه اطراءه • فلما رأيته يكرر الاطراء فى مناسبات شتى أخذت أعتد بهذه الملكات وأعنى بتنمية غراسها ، فعدت الى مرآتى أدرس فيهاسلطان نظراتى ، وعدت الى كتبى أقرؤها حين غياب زوجى فى عمله وفراغى من تدبير المنزل • وكنت أقرأ بصـوت مسـموع مايعجبنى وما يزيده حسن الالقاء أثرا فى النفس • فاذا جاءت صديقاتى والاقربون من ذوى رحمى لزيارتى أخذت أتحسس أثر مواهبى فيهم وسلطان نظراتى وعباراتى عليهم •

ومن يومئذ آمنت حقا بأن من البيان لسـحرا • فقد كان الذين يزوروننى يبالغون فى اعجابهم بحسن انصاتهم لحديثى واستزادتهم

منه ، مما جعلني أنا كذلك ألذ بالاصغاء لصوتي والاستماع لحديثي حين متاع الآخرين به . وكنت أحرص على ملاحظة أثره في نفوسهم ، وبخاصة حين كنت أصور لهم ماتركه حادث في نفسي من مسرة أو ألم ، من رضى أو غضب ، من غبطة بالجمال أو تقزز من القبح ، فاذا شاركوني في احساسي ولمحت على وجوههم امارات هذه المشاركة اطمأننت وازددت رضى عن نفسي وايمانا بسلطاني .

انتهت الحرب العالمية الاولى في منتصف الخريف وخيل الي عند ذلك أن الجو أصبح مهيئا لاسافر مع زوجي الى أوروبا ننشر في ربوعها الجميلة عبير حبنا ونستنشق مع نسمات جبالها الرفيعة الذرى أريجا منعشا يضاعف متاعنا بالحياة ، ونجتلي في أم المدائن باريس ماتهوى اليه كل أنثى وما يتفتح له قلب كل شغوف بالفن وكل مولع بالجمال . وأشرت في حديثي مع زوجي الى رغبتي هذه فلم يلبث أن ذهب من بكرة غده الى مكاتب السياحة يعد لسفرنا العدة . فلما عاد لموعد الغداء أخبرني في أسف أن السفر فيما وراء حدود مصر لايزال محظورا بأمر السلطة العسكرية البريطانية ، وأنها تأبى اباء تاما أن تصرح به لاحد ، وأنه يؤثر اذا أنا رغبت وجاء الشتاء أن نقضي أسبوعين أو ثلاثة بمشتى الاقصر نزور هناك آثار الفراعنة . وأحسست أنه يريد ارضائي ولو على حساب عمله ، وقدرت ما لعل زوج أبي أو بعض صديقاتي يتقولنه علي . فلم يكن سائغا الى يومئذ أن تنزل مصرية فندقا في بلد مصري . لهذا وذاك أبديت الرغبة عن مغادرة العاصمة وقبلت زوجي شاكرة اياه من كل قلبي .

ولم يكن حديثي مع زوجي يتعدى حياتنا الخاصة . وكان هو يذكر لي مشاهداته في عمله ، وأحاديثه مع أصدقائه ، وقلما يجري على لسانه شأن من الشئون العامة . وكنت أقص عليه ماأداه في زياراتي لصديقاتي وما يجري في زياراتهن لي ثم ينقضي الوقت بعد

ذلك ولانحس كيف انقضى ولا نشعر بمروره • وكانت رغبة زوجى عن الخوض فى الشئون العامة طبيعية بحكم عمله ، وبحكم الظروف المحيطة به • فهو طبيب متصل بالناس على اختلاف ميولهم وألوانهم، فلا بد له أن يحتفظ بحسن صلاته بهم جميعا • والجو الذى كان مخيما على مصر يومئذ كان الحكم العرفى البريطانى ، وكان ماحدث ابا ن الحرب من اعتقالات يشيع فى النفوس الحذر والخوف •

على أن انتهاء الحرب آذن بنشاط سياسى عام أخذ زوجى يحدثنى عنه كل يوم ، ويروى لى طرفا من أخباره • وبعد أشهر قبضت السلطة البريطانية على الزعماء المصريين المطالبين باستقلال وطنهم ونفتهم الى جزيرة مالطة • هنالك قامت فى البلاد كلها ، من أقصاها الى أقصاها ، ثورة كانت العاصـمة روحها ومصـدر الوحى بها • وخاف أبى أن تتطور الثورة الى عنف قد يصيبنا شرره ، فاقترح أن تذهب السيدات الى العزبة فرارا بهن من مصير لايعرفه أحد •

وسافرت مع زوجى وزوج أبى وأخى الطفل فى سيارة زوجى • ولشد ماكان عجبى حين رأيت مظاهر هذه الثورة منتشرة فى كل مكان ، ورأيت الفـلاحين والفـلاحات فرادى وزرافات لايكادون يروننا حتى يهتفون بحياة مصر واستقلالها • هى ثورة شاملة اذن • أترانا نكون أكثر أمنا فى العزبة منا فى العاصمة ؟ لكنا مالبثنا حين تخطينا أسوار المنزل الى الحديقـة واجتزناها الى داخل البنـاء أن رأينا فيه حصنا آمنا يبعدنا عن مظنـة العدوان ، ثم مالبثنا أن رأينـا أهلنا وذوى رحمنا أقبلوا علينا يهنئوننا بسلامة الوصول وبالنجاة مما علموا أن القاهرة تعج به من أسباب الاضطراب • عند ذلك سكنت نفوسنا جميعا واطمأننا الى حكمة والدى فى مشورته علينا •

وأقمنا أسابيع عدة بالريف • وكان زوجى يذهب الى القـاهرة أثناء الاسبوع ثم يجىء الينا فى نهايته يقص علينا مايجرى هناك •

ولم يكن يجد فى الانتقال مشقة لان الاطباء كانت لهم حرية التنقل بتصريح عام خاص بهم • وقد قص علينا يوما فى حماسة أن سيدات القاهرة خرجن فى مظاهرة مرتديات براقعهن وحبراتهن ، وأن الجيش البريطـانى لم يجرؤ على التعرض لهن بأذى ، وأن هـذه المظاهرات أثارت العاصمة كلها ، وتركت فى النفوس أثرا أعظم من كل ماسبقه •

وتولانى لسماع هذا النبأ ألم وأسف أن لم أكن هناك لأشارك المتظاهرات ولابدو أمام سيدات العاصمة فى مظهرى الحق • ولم أستطع أن أكتم مادار بنفسى عن زوجى ، فلما سمعه نظر الى فى ابتسام وقال :

ـ أوكنت تسـتطيعين ؟؟ لاتنسى أنك حامل ، وهـذا الحمل هو الذى دفعنى للموافقة على مجيئك الى هنا اشفاقا عليك من أن يصيبك اضطراب العاصمة العصبى بأذى •

ولكن هـذه العبارات لم تشف غلتى • فقد تصـورت السيدات سائرات فى مظاهرتهن ، ورأيت صديقاتى فى مقدمتهن ، وشعرت بمكانى خاليا بينهن ، وخيل الى لو أننى كنت معهن أشغل هذا المكان لكانت المظاهرة أتم روعة وأشد لفتا للانظار • أترى تعود السيدات الى تنظيم مظاهرة أخرى بعد عودى الى القاهرة ، فأشترك فيها !! ولكن هبنى عدت ، وهب السيدات فكرن فى تنظيم مظاهرة أخرى فما عساى أستطيع أن أفعل وأنا حامل !!

ولمح زوجى مايدور بخـاطرى وخشى أن يطول تفكيرى فيـه فرأى أن يصرفنى عنه بالحديث فيمـا هو أحب الى نفسى ونفسه • لهذا سألنى : أتراك فكرت فى اسم طفلنا العزيز ولدا كان أو بنتا ؟ وحرك سـؤاله غريزة الامومة فى دخيلة كيـانى ، وحرك الطفل الجنين أحشائى ، وابتسمت كأننى فى حلم سعيد ، ونسيت المظاهرة والمتظاهرات ، وارتسم فى خيالى هذا الطفل العزيز حين مولده •

وبعد لحظة نسيت الطفل واسمه كما نسيت المظاهرة والمتظاهرات ، وتعلقت بعنق زوجي وقبلته بكل مافى من حرارة الانوثة والشباب والأمومة المرجوة وقلت : أحبك •

ولم تنطق شفتاى بهذه الكلمة عن ارادة منى ، بل دفعها اليهما قلبى دفعا لم يكن لهما من الاستجابة اليه بد • فهذا الزوج العزيز هو مصدر هذه الامومة التى أخصبت أحشائى وجعلتنى أسعد فى يقظتى وفى نومى بانتظار ثمرتهـا الشـهية • وهل ترانى أو ترى كل امرأة تبتغى فى الحياة أشهى من هذه الثمرة ؟! ولم أكن أعلم الى يومئذ ماتحمل الأمومة معها من تضحيات وآلام ، ولم أكن الى يومئذ أقدر الأعباء التى يحتملها الآباء والأمهات فى صمت واذعان ، ولم أكن أستشف الغيب فأرى خلاله ماسأتجشمه ، وماسيتجشمه زوجى العزيز اليوم ، الشقى غدا ، بسبب هذه الامومة وهـذه الابوة • لم يكشف لى فى تلك اللحظـة عن شىء من هذا ، بل صور لى الشباب والحب حياة معطرة بشـذا الورود والرياحين وبمنظرها البديع البهيج ، وسمت غريزة الأمومة فوق التفكير فى متاعبها ، وزينت لى أحلامى أن الحياة طريق معبد وثير تتدلى على جوانبه الأغصان الخضر تكسوها الأزاهير العطرة ، وفاضت عنى السعادة بهذا كله ، فازددت حبا لمن آمنت بأنه مصدر هذه السعادة ودفع قلبى الى شفتى كلمة : أحبك •

انقضت على مقامى بالعزبة أسابيع أفرجت السلطات البريطانية أثناءها عن الزعماء المطالبين بالاسـتقلال الذين نفتهم الى مالطة • بذلك هدأت النفوس الثائرة وان لم تنطفىء ثورتها ، وأتاح لنا هذا الهدوء أن نعود الى العاصمة وأن أستقر فيها • وهناك انقضت أشهر الحمل وأثمرت أمومتى طفلة انسانى بكاؤها ساعة مولدها ماتجشمت فى حملها تسعة أشهر من مشقة • وشغلت بهذه الطفلة عن كل شىء آخر ، حتى عن أبيها الذى كان يحبها من أجلى كما أخذت أحبه من أجلها •

وعجيب حقا ماطرأ بعد أمومتى على حبى زوجى • لقد بقى هذا الحب قويا كما كان ، لكن لونه تغير • لقد كنت أحب هذا الرجل الشاب لذاته ، فكنت كلى له • كنت أشعر بالسعادة اذا استطعت أن أزيده رضا بالحياة وسعادة فيها • كنت أشعر بأنى قديرة على أن أهبه كل نفسى وأن أضحى من أجله بحياتى • كنت أشعر أننى بضعة منه لا غنى لى عن حبه ولا غنى له عن حبى ، وكنت كثيرا ما أذكر قول الشاعر :

كأن حبيبا فى خلال حبيبه   تسرب أثناء العنـــاق فذابا

لأن قوله هذا كان يصور لنا حالنا فى كثير من الأحيان • كان ذلك شأننـا قبل أمومتى • أما بعـد أمومتى فلم أصبح قادرة على التضحية بحياتى من أجل زوجى ، لأن حياتى أصبحت ملكا لهذه الطفلة التى تطالبنى بكل أسباب الحياة • وكنت أرى زوجى يحنو على هذه الطفلة التى انفرجت أحشائى عنها ويلمع فى عينيه حب أبوى ، ندى بمعانى العطف والرحمة ، فكنت أحبه لذلك ، وكنت أزداد حبا له كلما ازداد حنوه على الطفلة وحبه لها • وكنت أحس بأنه مطالب واياى بتهيئة أسباب الحياة الناعمة لابنتنا ، وأنى مطالبة لذلك بتشجيعه على أداء هذا الواجب المشترك • وأنا لا أملك من أسباب هذا التشجيع الا الحب • بهذا تغير لون حبى لزوجى وان بقى قويا كما كان • وبهذا صهرت الأمومة عاطفة الحب كما تصهر النار الذهب وشكلته بالصورة التى ترضاها •

وللأمومة سلطان قوى قاهر لايقف عند اختلاف التلوين لحب متبادل • قصت على احدى زميلاتى وكانت قد سبقتنى الى الامومة، وكانت متزوجة رجـلا يكبرها بخمس وعشرين سـنة ، وكانت لذلك تحس نحوه الهيبة أكثر مما تحس الحب ، انها حاولت المواءمة بين شبابها وكهولته وأنفقت فى ذلك جهدا كاد ينتهى الى

اليأس • ثم انها حملت ورزقت طفلة كطفلتى فاذا لون الحياة كله يتغير أمامها ، واذا هذه البضعة من وجودها والحشاشة من قلبها تحيل القتام المخيم عليها ضياء وضاء يكشف أمامها طريق السعادة في الحياة ، واذا هيبتها زوجها تنقلب تعلقا به لتعلقه بهذه الطفلة ، واذا هي تجد فى العناية بالطفلة ونظافتها ورعايتها مايسعدها ويشغل كل وقتها ، واذا هي تنعم من أمومتها بكل ماتطمع فيه المرأة من نعمة الحياة •

وانقضت عشرون سنة أو تزيد على حديث زميلتى ثم جمعنى مجلس بشيخ من كبار مفكرينا قصصت عليه أثناءه طرفا من شئونى وشجونى • وبعد أن أنصت الى طويلا في اصغاء زادنى امعانا في حديثي ومحبة لهذا الشيخ الجليل قال : ان حديثك لساحر ، وماذكرته عن أمومتك الأولى يعيد الى ذاكرتى قصة المرحومة زوجتى — وكانت زوجه قد توفيت منذ أكثر من أربعين عاما • لقد تزوجتها ولما أبلغ الثلاثين، وكانت هى طفلة رقيقة متعلمة كأحسن ماتتعلم الفتاة في ذلك الجيل • وكنت أترجم اذ ذاك كتابا فى الفلسفة السياسية ، وكنت أملى عليها فى الصباح ماترجمته العشية لتكتبه بخطها الجميل • وانقضت بعد ذلك أشهر رزقنا بعدها ابنا ، فلما استعادت صحتها ونشاطها خيل الى أنا قادران على العود الى ماكنا فيه ، فأمليها وتكتب • ولم يبد من جانبها على ذلك أى اعتراض • لكنى أدركت بعد قليل اننى أطلب المحال • فقد كنت أبدأ الاملاء ، وتبدأ الكتابة ، ثم سرعان ماتعتذر بأن الطفل يبكي وتنفلت لترى سبب بكائه • وكثيرا ماكنت أتبعها لعلى أستطيع معاونتها في شأنها كما كانت تعاوننى فى شأنى • وكثيرا ماكنت أحمل الطفل عنها لتهيىء له ماترى أن تهيئه • وكانت تعتذر لى أحيانا وتحاول أن تدعو الخادم لتتولى معونتها فكنت أرجوها ألا تفعل ، وكنت أجد في صحبتها وفى معاونتى لها وفى تدليلى الطفل مكانها ، على مافى هذا

التدليل من سخف لم أكن أسيغه ، لذة أكبر اللذة ، لأنها كانت تسربه وتجزيني عنه مزيدا من العطف والحب •

سمعت حديث جليسي الشيخ المفكر وهو يسوقه في طلاوة تسحر الاذن وتدفعه الى القلب • فلما أتمه قلت فيما بيني وبين نفسي : ماأشبه حال هذا الرجل العظيم وزوجه بحالي أنا وزوجي • لقد كانت زوجه تحبه من أجل طفلها ، وكان هو يحب طفلها من أجلها • وكانت الأمومة سر هذا وذاك ، كما كانت السر في انقاذ زميلتي من يأس يهددها حتى أضاءت الامومة قلبها بنور الحياة ونعمائها •

كان من بين صديقاتي اللائي جئن يهنئني بمولد طفلتي ثم استمر تزاورنا ، من اشتركن في مظاهرة السيدات السياسية التي أشرت اليها من قبل • وكانت كل واحدة منهن تتحدث عن مكانها في هذه المظاهرة وعن المجهود الذي بذلته قبلها وأثناءها بافاضة وحماسة يشهدان بأنها تركت في نفوسهن أثرا عميقا • ولم يقف حديث بعضهن عن المظاهرة وعن الأثر السياسي العميق الذي كان لها ، بل أخذن يتحدثن عما تستطيعه المرأة في ميادين الحياة العامة سياسية واجتماعية ، ويذكرن أن حجاب المرأة الذي حال الى يومئذ بينها وبين اقتحام هذه الميادين يجب أن يزول • ولقد ذهبن الى أن هذا الحجاب سبة يجب التخلص منها ، لأنه ينزل بكرامة المرأة الى مكان وضيع يهوي بقيمتها الانسانية الى حيث تصبح عبدا ومتاعا للرجل لا أكثر • وشعرت في هذا الحديث بمقدمة ثورة اجتماعية رجوت ـ ان قدر لها التمام ـ أن تتم في هدوء وطمأنينة • على أنني لم أكن أستطيع الاشتراك في هذه الثورة الاجتماعية على شدة اقتناعي بضرورتها ، لان أمومتي كانت تشغل كل وقتي وكل جهدي ، ولأنني خشيت أن أثير بيني وبين زوجي زوبعة لا خير في اثارتها •

لهذا بقيت راضية بما أنا فيه لأنعم بأمومتى ، وبحب زوجى ، وتركت لهاتيك الثائرات أن يفتحن الطريق ان وجدن الى فتحه الوسيلة .

وأستطيع اليوم أن أقول انهن نجحن فى ثورتهن الى حد بعيد. ويرجع نجاحهن الى أنهن سلكن فى هذه الثورة سبيل الحكمة والتصون عن كل عنف . فقد بدأن جهادهن فى سبيل حريتهن بالنهوض بأعمال الخير ، عناية بالمرضى ، وبرا بالفقراء ، وعطفا على الطفولة المشردة ، وما الى ذلك من أعمال انسانية تتفق مع فطرتهن ، ومع ماجبلت المرأة عليه من بر وحنان. وما كان للرجال أن يعترضوا طريقهن فى هذا السبيل ، بل أعانوهن وشجعوهن . وكان طبيعيا بعد ذلك أن تخلع المرأة حجابها وأن تلقى جانبا هذا البرقع ثم هذه « البتشة » التى كانت تستر بها وجهها ، لأن فاعل الخير والقائم بالعمل الانسانى لايستخفى ولا يتستر ، وانما يستخفى المريب وذو النية المتهمة . وطالب النساء بعد ذلك بألوان من الاصلاح الاجتماعى أقرهم الرجال عليها ورأوا فيها للمجتمع صلاحا وخيرا .. وبهذه الحكمة وهذا الاعتدال استطاعت الثورة الاجتماعية التى تمخضت عنها تلك المظاهرة السياسية الاولى أن تحطم الحجاب وأن تفتح أمام الفتاة وأمام المرأة أبوابا كريمة كانت من قبل موصدة فى وجهها . ولعلنا نحن النساء ، نستطيع بهذه الحكمة أن نحقق لأنفسنا وللرجال وللمجتمع المصرى كله غاية ماتصبو الشعوب المتحضرة اليه من رقى وتقدم .

استدار العام منذ مولد طفلتى فاذا أحشائى تتحرك بأمومة جديدة. ورزقت هذه المرة غلاما كان قرة عين لى ولوالده ، رغم وضع متعسر أشرف بى على الموت . ولهذا شعرت بأننى أديت للانسانية وللجماعة المصرية مالهما على وعلى زوجى من حق بعد أن أنجبت هذين الطفلين ، وعاهدت نفسى أن أقف بأمومتى عند هذا الحد .

وقد وفيت بالعهد وان كنت أعترف بأن نفسى نازعتنى غير مرة الى نقضه • وفى كل واحدة من هذه المرات كنت أقاوم غريزة ليست مقاومتها أمرا يسيرا • ولست أدرى أكان ماقاسيت حين مولد غلامى هو الذى شجعنى على هـذه المقاومة ، أم شجعنى عليها اعتبارات أخرى كنت أراها رأى العين ، ولا يحسب كثيرات من النساء لها حسابا • بل انى لأعرف من هاتيك الكثيرات من لاتكاد تضع حملها وتتخلص من آلام ولادتها حتى تبتسم رجاء أمومة جديدة ، وكأنها تجد فى ألم الوضع لذة ، أو كأنما يعوضها الطفل الذى تنفرج عنه أحشاؤها عن كل ألم ، وكان مايجشمها هذا الطفل من مشقة هو لذة حياتها وكمال سعادتها • والعجب أن النسوة اللاتى يتولين بأنفسهن شئون أطفالهن ولاتسمح وسائلهن بالاستعانة بمربية أو خادم هن اللواتى تتحكم فيهن غريزة الأمومة ولايفكرن فى مقاومة سلطانها القاهر ، مؤمنـات بأن ذلك من أمر الله ، وأن الاطفال عطاؤه المحبب • وقد يكون لهـاتيك المؤمنات عـذرهن بايمانهن • أما بنات طبقتى المستسلمات لغريزة الامومة العاجزات عن مقاومتها بعد أن يرزقن طفلين أو ثلاثة فهن فى نظرى أعجب وأغرب ، لأنهن لايدعن أطفالهن للطبيعة كما تفعل الأوليات • وتربية الطفل أشد عسرا من حمله وميلاده ألف مرة •

وكان حرصى على عهدى أول مااشتد الخلاف عليه بينى وبين زوجى • فقد كان يؤمن ايمان العجائز بأن كل طفل يأتى ورزقه معه ، وبأنه هو الذى يكد لحياة الاسرة ، وبأنا يجب ألا نعتـرض ارادة الله • وكنت أجيبه بأن السعى للرزق لن يزيده ارهاقا ، وبأنى أنا التى أحمل مشقة الأطفال ، حملا ورضاعة وتربية ، لأنى لا أستطيع أن أدع طفلى لمرضع ، ولا أن أعتمد الاعتماد التام على المربية التى عندنا رغم ثقتى التامة بها •

وقد تكرر اختلافى مع زوجى فى هذا الامر غير مرة فى فترات

متباعدة امتدت بضع سنوات ، وكان كل منا يسوق خلال جدله ألوانا من الحجج لاتخلو من طرافة . كان زوجي يقول لي أحيانا : أو تأمنين غدرات القدر بأحد هذين الطفلين أو بهما جميعا ؟ وكنت أجيبه : وهل تأمن غدر القـدر بك أو بي أو بنا معا فييتم أطفالنا ؟ أو لاترى أنهم كلما كانوا أقل عددا كان رزؤهم فينا أخف حملا ؟ .. وكان يقول لي : لقد نشرت الصحف اليوم أن فرنسا قررت للأسر التي يزيد أبناؤها على طفلين مكافأة يرتفع قدرها كلما زاد عدد الاطفال . وكنت أجيبه : انما تريد فرنسا زيادة سكانها لتزيد في الجيش ولتزداد الأيدي العاملة عندها . ولا أحسبنا أنا وأنت ، نريد أن يكون أبناؤنا جنودا أو عمالا . فلندع هذه المكافأة وهذا الفخر للمؤمنات بأمومتهن ، واللاتي جعل القدر من حظهن وحظ ذريتهن أن يكونوا جنودا أو عمالا ، أو ممرضات أو عاملات . وكان اذا مرض أحد طفلينـــا ورآني نازعتني غريزة الامومة وطمع في أن أضعف أمامها أظهر لي من الحب والحنان ماأكاد أنهزم دونه . ولكنني سرعان ماكنت أستجمع قوة المقاومة وأسمو بها فوق ضعفي ونوازعي وأقف بها الى جانب عهدي . وكثيرا ماكان يبدي دهشته ويقول : هذا أعجب مارأيت! امرأة تقاوم سلطان الأمومة وتأبى أن تحمل وتلد ، وأب يريدها أن تنجب فتقاوم ارادته . لقد رأيت عكس ذلك غير مرة اشفاقا من الآباء على أولادهم في مستقبل حياتهم وعيشهم . أما أن تقف امرأة هذا الموقف فلا تفسير له عندي الا من أنانيتها وحرصها على شبابها وحريتها .

ولم يكن هذا الهجوم يزعجني ، بل كنت أقاومه بسلاح المرأة . كنت أبتسم وأعانق زوجي وأقول له : هب هذا الاتهام الذي توجهه الى صحيحا ، فلمن أحتفظ بهذا الشباب . ألست أحتفظ به لك . وأنت تعلم أن حريق كقلبي في ملكك . وكنت أسوق اليـه من

معسول القول مايذيب اعتراضه وغضبه ، ومايرده الى حال من الرضا لا سبيل له الى مقاومتها ، لانه يحبنى بقلبه وعقله وكل وجوده •

على أن ذوبان غضبه لم يكن ينقله الى معسكرى • فقد كان عنيدا فى اصراره على رأيه ، لاتزحزحه عنه حجة ولا يصرفه عنه برهان • وكان رغم ذلك ضعيفا أمامى كل الضعف ، ضعف الام لابنها ، فكنت أنا طفله المدلل ، يعمل جهده الى اجابة رغباتى وان لم تعجبه مادام لايرى فيها مضرة ولا شنعة • وقد انتهى بعد المناقشات التى دارت بيننا الى الاقتناع بأن أمومتى من شأنى ، وأنه لايستطيع أن يرغمنى فيها على شيء لاأريده •

وشاءت الاقدار أن تعاوننى على التشبث بعزمى والوفاء بعهدى • فقد كان فى مقدمة ماأدت اليه مظاهرة السيدات السياسية من تطور اجتماعى أن رفعت الحجاب وأباحت للمرأة أن تخرج مع زوجها أو أبيها أو أخيها والاقربين من محارمها ، وأن تتحدث الى من يلقونهم فى هذه الحال من الرجال • وكانت المرأة من طبقتنا لاتملك الى ذلك العهد أن تحادث رجلا غير محرم ، فاذا خرجت الى الطريق مع زوجها وصادفا رجلا يعرفه الزوج وأراد أن يتبادل معه مجرد التحية انتحت المرأة جانبا وأدارت وجهها حتى لايراه هذا الأجنبى ، لأن وجهها كصوتها كانا عورة لايجوز أن يطلع عليهما الرجال •وكان لزوجى أصدقاء من رجال السلك السياسى الاجانب لا أدرى كيف ولا متى عرفهم • فلما حدث ذلك التطور بدأ يدعوهم وقريناتهم لتناول الشاى عندنا ، وكان طبيعيا أن أقابلهم وأن أتحدث اليهم كما كان هو يقابل زوجاتهم ويتحدث اليهن •

وصادف ذلك التطور الاجتماعى تطور سياسى يقابله • ذلك أن اعترفت انجلترا باستقلال مصر ، وأن أعيدت وزارة الخارجية المصرية وكانت قد ألغيت منذ بداية الحرب العالمية الاولى • وترتب

على عود وزارة الخارجية لدولة مستقلة أن بدأت تلك الوزارة تنظم التمثيل السياسى والقنصلى للبلاد فى الخارج • وبدأت أسمع أنهم يرشحون لهذه المناصب من فئات مختلفة كانت فئة الاطباء من بينهم ، ثم علمت أن أطباء من معارفنا رشحوا بالفعل لهذه المناصب• قلت فيما بينى وبين نفسى : ولم لايعين زوجى فى لندن أو باريس أو روما فنستمتع بالحياة فى هذه العواصم الكبرى بما فيها من آثار الفن والجمال ، ويكون بيننا وبين الدبلوماسيين والقنصليين من كل الأمم علاقات طيبة نستريح اليها وتفيد مصر منها • فاذا تحقق هذا الامل كان أوجب على أن أستمسك بعهدى وأن أقف بأمومتى عند ابنى وابنتى

وداعبنى الأمـــل ثم تحكمت فى رغبة الالتحاق بالســـلك الدبلوماسى فأفضيت لزوجى بخلجات نفسى وذكرت له أسمـــاء الاطباء المرشحين لهذا السلك وطلبت اليه أن يعمل جهده ليرشح كما رشحوا • وكنت أظن أنه سيرحب بهذه الرغبة ويطيرلتحقيقها• ولشد ماكانت دهشتى عندما أبدى لى الرغبة عن كل تفكير فى هذا الأمر • وكانت حجته أن الاطباء الذين رشحوا للسلك ليست لهم فى عالم الطب مكانة وليس لهم بين الاطباء مثل اعتباره • فاذا هو بذل من جانبه أى مسعى لتحقيق رغبتى جنى ذلك على مركزه وعلى عمله • وهو ، بعد ، طبيب ناشىء استطاع أن يبلغ فى فنه بجهوده مقاما محمودا ، فمن سوء الرأى صرفه عن الطب الى غيره ارضاء لنزوة طارئة •

وعبثا حاولت أن أعدل به عن رأيه • فقد بلغ من تشبثه به أن طلب الى ألا أعود الى مخاطبتـــه فى الامر ، أو اظهار الاسف على رغبته عنه • وزارنى والدى يوما فأبديت له رغبتى وذكرت له عناد زوجى ، فابتسم وقال : ان زوجـك رجل عاقل • وهو يعلم كما يعلم كثيرون أن هذه المناصب لاتعطى اليوم للشبان المتزوجين

مجانا • فهل أنت مستعدة لدفع الثمن ؟ •• وأجفلت فزعة لسماع هذه العبارة ولم أجد جوابا ، ولم أعاود الحديث مع زوجى فى هذا الموضوع من بعد •

ثم انني قدرت بعد أن رويت في الأمر أن أبى أراد بعبارته المزعجة أن يصدمنى ليصرفنى عن التفكير فى أمر لا يرغب فيه زوجى ، وذلك ابقاء على مودتنا ومايعرف من حبنا المتبادل •

وتمكن هذا التفكير من نفسى ودس الى قلبى جرثومة أخذت تعبث بعاطفتى نحو زوجى • وعملت هذه الجرثومة عملها بتوالى الايام حتى توهمت أن مايقوله زوجى عن مكانته فى الطب لا حقيقة له ، وأنه من قبيل الخداع النفسى اعتذارا من عجزه عن أن يسعى لينال المنصب الذى أصبو اليه ،وأن هذا العجز ضعف غير لائق بالرجال •

كان لاختلافنا هذه المرة من الاثر فى نفسى مالم أشعر بمثله حين اختلفنا على تحديد النسل • ففى هذه المرة الاولى كان الامر كله بيدى ، وكان النصر لذلك حليفى من غير أن أتحمل فى سبيله أية تضحية • ونحن فى هذه الحال أشد عطفا على الهزيم واشفاقا من أن يناله بسبب انتصارنا مايسوءه • لذلك كنت أقبل زوجى اثر كل مناقشة بيننا فى أمر نسلنا لأهون عليه هزيمته • أما بعد اختلافنا الاخير ورفضه أن يبذل أى مسعى لانتقالنا الى السلك الدبلوماسى فقد شعرت بأننى انهزمت ، وبأن هذه الهزيمة آذت كرامتى ، وخيل الى أن زوجى قصد الى هذا الايذاء متعمدا ، ولم يكن يضيره أن يسعى ، فان وفق فقد بلغت ماأردت ، وان لم يوفق فلا ذنب عليه ، ولن يصيبه من جراء ذلك فى عمله أى ضرر •

وحزت هذه الكرامة المهيضة فى نفسى • أأجزى بكل مابذلته

لارضاء زوجي بألا يعبأ بالسعى لمطلب يناله من هو أقل منه وتناله من هى أقل منى ؟!

وبلغ من حنقى أن خيل الى أن زوجي ذهب الى والدى وطلب اليه أن يردنى عن الالحاح فى أمر لا يرضاه ، وأن ذلك كان السبب فى قسوة الجواب الذى واجهنى به والدى حين أفضيت اليه برغبتى . ولو أن زوجي لم يفعل من ذلك مافعل ، ولم يظهر لوالدى معارضته رغبتى ، لاستطعت أن أستعين بوالدى فى السعى لتحقيق غرضى ، فله كلمة مسموعة فى دوائر رسمية كثيرة ، وصلاته بأولى الأمر تدعوهم لمجاملته

وجعلت أشكو حالى لبعض صديقاتى اللواتى هن فى مثل سنى فاذا كل واحدة منهن تشكو حالها وتكاد تعلن الثورة على زوجها . وجمعت هذه الحال بين خمس منا فكثر تزاورنا وكثر ترديدنا الشكوى من حالنا . تقول احداهن انها رغبت الى زوجها فى تغيير مسكنها فأبى ، وتقول ثانية انها لاتكاد ترى زوجهـــا الطبيب الا ساعات الطعام ، فاذا حدثته فى ذلك اعتذر بكثرة عمله ، وتسوق الباقيات أمثال هذه الاقاويل . ويتكرر ذلك فى كل زياراتنا ثم لانزيد على الشكوى لأننا لم نكن نستطيع أكثر منها .

وفت فى عضدنا أن احدانا غضبت من زوجها ولجأت الى بيت أهلها فتلقاها أبوها عابس الوجه مقطب الجبين ، وقال لها فى صرامة وحدة : الواجب عليك أن تحمدى الله على ماأنت فيه ، وأن تقبلى يد زوجك صباح مساء . فكم من مثيلاتك تعيش مثل عيشك فى بحبوحة ونعمة !؟ وزوجك رجل رقيق مهذب رضى الخلق . وأنا لا أشك من غير تحقيق فى أن الحق عليك من رأسك الى رجليك ، فارجعى الى بيت زوجك واعتذرى اليه ، والا ذهبت أنا بنفسى واعتذرت اليه .

والعجب أن زوجي لم يتغير على فى هذا الظرف رغم مابدا من نفورى • بل لقد ازداد لطفا بي وعطفا على • وقد بلغ من ذلك أن زال من نفسى كل شك فى أنه يحبنى من أعماق قلبه • مع ذلك بقيت الرغبة الدفينة في الانتقال من الطب الى السلك الدبلوماسى تساورنى • وكان اعتدادي بنفسي وبسحر حديثي مصدر هذه الرغبة والحاحها على ، فكنت أقدر أننى سأبلغ فى محيط هذا السلك مالا تبلغه امرأة غيرى • وقد بقي هذا الاعتقاد متشبثا بنفسي الى عدة سنوات من بعد • واني لأذكر يوما بعد هذه السنوات دخلت فيه الى اجتماع للسيدات ، مصريات وأجنبيات ، فلقيننى بما تعودت من ترحيب ، الا زوج وزير ألمانيا المفوض ، وكانت متعالية تعتد بجمالها ، وبجنسها ، وبمركز زوجها ، وبواسع ثقافتها ، فلم يسعنى الا أن وجهت اليها نظرة ازدراء زلزلت كبرياءها ، ثم آليت على نفسى أن أتقن الالمانية وأن أقرأ خير مؤلفاتها بلغة العظماء من كتابها • وعرفت السيدة المتعالية من بعض صديقاتى ماأقدمت عليه فانتهزت أول فرصة تلاقينا فيها لتقدم الى معاذيرها • بذلك تصافينا واتصلت مودتنا • ولم يلفتنى ذلك عما أخذت به نفسى فأتقنت الالمانية وقرأت بها جيتي وهينى ونيتشه ، وتأثرت الى حد كبير بآراء نيتشه من أن القوة ، والقوة وحدها ، هي مصدر كل سلطان فى الحياة •

وللمرأة من أسباب القوة ووسائلها الكثير مما لاسبيل للرجل اليه • لها الذكاء ، ولها الحيلة ، ولها الرقة ، ولها سحر النظرات والحديث ، ولها الصبر • الصبر الذى يمكنها من أن تحمل الجنين تسعة ، وترضعه عاما أو أكثر من عام ، وتتولى بعد ذلك تربيته والعناية به •• أين للرجل هذه الوسائل التى تجمعها كلمة الأنوثة ؟ وهل تستطيع قوته المادية أن تتغلب عليها ؟!

وقد استطاع زوجي بعد اختلافنا على الانتقال الى السلك

الدبلوماسى ، أن يتغلب على نفورى بحنانه ولطفه ، وبحبه اياى حبا كان يحرك كل قلبه وكل حواسه وكل رجولته . ثم أنه كان يحدثنى كل يوم عن عمله فى الطب ، وعن اطراد مكانته فى السمو بين زملائه ، وعن كسبه الوفير منه ، كما أخذ يغدق على من صنوف الهدايا مايهواه قلب المرأة من حلى ومجـــوهرات ، ومن تحف زخرفية بديعة تزدان بها حجرات المنزل وتتمتع العين بدقة صنعها وبارع جمالها . وكم أغرانى للذهاب بنفسى أختار من الثياب وأدوات الزينة ومن هذه التحف الزخرفية ماأشاء . وانتهى بى لطفه الى أن سكن نفورى فعدنا الى سابق مودتنا .

ولكن حبى اياه كان قد خدش ، ولم يكن لى مع ذلك بد من التظاهر بأن شيئا لم يحدث ، وبأنا مازلنا نتبادل الحب صفوا كاملا . وماذا عســاى كنت قادرة أن أصــنع وبين يدى هــذان الطفلان لايزالان فى غرارة طفولتهما بحاجة الى عناية أبيهما وعطفه . ولن يدور بخاطرى أن ألجأ الى بيت أبى فتشمت بى زوجه ، ويلقانى هو بوجه عابس أن ليس لى فيه أم يغفر حنانها مالا يرضاه الاب الغضوب . لا مفر اذن من الصبر من أجل هذين الطفلين ، ومن أن أعمل على مداراة ذلك الخدش ان استطعت الى مداراته سبيلا .

وبالغ زوجى فى العمل على مرضاتى . فلما كان الصيف سافرنا جميعا الى أوروبا ، وسافرت معنا مزبية أولادنا ، وقضينا فى هذه السفرة زمنا سعدت به وبرئت نفسى أثناءه حتى خيل الى انى كنت متجنية على هذا الزوج العزيز الكريم . كم من مرة وقفت الى جانبه على سطح الباخرة التى تجرى فوق لجة بحيرة « ليمان » واستمتعت معه بمغرب الشمس فوق قنن الجبال المحيطة بها وبالهواء العذب الساحر الذى ينساب مع أشعتها الذهبية الى الصدور ينعشها وينعش القلوب معها . . .

وكم من مرة درت معه أنحاء باريس فى الليل أو فى النهار ، وكم نعمنا بمشاهدها ومسارحها وبمظاهر الفتنة التى لاحصر لها فيها .. وكم .. وكم . وقد بلغ من اعجابى بهذا الرجل فى هذه الفترة أننى كنت أنظر اليه فيبعض الأحيان لا على أنه زوجى، بل على أنه حبيبى . حبيب قلبى وروحى . فقد وهبنى كل نفسه ليله ونهاره فلم يكن لى بد من أهبه كل نفسى وكل حياتى .

فلما عدنا الى مصر وعاد زوجى الى عمله وعدت الى حياة المنزل الرتيبة وانقشعت من حولى هذه الغمامة الشعرية التى أحاطت بى فى أوروبا فلم يبق لى الا ذكراها والتحدث لصديقاتى عنها عاودنى الأسف أنا لم ننتقل الى السلك السياسى ، وخيل الى أن أهل هذا السلك يقضون حياتهم كما يقضى المصطافون حياتهم ، يتنقلون حيث يشاءون ، وينعمون بجمال الطبيعة وبجمال الحضارة أينما يريدون .

وجلست ذات مساء بعد أسابيع من عودنا الى مصر أتحدث الى زوجى وكان قد عاد من عمله وعليه آثار الغبطة فذكرت له رحلتنا وأثرها الجميل فى نفسى ، فقال : أرجو ياعزيزتى أن نتمكن من قضاء الصيف كل عام فى بعض ربوع أوروبا الجميلة ، ومادام هذا يرضيك فانه يسعدنى . وهل لى من سعادة الا فى رضاك وغبطة طفلنا وراحتهما .

ولم أملك نفسى وقد سمعت عبارته فعانقته وقبلته شاكرة أجزل الشكر ، اذ رأيت فى وعده هذا بعض العوض ، ان لم يكن كل العوض ، عن السلك السياسى وقد كنت راغبة فى الانتقال اليه أشد الرغبة .

الفصل الرابع

في الأيام الأخيرة من شهر نوفمبر من تلك السنة أصيبت طفلتنا بنزلة شعبية حادة أرقتني وأرقت والدها • فلما برأت رأى زوجي أن أسافر بها وبأخيها وبالمربية الى الأقصر ليقضي دفء جوها على كل أثر للمرض • وحجزنا أماكننا بفندق الأقصر وسافرنا بقطار الصباح اتقاء برد الليل • وصحبنا زوجي الى محطة العاصمة ثم ودعنا ساعة تحرك القطار وعاد توا الى عيادته يزاول عمله •

وقد شعرت ساعة وجدتني وحيدة مع الطفلين بديوان سكة الحديد بشيء من الرهبة • ان الديوان مخصص للسيدات ويغلب ألا يشاركنا فيه أحد طول الطريق • فالاوروبيات يجلسن مع أزواجهن الا أن يكن مسافرات وحدهن• أما ولم تشاركنا مصرية ولا أوروبية حين سفر القطار من القاهرة ومن الجيزة فلا خوف من أن تصعد مسافرة بعد ذلك من محطة أخرى • وزايلتني الرهبة بعض الشيء بعد ساعة أو نحوها من انطلاق القطار ، وان بقيت أحسب ألف حساب لطارىء من الرجال يفتح الباب علينا ويحاول الجلوس معنا • ماذا عساى أن أصنع لو أن ذلك حدث ؟ فليس في الديوان جرس أستطيع أن أدعو به من ينقذني من مثل هذا الموقف •

وصلنا الى الاقصر ولم يحدث ماتوهمته مخاوفي • فلما بلغت الفندق وصعدت الى غرفتنا عاودتني المخاوف • لقد نزلت في أوروبا فنادق كبيرة شتى ولم يخامرني مثل هذا الشعور • أتراني هناك كنت أكثر شجاعة ، أم تراني كنت أكثر اطمئنانا الى الناس !••

لا هذا ولا ذاك ، لكنني هناك كنت في حماية زوجي وكنت مطمئنة في جواره . أما الآن وليس معي الا المربية والطفلان فقد ألفيتني عزلاء مجردة من كل دفاع ، على أن مدير الفندق ، وكان سويسريا ، أبدى لي من اللطف مابدد الكثير من مخاوفي .

واستيقظت في الصباح وأخذت زينتي وتناولت فطوري ونزلت الى بهو الفندق فأقبل على مديره ليطمئن على راحتي وراحة أطفالي . واتصل حديثنا بالفرنسية فسألني ان كنت أريد أن أزور قبر «توت عنخ آمون » ، وكان قد كشف من سنتين ، ليوفر لي أسباب هذه الزيارة . ولما كنت لم أزر الأقصر من قبل ، وكنت لا أريد أن يعرف الرجل ذلك عني ، فقد ذكرت له أني مرجئة زيارة الآثار حتى أطمئن على راحة طفلي ، وقصصت عليه مرض ابنتي ، وانني جئت الى الأقصر من أجلها . وأبدى الرجل أشد الاهتمام بأمر الطفلة وقال : « ان الشمس تغمر فناء الفندق معظم النهار . وشمس الاقصر ممتعة جدا . وتستطيع الصغيرة أن تتسلى باللعب مع أخيها في حديقة الفندق . وبين نزلائنا أطفال استفادوا من طقس هذا الفصل في الاقصر فائدة كبرى . »

وخرجت مع الطفلين والمربية الى فناء الفندق نستمتع بدفء الشمس . وفرح الطفلان بهذا التغير في لون حياتهما واندفعا الى ناحية حديقة الفندق وتبعتهما مربيتهما ، فبقيت زمنا أحدق فيما حولي وأرقب هؤلاء السائحين ، رجالا ونساء ، وقد جاءوا الى مصر من أقصى الارض يستمتعون بجو شتائها المنعش وبمشاهدة مناظرها الخالدة على صفحات الطبيعة وفي صحف التاريخ . فلما قربت الظهيرة قمت أسير في طريق يشطر الحديقة حتى بلغت بابا من الخشب مقفلا ولكنه غير موصد . وصادفني عند هذا الباب بستاني حياني وقدم لي باقة من زهر البنفسج ثم فتح لي الباب الخشبي

وقال : تفضلى يا سيدتى ان شئت ، فقد تجدين بعض معارفك فى حديقة ونتر بالاس •

وكان هذا الباب الخشبى يفصل بالفعل بين حديقتى الفندقين ، الاقصر وونتر بالاس • وذكرت هذه اللحظة صديقتى التى مات زوجها تاركا لها ولذريتها الضعاف تركة قيمة طمع فيها أهله فمنعوا ورثته من الاستيلاء عليها وعلى ايرادها • وكانت أم صديقتى ذات ثراء ، وكانت شديدة الاعزاز لابنتها لأنها كانت وحيدتها بين أخوة ثلاثة قادرين على الكسب الوفير • لذلك أتاحت لها المتاع بالحياة بعد انقضاء مراسم الحزن على زوجها فسافرت الى الاقصر وتركت أبناءها فى رعاية أمها ونزلت ونتر بالاس • فلما ذكرتها تخطيت الى حديقة الفندق الفخم لعلى أجدها • ألا ماأبدع هذه الحديقة وأبهاها ، وماأحقر حديقة فندق الاقصر الى جانبها • فهذه الاشجار الباسقة وهذه الأزهار النضيرة ، وهذه الملاعب الفسيحة للتنس ، وهذه الغزلان والطيور الجميلة فى الحظائر ، وهذه المقاعد الوثيرة بأشكالها المختلفة منثورة فى كل ناحية من الحديقة ، والشمس والظلال تتداول جوانب المكان المعطر بشذا الزهور ، هـــذا كله لم أشهد له نظيرا فيما زرت من فنادق أوربا • وهذا كله يجوس خلاله نفر قليل من الرجال والسيدات ، كثرتهم من الاجانب ، ويلعب فى بعض أرجائه أطفال كأنهم الأزاهير لفرط العناية بهم وبمايلبسون •

درت فى أرجاء الحديقة ألتمس صديقتى فلم أجدها • وعلوت السلم المؤدى من الحديقة الى الفندق آملة أن أجدها فى بعض أبهائه أو أسأل عنها بعض رجاله ، فعلمت من البواب أنها ذهبت فى صحبة الى بيبان الملوك ، وأنها ستكون لا ريب ساعة الشاى فى البهو الكبير • ودلفت من باب الفندق الى شرفته • ياللجلال

والبهاء والعظمة والجمال • فهذه الشرفة الرفيعة البديعة تطل على منظر كله الروعة لا نظير له فى العالم • تطل على النيل تنساب مياهه السماوية الزرقة ، هادئة هدوء هذا الفصل الرقيق من السنة ، وتنساب فوق مياهه الزوارق ذاهبة آيبة بين طيبة الأحياء وطيبة الاموات ، وقد تطوف أحيانا حول جزيرة ناتئة فى النهر حتى تغمرها مياه الفيضان • وعلى الجانب الآخر من النيل تتدرج هضاب طيبة الأموات فى ارتفاع حتى تختلط بالسماء عند مدى النظر • ووقفت الى جانبى سيدة رأتنى أحدق فى اعجاب الى هذا المنظر البديع وعلمت أننى نزلت الاقصر العشية فحيتنى بالانجليزية وقالت : انهذا المنظر يكون أبدع بكرة الصباح وساعة المغيب وأشد سحرا • وهذه الجبال التى تبدو أمامك الساعة وقد غمرها ضوء الشمس وكاد وهجها يحجبها عن النظر تبدو فى الاصباح والامساء وقد بادرتها الشمس ، أو انحدرت من ورائها ، ورسمت عليها خطوطا من أشعتها الذهبية ، تخالينها سطورا تنطق بما احتوته هذه الجبال فى جوفها من فراعين وملكات ، ومن قسس ووزراء ، ومن فعال هؤلاء وأولئك وكيف كتبوا من تاريخ الانسانية صحفه الاولى • اننى أهيب بك أن تجيئى الى موقفك هذا بكرة الصبح ، وساعة المغيب ، لتتضاعف متاعك بالنيل والصحراء والجبال وما تحدث عنه من تاريخ ما قبل التاريخ

وأقمت مكانى زمنا مأخوذة بالمنظر الساحر أمامى • فلما امتلأت منه العين والجوانح عدت الى فندقى أتفقد الطفلين العزيزين وأشرف مع المربية على طعامهما • وتحدث الى زوجى تليفونيا من القاهرة ليطمئن علينا فطمأنته على كل شىء • وغفوت غفوة الظهيرة أستريح بها من شقة سفر أمس • فلما دنا موعد الشاى ذهبت من جديد الى ونتر بالاس • وماكدت أدخل البهو الكبير حتى رأيت صديقتى فى جانب منه فقصدت اليها وجلسنا معا الى مائدة لا ثالث معنا

حولها • وانا لنتجاذب أطراف الحديث اذ أقبل علينا رجل ناهز الثلاثين فحيا صديقتى ثم أحنى رأسه تحية لى واستأذن وجلس • وعلمت أن هذا الرجل من الاقصر وأن له فى فنادقها شأنا •وسرعان ماأدركت أنه كثير التردد على نزلاء هذه الفنادق ونزيلاتها • فما كاد يشاركنا الحديث حتى رأيته يذكر لصديقتى أسماء طائفة من نزلاء ونتر بالاس ونزيلاته ، ومن نزلاء فنــدق الأقصر ونزيلاته •

ويروى عن هؤلاء وأولئك ، وبخاصة عن هاتيك اللاتى ذكــر أسماءهن ، أنباء تنقلاتهن وملابسهن ومبلغ انسجام ملابس السهرة على هذه وعدم انسجامها على تلك ، وكيف ترقص هذه ، وكيف ترقص تلك • والحق أنى ضقت بحديثه • لـكن ماأبداه أثنـاء الحديث من استعداد للقيام بأية خدمة أرغب فيها اقتضانى مجاملته ، بل ملاطفته • ولعل كثيرات غيرى من نزيلات الفنـدقين كن فى مثل موقفى ، يتظاهرن بالمجاملة والملاطفة انتظارا لخدمة يؤديها هذا الرجل ، أو تقديرا لخدمة سبق له أداؤها •

وأحسست ساعة المغيب تدنو فاستأذنت صاحبتى وصاحبهالخمس دقائق ودلفت الى الشرفة فألفيت السيدة التى وقفت الى جانبى ساعة الظهيرة وكأنها فى انتظارى • ورأتنى مقبلة فصاحت : « أترين هذا المغيب البديع •• لكأن الشمس علمت بأنك تريدين مشاهدتها فجملت الوجود كله بزينتها • انظرى • انظرى الى النهر والسماء والجبال وكأن المغيب يضمها جميعا فى غلالة من ذهب • » وانطلقت السيدة تصف ماترى مأخوذة كأنها واقعة تحت سلطان منوم مغناطيسى مقره قرص الشمس • وأخذت بالمنظر وبحديثها ووقعت أنا الأخرى تحت سلطان هذا المشهد الفذ من مشاهد الطبيعة • فلما آن للسماء والنهر والجبال أن تخلع زينتها عدت الى مجلسى مع صديقتى وقد غلبنى البهر فعقد لسانى • فلما أفقت من بهرى أخذت أتكلم وأصف ماشهدت • وأصغيت لصوتى ولعباراتى ، فاذا هى أنغام توقع لحن هذا

المشهد الفذ الرائع . وقضيت في هذا الحديث زمنا رأيت الرجل أثناءه مسحورا . فلما كاد يتولاه البهر الذى كان قد تولانى تركت ونتر بالاس وعدت الى فندقى والى طفلى .

وأصبحت بكرة الغد وتناولت فطورى ثم اذا خادم الفندق تستأذن على وتدخل الى طاقة كبيرة من أزهار شتى كلها الفتنة والجمال ، شبكت بها بطاقة صاحبنا الاقصرى الذى تناول الشاى معنا أمس فى ونتر بالاس . ولم يكن عجبى لجرأته دون سرورى بهذه الأزهار البديعة الفاتنة . وطلبت الى الخادم فأحضرت من الآنية ماوزعت فيه الأزهار لأزين بها جوانب غرفتى . فلما اطمأننت الى أن كل آنية وضعت حيث يجب أن توضع أدرت نظرى فى الغرفة وارتسمت على ثغرى ابتسامة الرضا . فالازهار تنشر فى المكان الذى توضع فيه بهجة تبعث الى القلب المسرة والى النفس الغبطة والطمأنينة . ودعوت طفلى ومربيتهما فاستمتعوا معى بهذه البهجة وهذا الجمال .

وهبطت الى بهو الفندق فاذا صاحبنا الاقصرى جالس فى صدره وكأنه ينتظرنى . فلما رآنى أقبل على وحيانى وعلى ثغره ابتسامة عريضة . وشكرته وأثنيت على أزهاره وتحدثت اليه هنيهة حاولت الانصراف بعدها فاستوقفنى وقال ان عربته تحت تصرفى لازور بها آثار الاقصر جميعا ، وانه يسر اذا قبلت مصاحبته اياى فى زيارةمعبد الكرنك ليشرح لى من أسراره مالايعرفه أقدر التراجمة من أبناء المدينة . فشكرته واعتذرت له بأن لدى اليوم مشاغل تحول دون مغادرتى الفندق الى زمن طويل ، وانى مضطرة لذلك أن أرجىء زيارة الآثار الى يوم آخر . وقبل اعتذارى فى لطف وأسف ثم قال ان صديقتى لا تبرح ونتربالاس اليوم ، لأنها تريد أن تستريح من مشقة زيارتها بيبان الملوك أمس.

وانصرف الرجل وخرجت أرى طفلى فىفناء الفندق وحديقته .. ثم اننى اصطحبتهما ومربيتهما الى حديقة وتنتر بالاس ، وهناك ألفيت صديقتى ممددة على كرسى طويل وفى يدها قصة تقرأها . فهى لم تكن تطيق أن تقرأ من الكتب غير القصص . واتجهت نحوها فلما دنوت منها رفعت بصرها عن كتابها ثم قامت وحيتنى ودعت البستانى فجاء بكرسى طويل آخر تمددت عليه الى جانب كرسيها ، فلما استقر بنا المجلس اتجهت الى بنظراتها الفاتنة وقالت : « خبرينى . ماذا فعلت بهذا الاقصرى . لقد سحر بك سحرا بل جن بك جنونا . اننى لم أره قط كما رأيته أمس بعد أن غادرتنا . لقد انقلب على حين فجأة شاعرا مفلقا . فنظراتك ، ولفتاتك ، وحديثك ، وهندامك ، ورقتك ، ولا أدرى ماذا كذلك، كانت مدار حديثه طول سهرته . ولقد سهر طويلا وأسهرنى معه. ولم يكن يتابع بنظراته الحائرة حركة الرقص على عادته ، فقد كان فى شغل شاغل عن ذلك كله بالحديث عنك ، عنك أنت وحدك ، حتى خيل الى أنه يعرفك من زمن وأن بينكما مودة . فلما أخبرنى أنه رآك أمس لأول مرة وأنت معى تولتنى الحيرة أى طلسم تحملين أضله عن صوابه كل هذا الضلال » .

وتبسمت ضاحكة من قولها وقلت : « أنت تبالغين ياعزيزتى . وان هناك لطرازا من الرجال ذلك شأنهم حين يرون امرأة لأول مرة . ومايدريك لعل هذا الأقصرى يوم رآك للمرة الاولى قد قضى سهرته حديثا عنك ، وقضى ليله تفكيرا فيك ، وهو لاريب قد حمل اليك صبح الغداة من ذلك اليوم طاقة كبيرة من أزهار جميلة شبكت بها بطاقته ، ووضع تحت تصرفك عربته تزورين بها الآثار ، واستأذنك فى أن يصحبك الى معبد الكرنك ليشرح لك من أسراره مالا يعرفه أقدر التراجمة فى المدينة »

وقالت صديقتى : « بل أنت التى تبالغين . صحيح أننى تلقيت

غداة وصولي الى هنا ومقابلته اياى للمرة الأولى طاقة من الأزهار، لكنها لم تكن كبيرة ولم تشبك بها بطاقة ما • وهو قد صحبني الى الكرنك • لكنه لم يصحبني وحدى ، بل كنا جماعة من زوار الأقصر رجالا ونساء ، وكان أكثرنا من الأجانب ، وكان معنا ترجمان تولى الشرح ولم يثوله غيره • أما عربته فانه يتلطف بارسالها الى كلما ذكرت له أنني ذاهبة الى نزهة خلوية ، أثرية أو غير أثرية • »

سمعت ذلك فاغتبطت • فشتان بين ماذكرته صديقتي وماكان معى • وصديقتي جميلة حقا ، فارعة القوام ممتلئة فى غير سمنة ، فى عينيها حور وفى نظراتها سحر ، اذا مشت لفتت مشيتها النظر ، واذا ابتسمت أسعدت ابتساماتها جليسها • وهى مؤمنة بجمالها وبسلطانه على كل من يراها • وهى مع ذلك تذكر لى من أمر الاقصرى ماذكرت • ليس الجمال وحده صاحب السلطان اذن على الرجال • فهذا الاقصرى الذى سحر فى لحظات بحديث عن جمال بلده يستطيع أن يقرأ مثله أو خيرا منه فى الكتب ، ويستطيع أن يسمع مثله أو خيرا منه من غيرى ، قد سحره لاريب شىء آخر غير الالفاظ التى اشتمل عليها الحديث • وهذا الشىء الآخر هو سر السحر الذى يبهر كل من يسمعنى • هو سرى أنا • سر السلطان الذي أحسه ولا يحيط التحليل بكل مصادره •

ولكن من هذا الأقصرى الذى ضقت أمس بحديثه حتى تخرجنى الغبطة بسحره بى عن موجب الرزانة وحسن التقدير ! لقد أحسنت صنعا بالاعتذار عن مصاحبته اياى الى الكرنك • وخير لشابة مثلى أن تلزم جانب اليقظة والحذر •

مرت هذه الخواطر بنفسى فى مثل لمح البصر فلم تلحظ صديقتى شيئا منها • واستطرد بنا الحديث وأنا الى جانبها فى شئون وشجون ، بعد أن قصت على فى ايجاز مشاهداتها فى آثار الاقصر

وبيان الملوك وبيان الملكات . واننا لفى حديثنا اذ مر بنا أجنبى وقف الى جانبها فحياها بيده ، وحيانى باشارة من رأسه ، وتحدث اليها لحظات حديثاً عاديا دعاها بعده ودعانى واياها لتناول الشاى ثم انصرف . وذكرت لى صديقتى بعد انصرافه أنه ألمانى مهذب مشتغل بالآثار ، وأنه يحضر الى الأقصر كل شتاء منذ سنوات لمتابعة أبحاثه . وأردت منها أن تعتذر اليه عن عدم قبولى دعوة لم توجه لى الا لوجودى معها فابتسمت وقالت : « من يدرى ! لعلها وجهت الى أنا من أجلك . وعلى أية حال لاضير عليك من قبولها . وأؤكد لك أنك لن تأسفى لمعرفة هذا الرجل ، فهو مهذب واسع الأفق والثقافة حلو الحديث لطيف المجلس . وهو لايقيم بهذا الفندق ولا يكثر التردد عليه . ولم أره هنا يومين متعاقبين منذ جئت الى الأقصر . لهذا أرجوك أن تكونى معنا هنا ساعة الشاى . ولك أن تعتذرى وتنصرفى بعد قليل من تناوله . »

وألحت الشابة الجميلة فنزلت على رجائها . وجئت للموعد فألفيت الرجل قد حجز لنا مائدة وجلس اليها ينتظرنا . وأقبلت صديقتى وطلبنا الشاى وأخذنا نتحدث . وعلم مضيفنا أنى جئت الأقصر لأول مرة فى حياتى فأخذ نفسه بأن يرسم لى من هذه المدينة الصغيرة التى كانت من قبل عاصمة الفراعنة صورة تحييها أمام خيالى فى عهود عزها وجلالها ، وتصفها فى حاضرها بعيدة كل البعد عن هذه العزة وهذا الجلال ، لولا معبدها الضخم القائم على شاطىء النيل الأيمن ، ولولا القبور العجيبة التى نحتها الفراعنة مقرا لحياتهم الآخرة فى جوف الهضاب الناتئة على الشاطىء الأيسر . وأخذ يتحدث فى هذا حديث عليم ساحر الحديث طيلة تناولنا الشاى . فلما فرغ من القول شكرته ثم أبديت له عجبى من أولئك الأقدمين كيف تخيلوا حاجة الروح بعد الموت لطعام هذه الدنيا ومتاعها حتى كانوا يدفنون مع الميت القمح والزهر والحلى وما الى

ذلك من ألوان المتاع . وانتقلت من هذا الحديث الى غيره والى غيره وجعل هو يجيبنى الى ماأسأل عنه .

وطاب لى المجلس فلم أعتذر ولم أنصرف ، بل أقمت أستمتع بحديث مضيفنا وبأنغام الموسيقى حتى لم يبق فى بهو الفندق معنا الا نفر قليل . عند ذلك قلت مبتسمة : « أظن أنا لم يبق لنا من الانصراف بد . وأنا أشكر صديقتى وأشكرك ياسيدى وأستأذنكما فى العود الى فندقى . » قال الالمانى : «أو تأذنين ياسيدتى أن أصاحبك الى هناك فالطريق طريقى وأنا أقيم على مقربة من فندق الاقصر . وانتقل الحديث أثناء الطريق من الفراعنة الى مشاهداتى فى أوربا . وأصغى الرجل لحديثى عن جمال سويسرا ، ثم سألنى ان كنت قد زرت المانيا وأبدى الاسف حين قلت اننى لم أزرها وذكر أنه سيكون فى برلين الصيف المقبل وتمنى لو التقينا بها وتعرف الى زوجى هناك .

نزلت صبح الغد الى بهو الفندق فألفيت صاحبنا الأقصرى فى مكانه لأمسه . وأقبل على حين رآنى وذكر لى بعد التحية أن الأثرى الفرنسى الذى يشرف على عملية التنقيب بالكرنك ويقيم فى منزل تجاه المعبد يقيم اليوم حفلة شاى ، وانه علم بمقدمى من مصر فأبدى الرغبة فى حضورى هذه الحفلة والاستعداد للمجىء الى الفندق لدعوتى اذا كنت مستعدة لقبولها . وتحدث الأقصرى عن هذا الأثرى الفرنسى مثنيا على أعماله ، محبذا قبولى الدعوة . فلما أبديت أنى لا أرفضها قدم بطاقتها باسمى ، قلت : لا داعى اذن لتجشيم الرجل مشقة الحضور بنفسه . فبدت على محيا الأقصرى علائم الغبطة وقال : «سأصاحبك اذن فى عربتى الى هناك . »

وذهبنا بعد الظهر معا وتم التعارف بينى وبين الفرنسى وسائر المدعوين الى الحفلة . وبعد أن تناولنا الشاى ذهبنا فى زيارة

قصيرة الى الكرنك رأينا خلالها ماأسفرت عنه عملية التنقيب . على أني خرجت من هذه الزيارة القصيرة وأنا لاأكاد أصدق مارأيت من جلال هذا المعبد وفخامته وعظمته • ورأى الفرنسى اعجابى فقال انه يسر بمصاحبتى فى أرجاء المعبد كله دليلا يشرح لى بعض أسراره • ونظرت الى صاحبى الأقصرى مبتسمة ابتسامة من يسأل : « أى الدليلين أختار ، هو أم المشرف الفرنسى على المعبد • » وجوابا على ابتسامتى وجه هو الحديث الى المشرف قائلا : « متى قررت السيدة زيارة المعبد أحطتك تليفونيا وحضرت معها لأستفيد جديدا عن آخر ما وصل اليه تنقيبك • • »

قضيت أسبوعين على هذا النحو بالاقصر ، أستبشر كل صباح بمشاهدة طفلى زادهما هذا الجو البديع نشاطا وصحة ، وأتفق مع الطاهى على ماسيقدم لهما من طعام ، وأقضى ماوراء ذلك متاعا بنفسى وبصديقتى وبمعارفى الذين ألقاهم فى حديقة ونتر بالاس ، أو أجلس اليهم ساعة الشاى فى بهوها ، أو أزورهم بعد العشاء أحيانا قليلة أسمع موسيقى الرقص وأمتع النظر بحركات الراقصين •• وفى هذين الاسبوعين زرت آثار الاقصر فى طيبة الاحياء ، ومقابر الفراعنة ملوكا وملكات فى بيبانها ، وزرت الكرنك مع فوج من السائحين فى ضوء القمر • وأشهد لقد كنت سعيدة بمن عرفت من الاحياء سعادتى بهذه المشاهد الخالدة الباقية على الدهر بقاء الدهر ، فكانت هذه وأولئك يشغلوننى فى يقظتى وفى نومى لأننى لم يكن يشغلنى شىء سواهم ، ولأننى كنت فى هذه الفترة أقضى نهارى وليلى كما يقضى السائحون نهارهم وليلهم ، لاهم لهم الا المتاع بالحاضر ، لايشغلهم غدهم عن يومهم ، ولا يفكرون الا فيما تقع عليه أنظارهم وما تلتهمه مشاعرهم وحواسهم • وكذلك نسيت السلك الدبلوماسى ، ونسيت تحديد النسل ، ونسيت

القاهرة ، بل نسيت أوربا ، لان الحاضر أمامى كان يملأ فراغ وقتى ولا يدع لى فرصة للتفكير فى شىء غيره ٠

فلما صدمنى الواقع بأنا عائدون الى القاهرة بعد غد ، شعرت كأننى أفيق من حلم سعيد لذيذ ، وكأنى انما جئت الى الاقصر لامسى ٠ واستبد بى هذا الشعور حين رأيت المربية صبح الغد تعد متاعنا للسفر ٠٠ لم يبق لى اذن الا أن أودع كل مارأيت ومن رأيت خلال هذين الاسبوعين السعيدين ٠ لم يبق لى الا أن أودع هذه الغرفة التى احتوت أحلام يقظتى ونومى بفندق الاقصر ، وهذا البهو وقاعة الطعام ، وهذا الفناء ، وهذه الحديقة ، وقد كانت ملعب طفلى ومهبط أشعة الشمس المحسنة اليهما ، وأن أودع حديقة ونتر بالاس وبهوها وشرفتها والنيل وبيبان الملوك والملكات مما تطل هذه الشرفة عليه ٠ وأن أودع صديقتى وصاحبها الاقصرى ، وهذا الالمانى المثقف الظريف الذى تردد علينا بضع مرات كنت أحس ، كل مرة منها بأنه أوسع ثقافة ، وأكثر ظرفا ٠ نعم ٠٠ لم يبق لى الا أن أودع من رأيت ، وما رأيت ، وأن أقول لهم ولها : الى الملتقى ان قدر لنا أن نلتقى هاهنا مرة أخرى ٠

وخرجت الى فناء الفندق أشرف على الطفلين حتى تنزل المربية اليهما بعد أن تفرغ من اعداد المتاع ٠ واتجه نظرى الى باب الفندق الخارجى فيما وراء الحديقة ، ودارت برأسى خواطر مبهمة أوحت بها خلجات نفسى ٠ ترى لو أننى جئت الى هنا العام المقبل ، أترانى ألتقى بمن أودع اليوم ؟ ٠٠ وابتسمت فى مرارة حين ارتسم أمام بصيرتى الجواب الطبيعى لهذا السؤال : نعم ٠٠ سأرى الفندقين وحديقتيهما ، وسأرى النيل والمعابد ، وقبور الملوك والملكات ، كما أرى شمس الاقصر وقمرها ٠ أما صديقتى والاقصرى والالمانى ومديرا الفندقين ومن اليهم من رجال ونساء يقيمون هنا ، دعك من

السائحين والسائحات ، فلا علم لى ولا علم لايهم مامصيره بعد عام ، بل بعد شهر ،بل بعد يوم • فقد يرجع الالمانى الى وطنه ثم لايعود ، وقد يمرض أحدهم وقد يموت • ألا تعسا لهذه الحياة لانمسك منها الا بخيال سريع التنقل سريع الزوال •• وما أشهاها مع ذلك وما ألذها وما أطيب مانسيغه من حلو متاعها • أتراها تكون كذلك لو أن الاحياء كتب لهم البقاء كما كتب على المعابد والنيل والشمس والقمر ؟••

ونزلت المربية فتركتها مع الطفلين ، وأخذت طريقى الى حديقة ونتر بالاس ، وهناك جلست أتحدث الى صديقتى حديث الوداع • وانا لكذلك ، اذ أقبل الاقصرى فجلس الينا يشاركنا فى هذا الحديث ، ثم قال ساعة انصرافه انه دعا الالمانى ، كما دعا الفرنسى المشرف على أعمال التنقيب بمعبد الكرنك لتناول الشاى معنا قبيل المغيب ليقوم الجميع بتوديعى •

واجتمعنا حول مائدة الشاى ، واستمعنا الى الموسيقى وتحدثنا • فلما آن موعد انصرافى حيانى الفرنسى بكلمات تسيل رقة ، وتمنى لى عودا سعيدا الى بيتى • وعانقتنى صديقتى وتبادلنا قبلات حارة •• وقال الاقصرى انه سيرانى كرة أخرى على محطة سكة الحديد صبح الغد • أما الالمانى فقد أصر على مصاحبتى الى فندقى ، فطريقى طريقه الى مسكنه • فلما بلغنا باب الفندق وقف يودعنى وأخرج من جيبه علبة صغيرة وقال : « أرجو ياسيدتى أن تقبلى هذا التذكار الصغير لتعارفنا القصير خلال هذه الفترة الوجيزة •• انه لايعبر عما أشعر به نحوك من اكبار وتقدير فحسب ، ولكنه يذكرنى كذلك عندك كلما رأيته » •• وشكرته وفتحت العلبة قبل أن ينصرف فرأيت بها حلية صغيرة دقيقة الصنع غاية الدقة ، فلما أبديت اعجابى بها قال : « لقد صنعتها بنفسى ، وان لم تكن صياغة الحلى صناعتى » • ثم ودعنى وانصرف •

وفي الصباح الباكر جاءت عربة الاقصرى فانتقلنا بها الى المحطة ، فاذا هو ينتظرنا على افريزها . فلما آن لنا أن نستقل القطار وصعد اليه الحمال بمتاعنا رأيت مع المتاع زنبيلا أشار اليه الاقصرى وقال : « انها هدية صعيدية لاتليق بالمقام تأكلونها شفاء وعافية » .

وانطلق بنا القطار ، وأنا وحيـدة في الديوان مع طفـلي ، لم أستشعر رهبة ، ولم أشعر بحاجة الى دفاع . وغلب النوم الطفلين لتبكيرهما في اليقظة فاستلقى كل في ناحية ، ورحت أنا يتردد خيالي بين الاقصر ومقامي بها ، والقاهرة واقبالى عليها . لكنني مالبثت بعد قليل أن نسيت القاهرة وتعلقت بالاقصر . ذلك أنني حانت مني التفاتة الى متاعنا فأخذ الزنبيل بنظرى ، وأحيا صورة الأقصرى في ذهني ، وأحيا صورة بلده . ودفعني منظر الزنبيل وتوهم مافيه الى المقارنة بينه وبين الحلية التى أهدانيها الالمـانى ، وبين ذوق كل من صاحبي الهديتين . وأدت بي هذه المقـارنة الى أن أسـأل نفسي : أفكان من حقي أن أقبل أيا من الهديتـين ؟ .. صـحيح أن هدية الاقصرى قد زج بها بين متاعي من غير علمي ، وانهـا فوق ذلك طعام لن يبقى له غدا أو بعد غد أثر ، وأستطيع اذا سألني زوجي أن أذكر له كل شيء عنها .. ولـكن ماذا عساى أقول اذا سئلت عن هدية الالمـاني ، وكيف سولت لي نفسي قبولها ؟ ..

وأعترف ، لقـد بهت وتولتني الحيرة حين أردت الجواب على هذا السؤال .. وفي الحق كيف قبلت هذا التذكار ؟ وكيف جرؤ الالمـاني على تقديمه لي ؟ وما معنى هذا الصنيع من جانبه ؟ ليس للتذكار قيمة مادية ذات شأن . لـكن تقـديمه الى سـاعة توديعي مشفوعا بالعبارات التى نطق بها كان يوجب على أن أتدبر الامر أكثر مما فعلت ، وأن أشكر وأعتذر عن عدم قبول هـذا التذكار .. ولكن بمـاذا كنت أعلل اعتـذارى من غير أن أخل بواجب الادب والمجاملة ؟ ان الرجل لم تبدر منه في كل المرات التى جلس الينا فيها

أية بادرة لاترضاها أدق قواعد الذوق • وعبارته الاخيرة انه يقدم لى هذا التذكار لما يشعر به نحوى من اكبار وتقدير عبارة مختارة أدق اختيار • فلو أننى اعتذرت ولم أقبل تذكاره ، لكان اعتذارى جافا لايصدر عن انسان مهذب •

لكن ماعساى أن أقول لزوجى حين يرى هذا التذكار ؟ وهلا أقص عليه أنباء جولاتى ، وكل مارأيت فى الاقصر ، وأنا انما سافرت اليها من أجل ابنتنا لتمام برئها ؟ ان هذا التذكار ليفتح على أبوابا ماأغنانى عن فتحها • أفأخفيه عن زوجى تخلصا من كل سؤال وجواب ؟ ان كبريائى وكرامتى لتأبيان ذلك على ، لاننى لم أرتكب اثما فأتستر عليه •• ولكن هلا يثير هذا التذكار فى نفسه من الغيرة ماقد يجنى على مودتنا وعلى حبنا المتبادل ثم يعذره كل انسان عن غيرته ، وان لم يكن لى فى ذلك ذنب ولا جريرة ••

جعلت أقلب هذه الامور فى نفسى ، والقطار ينهب بنا الطريق الى العاصمة • فلما بلغها ألفيت زوجى فى انتظارى على المحطة ، ولمحت فى نظراته وهج الشوق العنيف ، وخيل الى أنه يريد أن يبتلعنى ابتلاعا • لكنه اكتفى بتقبيل الطفلين واظهار الرضا عن صحتهما • فلما دخلت منزلنا وأزلت عنى غبار السفر ولباسه ، وتزينت للنوم، وأوى الطفلان الى مضجعيهما ألقيت بنفسى بين أحضانه وسكبت فى فمه كل مااجتمع فى جسمى ، وفى قلبى ، وفى عواطفى ، وفى وجودى كله مدى وجودى بالاقصر من مشاعر واحساس • وتلقى هو قبلتى فزادته شوقا لى • وأذبت نفسى وروحى فيه ، وانتشرت بذلك فى كل وجوده • فلما آن لنا أن نتحدث لم نجد مانقوله • اننا كلانا هنا وكفى •• وبعد ألفاظ قليلة مبعثرة تبادلناها قال :

أحسبك متعبة من مشقة السفر طول النهار •• فليرد عليك النوم راحتك وطمأنينتك •• ولنتحدث غدا عن الاقصر وما كان فيها • »

واستيقظت صبح الغد فى ساعة متأخرة فألفيته ذهب الى عمله ٠ وعدت أفكر فيما كان يشغلنى وأنا بالقطار فقلت : « يجب أن أقص عليـــه كل شيء ٠٠ ويجب أن أذكر له الالمـــانى وتذكاره ٠٠ ان ماشهدته منذ بلغت القاهرة ليدلنى على أن لى عليه من السلطان ماكان لحواء حين أغرت آدم فأكل من شـــجرة الخلد ٠ وسأرى مايكون لذلك من أثر ثم أتصرف ٠ ٠ »

وعاد من عمله مبكرا وقبلنى قبلة شدت من عزمى ٠ فلما جلسنا سألنى وعلى ثغره ابتسامة الرضا عما رأيت وصنعت فى الاقصر ٠ فذكرت له صديقتى التى مات زوجها فاســـتولى أهله على تركته ، وذكرت كيف كان يجتمع الى مائدتها بونتر بالاس قوم أولو ظرف وكياسة يتناولون الشاى ويتحدثون ، منهم الاقصرى الذى أهدانى الزنبيل ساعة سفرى ، ومن هديته سنتناول طعامنا بعـــد هنيهة ٠ ومنهم المـــانى مهذب واسع الثقـــافة ، كان قليل التردد علينا ، وقد قضى عليه ظرفه ساعة ودعنى أن يهدينى تذكارا دقيقا من صنع يده ٠ وفتحت العلبة الصغيرة التى احتوت التذكار وأريتها لزوجى ٠ فلما رآها قليلة القيمة المـــادية لم يبد اهتمـــــاما بها ٠ وذكرت الاثرى الفرنسى المشرف على أعمال التنقيب بالكرنك ٠ ثم ذكرت الكرنك وما تركه فى نفسى من أثر عميق حين زرته مع صـــحبة فى ضوء القمر ، وبيبان الملوك ، وقبر توت عنخ آمون ، ومقابر الملـــكات ٠ ذكرت ذلك كله وذكرت النيل ومغارب الشمس البديعة ٠ وأخذت أتحدث وأتحدث وهو يصغى مأخوذا اصغاء من سحر بحديثى ٠ ثم ختمت الحديث بأنى كنت أغتبط بذلك كله ، ثم أزداد غبطة حين استيقظ فى الصباح فأرى طفلينا يزدادان نشاطا وصحة ، ويزيداننى بذلك هناءة وسعادة ، ويجعلان من مقامنا بالاقصر فلذة من نعيم كان يتضاعف لو أن والدهما كان معنا يستمتع بمتاعنا ، ويزيدنا ســـعادة بمتاعه ٠٠

قبلني زوجي حين فرغت من حديثي وشكر لى عنـايتي بالطفلين ثم قمنا وتناولنا غداءنا وخلوت بعد ذلك الى نفسي راضية عن نفسي • هأنذا لم أخف شيئا عن زوجي • وهاهوذا مطمئن مغتبط • وهذا طبيعي • فلا جناح على امرأة اذا رأى النـاس فيها جاذبيـة أدنتهم منها وحببت اليهم مجلسها ، أو رأوا في حـديثها مأخذ بسـمعهم وأبصارهم •• فيم اذن كان ترددي وأنا بالقطار ؟ •• وفيم كانت خشيتي أن أثير هواجس الرجل أو أثير غيرته ؟ اننا كثيرا ما نجسم أمام خيالنا أمورا لاجسامة في الواقع لها ، وكثيرا ما نضـطرب أمام اعتبارات لاشيء فيها يوجب الاضطراب •

على أنني ابتسمت بعد هنيهة في نفسي وتساءلت : أكان الامر يتم بكل هذا اليسر لولا أنني سكبت في جنان زوجي كل ما اجتمع في جسمي وفي قلبي وفي عواطفي ، وفي وجودي كله ، من حس ورغبـة ، ولولا أنني أذبت نفسي وروحي فيـه وانتشرت في كل وجوده لاول ماخلوت اليه بعد أن بلغنا القاهرة ؟ وهل كان الامر يتم في مثل هذا اليسر لولا لواعج الشوق التي كانت تحـرك كل روحه وكل عصبه ، ولولا مايكن قلبـه من حب فرض عليـه كل سلطانه ؟ ان شوقه وحبه هما اللذان نصراني بعد أن أرضيتهما بكل ماينطوي عليه وجودي من أسباب ارضائهمـا ، وبعـد أن تعـاونت أسباب هذا الارضاء في ذكاء ومقدرة • فلا أغمط حق نفسي ، ولا أهون من قدر سلطاني القاهر • فلولا هذا السلطان لواجهت اليوم موقفا ماأدقه وأعسره •

وتعاقبت الايام وأقبل الصيف وفكرت في السفر الى أوربا • ولم أكن في ريب من اجابة زوجي رغبتي • فقـد رضي سلطاني وأقره وخضع لحكمه رغم ماكان يبدو أحيانا من تحكمه ، لانه رأى في هذا التحكم لونا من دل المحب يزيده اغراء • على أن أمرا حدث حال دون هذا السفر • فقد مرض والدي واشتد به المرض حتى

كان الاطباء يعودونه صباح مساء ، وكان زوجى هو المشرف على تنفيذ العلاج الذى يقررونه ، فلم يكن مستطاعا أن ندعه فى علته ونسافر الى ربوع الاصطياف والتسلية . فلما برىء كان الصيف فى مولياته . ولم أكن أحب الاسكندرية منذ سافرت مع والدى اليها بعد موت أمى . لذلك استقر مقامنا بالقاهرة حتى اذا كنا فى الايام الاخيرة من شهر ديسمبر رأى زوجى أن من حقى أن أستريح ، فاقترح أن أذهب مع الطفلين والمربية الى الاقصر كما فعلت فى العام المـاضى . وحجزنا أماكننا فى فندق الاقصر وسافرنا بقطار الصباح اتقاء برد الليل . فلما بلغت الفندق وجدت الاقصرى والالمـانى فى بهوه .. وأقبلا مع مدير الفندق وقالا : « لقد أخبرنا المدير بمجيئك فانتظرناك لنقول لك : حمد الله على السلامة »..ثم ذكرا أن صديقتى نزلت ونتر بالاس وودعانى وانصرفا .

وذهبت مبكرة بعد ظهر الغد الى ونتر بالاس فألفيت بهوها خاليا فتخطيت الى شرفتها أؤدى للنيل ولما وراءه فى الجانب الغربى تحية اكبار واجلال . ولم يطل وقوفى حتى اذا الانجليزية التى وقفت الى جانبى فى العام الماضى تقبل على وتقول .. « هاللو ، أرأيت أنك لم تستطيعى مقاومة ما لهـذا المنظر السـاحر من سلطان فجئت حاجة اليه هذا العام كرة أخرى . ذلك شأنى معه من أعوام عدة . لايكاد الشتاء يقبل حتى أشعر بدافع يجذبنى الى هنا لاؤدى لهـذا المشهد الفذ فرضا حاولت غير مرة أن أتنصـــل منه ثم لم أجد مفرا من أدائه . وحدثينى بربك . أى شعور يملكك حين تهبطين مئات الدرج الى قبر فرعون نقشت جوانبه بطلاسم «كتاب الموتى» ثم ترين مكان تابوته أو بقية من آثاره ! ان الرهبة التى تملكنى فى تلك اللحظات لترينى العالم الآخر وترينى ملكوت السماوات . ألا ترين أنت أيضا شيئا من ذلك ؟ وأجبتها : « اننى لم أتردد بعد على تلك المقابر ماترددت لأرى فيها ماترين . انما ملكنى شعور العجب كيف ينفق

هؤلاء الملوك كل ذلك الجهد ويسخرون فى سبيله ألوف العمال وعشرات آلافهم لينقروا فى جوف الصخر قصور قبورهم • » قالت وفى لهجتها شيء من الانكار على : « كلا يا سيدتى • لا تقولى هذا الكلام • فلو أنهم لم يفعلوا لما خلدوا للأجيال المتعاقبة على الدهر هذه الآثار البارعة الضخمة التى تحدث عن حضارة روحية أضاعها عالمنا المادى الاحمق • ان هؤلاء الاقدمين فى مصر والهند والصين قد هدتهم حكمتهم وخلدوا من آثار علمهم وفنهم وحضارتهم مالا قبل لعالم اليوم بمثله • انهم كانوا يعيشون مطمئنين الى خلد أرواحهم فكانوا يقيمون لهذه الارواح المقر اللائق بها • أما نحن فنعيش فى عالم مضطرب سريع التغير لانستطيع أن نمسك منه بمعنى من معانى البقاء ، وحسبنا لذلك منه سنى حياتنا على الأرض وما أقصرها ، وما أتفه ماتكسبه أرواحنا أثناءها• وانى لاشعر يوم نلتقى بهؤلاء الاقدمين فى ملكوت السموات أنا سنرى أنفسنا أقزاما الى جانبهم ، ونرى حضارتنا هباء الى جانب حضارتهم • »

واستأذنت محدثتى وعدت الى بهو الفندق وجلست الى مائدة فى أحد جوانبه • وبعد قليل رأيت صديقتى قادمة من ناحية المصعد فقمت اليها وتهادينا التحية وجلسنا حول المائدة وعدنا الى مثل حالنا منذ عام • وانا لكذلك اذ جاء الالمانى ووقف هنيهة يتحدث الينا ثم انصرف معتذرا بأن لديه موعدا لافكاك له منه • قالت صديقتى •• « خبرينى • ماذا صنعت بهذا الرجل • ان الاقصرى ليذكر أنه مجنون بك ، وأنه يقول أنه يرى الله فى السماء ويراك على الارض » • فضحكت ضحكة ذات مغزى وقلت : « وهل تصدقين الأقصرى • لعله يرانى أضيق به أحيانا ، وانى أجامل هذا الالمانى ، فدفعته الغيرة لأن يقول لك ماقال • اننى لم أر هذا الالمانى فى العام الماضى الا معك ، وكنت أراه معجبا بك • وما أحسب الاقصرى يريد بكلامه لك وقيعة بيننا • »

قالت صديقتي : « لا أظن بالاقصرى هذا الظن • والالمانى رجل مهذب رقيق • ألا ترين أنه كان يأبى الا أن يرافقك الى الفنـدق كل مرة يجالسنا فيها ، فكان يدعنـا وينصرف معك حتى لايدعك تسيرين وحدك • • »

ولم أر أن أجيب فانصرفت بالحديث الى موضوع آخر •

لست أنكر أننى اغتبطت فى دخيلة نفسى لمـا ذكرته صديقتي عن عواطف الالمانى نحوى • لكنى رأيت أن أقطع عنى ألسنة المتقولين بالتزام جانب الحيطة والحكمة • فكنت اذا أردت الانصراف وهو فى مجلسنا ، دعوت سيدة تقيم مثلى بفندق الاقصر ، ولو كانت على مائدة غير مائدتنا ، لنعود بعد ذلك الى الفندق معا فلا يفكر هو فى مرافقتى ، فان فعل لم يكن لصديقتى ولا للاقصرى ولا لغيرهما أن يقولوا شيئا •

ورأيت يوما زوج صديقة لى كنت أعجب بمنطقه وكنت أعلم أنه ينزل وتتر بالاس ، فلما رآنى جاء يحيينا فاستبقيته هنيهة ثم قلت : « حان موعد ذهابى الى فندقى » ، وقلتها بلهجة فهم منها أنى أريد مرافقته اياى • وكان ذلك بالفعل قصدى ابعـادا لشبهة الالمانى • وصحبنى زوج الصديقة وهبطنا الدرج الى الحديقة والوقت قد أمسى والظلام مد رواقه • وعثرت قدمه فقال وكأنما يعتذر عن عثرته : « تبا لادارة هذا الفندق • ما ضر لو بعثروا بين أشـجار الحديقـة بعض الثريات الـكهربائية » • وبدر منى عن غير عمد أن قلت : « ياعبيط » •• ولم ترضه كلمتى فلم يسكت عليها بل قال •• «لو لم تكونى زوجا لصديقى !! » ولم أجب للحظتى ، ولولا الظلام لبدت على وجهى حمرة الخجل •• على أننى قلت بعـد برهة •• « مالكم معشر الرجال تسرعون الى سـوء الظن حين لايكون لسـوء الظن موضع » ولم يرد هو متابعة هذا الحديث فأداره بذكاء الى اتجاه آخر •

ويظهر أن الالماني فطن لحذرى وأراد التغلب عليه . فقد صادفته يوما ساعة نزولى من غرفتى لاذهب الى موعد الشاى بونتر بالاس . فلما رآنى تقدم الى وحيانى فى لطف وأدب وقال : « جئت أدعوك لقضاء النهار بعد غد فى البر الغربى حتى تشهدى ماتجريه مصلحة الآثار فى الدير البحرى . وسنتناول طعام الغداء هناك . وبدت على الحيرة فلم يدع لى فرصة للاعتذار بل قال : « وقد لاحظت مابدا من حذرك هذا العام فدعوت صاحبنا الاقصرى ليكون معنا . وقد رجوته أن يقنع صديقتك بمرافقتنا كذلك . قلت : ان كان الامر كما تقول فأنعم بها من صحبة . قال وكأنما صفعته عبارتى : « لست أفهم ياسيدتى حذرك هذا . فهل بدر منى مايوجب الريبة ؟ وهل سمعت منى كلمة خدشت سمعك ؟ أم أن ذنبى بل جريمتى أننى معجب بك اعجابا لا حد له . معجب بذكائك ، وبروحك المضيئة ، وبحديثك الساحر ، وبكل شيء فيك ! . ومتى كان الاعجاب جريمة يجزى مجترفها هذا الجزاء القاسى ؟ هأنذا صارحتك بما يدور فى نفسى نحوك من عاطفة لن تزداد على الايام الا سموا . ولست أنا وحدى الذى ملكنى الاعجاب بك . فكثيرون ممن رأوك أو استمعوا اليك يعجبون كيف يكون فندق الأقصر أو فندق ونتر بالاس مسكنا لملاك مثلك . ولو أن ذلك كان سائغا لشادوا لك قصرا يحجون اليه كلما نزلته . فأمثالك اللاتى وهبهن القدر ما وهبك ياسيدتى قليلات . فلا تسرفى فى التواضع ولا تجعلى من اعجابى بك جريمة تقتضى الحذر منى والبعد عنى . اننى لا أريد أن أسمع منك جوابا على ماقلت . فالى بعد غد ، بعد فطورك . الى الملتقى » . وتركنى وانصرف .

وتولتنى أثر هذا الحديث الذى يكاد يشبه الاعتراف دهشة أذهلتنى ، فبقيت مستلقية فى مقعدى مضطربة النفس لا أدرى ماذا عساى أفعل . فلما هدأت قمت متحاملة على نفسى الى ونتر بالاس

وجلست مع صديقتى . وسرعان ماجاء الاقصرى . وبعد هنيهة غمز بعينه وقال : « نحن اذن ضيوف الالمانى بعد غد الى الجانب الغربى لنرى الديرالبحرى وما يجرى فيه » . وقالت صديقتى : وقد ألح صاحبنا هذا على لأقبل الدعوة رغم علمه بأننى شهدت من الآثار مالاحاجة لى بعده أن أشهد جديدا . قلت فى هدوء متكلف : « لقد كنت موشكة أن أعتذر لولا حرصى على صحبتكما . فان شئتما اعتذرنا جميعا ، ولا يزال فى الوقت متسع » . قال الأقصرى متحمسا : « كلا ياسيدتى . ان اعتذارنا يسىء الى رجل رقيق مهذب جاملنا بدعوته ايانا ولم يسىء قط الينا . وأنا موقن أننا سنقضى بعد غد يوما من الايام التى لاتنسى » .

وقضينا بعد غد يوما بالفعل لاينسى . كانت الشمس محسنة كعادتها . وكان الهواء ناعما رقيقا . وتخطينا النيل فى زورق شراعى انساب على هون فوق مياهه الهادئة المطمئنة . ودرنا بين آثار طيبة الاموات وتماثيلها ومقابرها حتى اذا انحدرت الشمس شيئا مابعد الزوال تناولنا غداءنا فى استراحة « كوك » . وذهبنا بعد ذلك الى الديرالبحرى ، فتلقانا الفرنسى الذى يقوم بالاعمال هناك ودار معنا فى أرجاء الدير وأرانا فى مخزن الى جانبه بعض ماعثر عليه أثناء حفره وتنقيبه . وكان يشملنا طول نهارنا جو مودة أذهب عنى الحذر ، وجعلنى أشكر الالمانى من كل قلبى أن هيأ لنا فرصة هذا اليوم الممتع الظريف . وكان الاقصرى يبتعد عنا أحيانا مع صديقتى فلا أضيق بذلك ولا أنكره . ان ما صبه الالمانى فى سمعى من آيات اعجابه قد صادف هوى فى فؤادى وأرضى كبريائى . وهو اليوم سعيد بصحبتى يريد أن يسمع منى أكثر مما يريد أن يتحدث الى . وأنا ضنينة بالكلام وهو راض مع ذلك كل الرضى بما أقول . ويرتد الاقصرى مع صديقتى الى ناحيتنا فتتولاهما الدهشة لصمتنا ، لانهما لايدركان المعنى الانسانى السامى الذى تنطوى عليه جوانحنا

والذى يقرب بين روحينا وعقلينا ، وان لم تضطرب بسببه ذرة من أعصابنا أو جسدنا •

وعدنا حين قاربت الشمس المغيب فأقلنا الزورق الى ونتر بالاس • ورافقنى الالمانى الى فندق الاقصر بعد أن اعتذرت لصديقتى بأننى متعبة شديدة الحاجة الى الراحة • واحتوتنى غرفتى فأزلت عنى غبار النهار ، واستلقيت على سريرى أستعيد صور هذا اليوم الجميل السعيد • وبهذه الصورة اتصل الحديث الذى صبه الالمانى فى أذنى أول أمس فازددت غبطة وسرت فى عروقى نشوة أشعرتنى الرضا والنعيم • وتناولت طعام العشاء فى غرفتى وأويت من جديد الى فراشى كأنما أريد أن أستعيد هذه الصور المنعشة المسعدة • وارتسم خيال الالمانى وراء هذه الصور كأنه يحركها • وأغمضت جفنى لعلى أنام فاذا النوم يجفونى ، واذا هذه الصور تزداد وضوحا أمامى ، واذا بى أشعر كأن هذه الصور تنحدر بى الى لون من الحس يقشعر له بدنى ، ويضطرب به تفكيرى • وطال ذلك بى الى ساعة من الليل لم أدر ما هيه • وأخيرا غفوت ويظهر أننى قد طالت غفوتى • فقد صحوت فاذا الأطفال هبطوا مع مربيتهم الى الحديقة • ودعوت الخادم فأقبلت تسألنى مابى ، ثم أحضرت لى طعام فطورى ووقفت الى جانبى تطمئن على صحتى • وهبطت الى البهو وطلبت زوجى بالقاهرة تليفونيا • ومكثت سويعة أنتظر دعوتى لمحادثته •

وانما طلبت زوجى لاننى شعرت بالحاجة الماسة لسماع صوته ، بل شعرت بالحاجة الماسة لوجوده الى جانبى • لقد رأيت أثناء غفوتى أننى علوت أعلى هضبة فى الشاطىء الغربى ، وأن ريحا عاتية هبت ساعة المغيب فدفعتنى أتدحرج على سفحها وأصيح بأعلى صوتى فلا ينقذنى أحد • ولعل هذا الصياح هو الذى دعا الخادم لتسألنى عن صحتى ومابى • وجعلت أتدحرج وأتدحرج ، وأصيح وأصيح ، ثم اذا يد محسنة وصدر حنون تلقيانى • ونظرت الى صاحب هذه

اليد وهـذا الصدر فاذا هو زوجي • فلما استيقظت صممت على محادثته ودعوته ليجيء الينا •

ودعيت لمحادثته وسمعت صوته يسألني في انزعاج : «كيف أنتم؟ ماذا حدث؟ لماذا طلبتني ؟ » قلت : « كن مطمئنا • اننا جميعا على خير ماتحب ، لكنني شعرت منذ تركت القاهرة أننا ظلمناك • فأنت أحوج للراحة منا • انك لم تسترح طول الصيف ، فأحضر الينا فاقض معنا أسبوعا فالجو هنا كفيل بأن يعيد اليك طمأنينة نفسك وراحة أعصابك • وحسبك أن ترى الاطفال يمرحون سعداء فتكون سعيدا بهم ، وبي • فمتى تحضر؟ خبرني لأخطرهم هنا في الفندق• قال : لاشيء أحب الى من أن أراكم هاتين سعداء • وسأحضر بعد يومين بالقطار الذي يصل الاقصر بكرة الصباح • وماذا تريدين أن أحضر لكم من القاهرة ، لك وللأطفال ؟ وشكرته وقلت له : الى اللقاء ، وانتهى حديثنا وأنا أسعد الزوجات •

وأسرعت الى ونتر بالاس وأخبرت صديقتي بأن زوجي سيحضر بعد يومين • وأذاعت صديقتي النبأ وعرفه كل معارفنا ساعة الشاي • فلما أويت الى مخدعي بعد السهرة تولاني العجب من نفسي • فلماذا دعوت زوجي ؟ يجب ألا يعلم أحد أنني أنا التي دعوته • بل يجب أن يعلموا أنه هو الذي قرر الحضور من تلقاء نفسه • ويجب أن يفهم الألماني ذلك بنوع خاص حتى لايظن أنني أردت أن أحتمي بزوجي منه ••• ومن نفسي • ان كبريائي ليأبى على أن أضعف ، أو أن يتوهم أحد أنني عرضة لان أضعف • يجب أن أكون أنا دائما صاحبة الرأي ، وصاحبة السلطان ، وأن يستجيب الغير لارادتي وسلطاني بدافع من أنفسهم ومن غير أن أطلب اليهم شيئا طلبا صريحا •

فلماجاء زوجي بكرت لملاقاته • وبعد أن تهادينا تحية كلها الود ،

وبعد أن اطمأن الى صحة الطفلين وهناءتهما قلت له : « لقد فهم الناس هنا أنك أنت الذى أردت أن تحضر بدافع من عواطفك نحونا وشوقك لنا . وراقنى هذا الذى فهموا فلم أعترضه . ولا أشك فى أن مافهموا من ذلك يرضيك ويسرك . » واغتبط زوجى لفهمهم الامر على هذا الوجه وأكده لهم . وأقام معنا أسبوعا عدنا بعده الى القاهرة .

وفى خلال هذا الاسبوع دعوت الالمانى والأقصرى ودعوت صديقتى لتناول الشاى ولتناول العشاء معنا بفندق الاقصر . وأعدت على مسامع زوجى أمام الالمانى أنه هو الذى أهدانى التذكار الذى أريته اياه فى العام الماضى . وطفنا جميعا معا لنرى زوجى من آثار الاقصر ما لم يكن رآه . فلما اقترب موعد سفرنا وحانت لحظة استطاع الالمانى أن يحدثنى فيها على حدة قال : «أرجو أن أراك هنا العام المقبل . وأرجو أن تأذنى لى اذا حضرت الى القاهرة أن أزورك هناك » . قلت :.« أولا تريد أن ترى زوجى كذلك بالقاهرة» قال : « ذلك شأنك أنت ، لكننى أصبحت أشعر أنه لاغنى لى عن أن أراك وأستمع الى حديثك ولو مرة فى كل عام ، ولو اقتضانى الامر أن أحج اليك كما يحج المسلم الى مكة والمسيحى الى بيت المقدس ، ليرفع الى ربه دعاءه ، كذلك أريد أن أرفع اليك فى كل عام دعائى وآيات اعجابى صادقة خالصة لوجهك الكريم » .

وابتسمت ولم أجب امارة أننى أغتبط بذلك ولا أعترضه . وكفته ابتسامتى ليشكرنى وليحمد لى أن لم أر فى اعجابه اثما يوجب التثريب عليه .

وعدت مع زوجى والطفلين والمربية الى القاهرة وأنا مغتبطة أشد الاغتباط بأن دعوته فحضر الينا بالاقصر . ولم يكن مرجع غبطتى أنه حمانى من ضعف نفسى ، فلم يكن أيسر على من أن أتغلب على هذا الضعف وأن أخضعه لارادتى وسلطانى . لكن

هذا الاسبوع الذى قضاه بالاقصر أتاح له فرصة لا يسمح عمله
بأن تتاح له مثلها بالقاهرة • أتاح له أن يرى اعجاب المعجبين بى ،
أجانب ومصريين ، وأن يدرك أننى لست امرأة ككل النساء •
صحيح أنه يحبنى ويقدرنى ويستجيب لكل رغباتى • لكنه كان
فى حاجة لان يرى ما رأى ليزداد اكبارا لى ، وتقديرا لما يجب
أن يكون لى فى الحياة من مكانة ، وليعلم أننى يوم أردت أن ننتقل
الى السلك الدبلوماسى انما أردت أن أسمو بنفسى وبه الى هذه
المكانة الواجبة لى وله • أما وقد رأى بعينى رأسه هذه الهالة التى
كانت تحيط بى فقد غفرت لنفسى لحظة الضعف التى دفعتنى
فطلبت مجيئه الى الاقصر ، بل حمدت هذه اللحظة واطمأن قلبى
كل الطمأنينة لما صنعت أثناءها • وعاد زوجى الى عمله وعدت الى
حياتى الرتيبة المتشابهة التى تبعث الى نفسى السآمة لولا هذين
الطفلين العزيزين اللذين كانا مصدر سعادتى وهناءتى ، ولولا أننى
شعرت بأن زوجى قد تبدلت عواطفه نحوى فأصبح شديد الاعجاب
بى ، سريعا الى تلبية رغباتى فى اذعان جعله لا يناقشنى فى شىء ،
بل يسبقنى الى ما أريد اذا بدرت منى امارة تدل على ارادتى •

من ذلك أنه أظهر لى أن سكننا لم يعد يليق بنا ، وأنه يبحث
عن مسكن يعجبنى • ومنه أن الصيف لم يكد يقترب حتى رغب
الى فى أن أعد العدة لسفرنا الى أوربا ، وأن أعد نفسى بنوع
خاص للمكان الذى يجب لى فى المجتمعات التى تغشاها •

الفصل الخامس

قبل أيام من سفرنا الى أوربا صحبنى زوجى الى منزل مملوك لاحدى الدوائر الكبرى لارى مبلغ صلاحه سكنا لنا ، وأخبرنى أن الدائرة مستعدة أن تدخل عليه من الاصلاح كل ما نقترحه ، وأنها ستقوم بهذا الاصلاح خلال الصيف ، فاذا عدنا من سفرنا ألفيناه معدا لانتقالنا اليه . ويقع هذا المنزل فى حى ممتد على النيل . وقد أعجبنى موقع المنزل وأعجبنى مجموع نظامه ، لكننى رأيت ادخال بعض التعديلات الجوهرية عليه ، كما أبديت اقتراحاتى فى طلاء غرفه طلاء يوافق أثاثنا . وبعد الظهر عاد زوجى فأخبرنى أن الدائرة قبلت اقتراحاتى كلها ، وأنه أمضى العقد معها ، وعهد الى صديق قديم لنا أن يشرف على اجزاء الاصلاح أثناء غيابنا .

وكنت قد أعددت لسفرنا الى أوربا ما أرضانى . وسافرنا وقضينا هناك صيفا ممتعا حقا . وقد ألفت حياة الفنادق الكبرى واغتبطت بها لانها كانت تعفينى من تدبير المنزل وما يقتضيه من مشقة ، ولاننى كنت أرى من نزلائها أشخاصا أستريح اليهم وأطمئن الى معاشرتهم . من هؤلاء سيدة أمريكية رقيقة ساحرة الحديث ، بلغت رقتها أن كانت تبدو ناحلة الجسم حائلة اللون بعض الشىء ، ولكنه شحوب يزيدها رقة ويزيد حديثها أثرا فى النفس ويدعو للطف بها والميل اليها . وقد اتصلت بينى وبينها مودة اقتضتنى أن أسأل عنها كلما قيل لى أنها لم تترك غرفتها ، وسمحت لها أن تدعونى اليها اذا لزمت سريرها لتستريح من تعب ألم بها . وكنت أجد عندها أحيانا من أصحابها من تسلى بحديثهم وحدتها . وقد سألتنى يوما أن أدعو

زوجي معي ليعودها وليصف لها دواءها . وكان زوجي يصحبني بعد ذلك أحيانا اليها وان لم تكن في حاجة لطبه وعلاجه .

وكانت هذه السيدة تتزين في سريرها أجمل زينة وأبرعها . ولست أبالغ اذ أقول أنها كانت أكثر عناية بزينة سريرها منها بزينة خروجها ونزهتها . وكانت ملابس سريرها آية في الجمال وحسن الذوق . كانت قمصان نومها من حرير رقيق مطرز أبدع تطريز . وكانت ألوان هذه القمصان هادئة ، سماوية أو وردية أو بنفسجية أو ما اليها ، خلا قميصا أحمر قانيا كانت تلبسه أحيانا . وقد سألتها يوما عن تباين هذا القميص القاني مع سائر لباسها فقالت : « انما ألبسه حين يدمي قلبي ليعبر بلونه عن دخيلة نفسي » . وكانت كثيرا ماتضع على رأسها لباسا ينسجم مع لون وجهها ، ولون قميصها ، ويظهرها في براءة الطفل المدلل ويزيدها بذلك اغراء وفتنة .

وكنت أحب في هذه السيدة كل شيء الا حبها الشراب وان قل ما رأيتها متأثرة به . فقد كانت اذا تنصف الليل لاتطيق صبرا على كئوس تحتسيها ولو كانت في سرير نومها . وقد دعتني غير مرة لمشاركتها في شرابها فاعتذرت ولم أقبل . وكانت اذا أطلق الشراب لسانها تروى من هموم حياتها مايثير الشفقة بها ، هذا مع أنها كانت تنفق عن سعة تشهد بواسع ثرائها ، وبأن المال وحده لا يذيب الهموم ولا يكفل السعادة .

وكانت هذه السيدة تعرف من دقائق الجمال الذى تتزين به الطبيعة في أرجاء أوربا المختلفة مالا يعرفه الا الاقلون . وقد أشارت علينا بجولات في أرجاء النمسا وشمال ايطاليا وفي بلاد الشمال الاوروبي لم نستطع ذلك الصيف أن نتمها جميعا ، ولكن متاعنا بما رأيناه فاق كل ماكنت أتصور . فلما كنا في الايام الاخيرة من شهر سبتمبر عدنا الى القاهرة وأنا أحسب لانتقالنا الى منزلنا الجديد ألف حساب .

ونزلنا القاهرة فاذا بالاصلاح المطلوب فى المنزل لم يتم كله ، واذا ماتم منه لايعجبنى • وأبديت رأيى فى ذلك بطريقة أغضبت الصديق الذى تولى الاشراف على الاصلاح فى غيابنا ، وقد كان يتوقع أن نشكره لا أن نلومه • وأدى به الغضب الى الاقلال من التردد علينا • وساء زوجى غضبه وانقطاعه • لكن رأيى فى الأمر كان حاسما • قال زوجى : « وما العمل الآن • ان منزلنا الأول قد سكنه مستأجروه الجدد • وأثاثنا كما تعلمين مودع فى مخازنه » • قلت : « ذلك شأنك • فان شئت بحثنا عن مسكن آخر ، وان شئت نزلنا فى الفندق حتى يتم اصلاح هذه الدار التى استأجرتها » • فذهب الى الدائرة المؤجرة ثم عاد يقول : « انهم وعدونى أن يتم الاصلاح فى شهر ، فلا حاجة بنا للبحث عن منزل جديد • وقد اتفقت مع ادارة « مناهاوس » لنقيم فيه ريثما يتم الاصلاح •

واغتبطت بما سمعت ونزلنا مناهاوس • وكم سعدت بأيام مقامى هناك ، وان شقيت بعد ذلك بعقباتها • كان زوجى يستيقظ مبكرا ويتناول فطوره فى غرفة الطعام ويذهب الى عمله ، فاذا أردت الذهاب الى المدينة لبعض شئونى أو لأرى ماتم فى منزلنا الجديد طلبت السيارة فأقلتنى الى حيث أشاء ثم عدت بها مع زوجى الى الفندق • وكنت قلما أغادر مناهاوس بعد الظهر ، الا أن نجيب دعوة الى الشاى أو العشاء فى المدينة • وكان كثيرون من أصدقائنا يزوروننا بالفندق • وكنت أشعر فى بعض الايام بالتعب ، فلا أرى بأسا من أن أستقبل فى غرفة نومى أية صديقة تحضر لزيارتى ، فاذا كان معها زوجها لم أر بأسا بأن يصحبها الى غرفة النوم • واضطر زوجى الى قبول هذا الوضع حين ذكرته بأنه كان يصحبنى أحيانا فى زيارة الامريكية ونحن فى أوروبا • واقتضانى هذا الوضع أن أحاكى الامريكية فى زينة سريرى ، وقد جعلت من غرفة نومى بهو

استقبال يحضراليه الرجال معزوجاتهم ، وان لم أكن قدتسامحت بعد فى أن يصعد اليه الرجال وحدهم .

وكان الاصلاح يسير فى منزلنا الجديد ببطء شديد . ولعلى كنت مسئولة بعض الشيء عن هذا البطء . وقد تخطت مسئوليتى البطء الى نفقات الاصلاح . ذلك أننى قدرت أن هـذا المنزل سيكون مسكنا لنا سنوات عدة ، ويجب لذلك أن يبلغ الاصلاح غاية ما يرضينا . لذا كنت لا أقر الكثير مما قاموا به وسموه اصلاحا ، وكنت أطلب اعادة العمل على الوجه الذى أستريح له . فاذا قيل لى أن الدائرة لايمكن أن تتكفل بهذا قلت : « لايهم . نفذوا ما أطلب على نفقتنا » . وتحدث الى زوجى يوما أنا ندفع أجر المنزل من أول أكتوبر ، أى منذ عدنا من أوربا ، وندفع أجر الفندق وملحقاته ، وندفع نفقة ما أطلب من اصلاح لاتلتزم الدائرة به ، وأن فى ذلك ارهاقا لنا طال أمده . قلت : « فيم اذن كان تفكيرك فى انتقالنا الى مسكن جديد اذا كان هذا المسكن لايرضى ذوقنا . لقد كان خيرا لو بقينا فى مسكننا القديم اذا لم نشعر نحن ولم يشعر الناس جميعا بالفارق الكبير بين السكنين . وسيتم الاصلاح عما قريب وتنتهى نفقاته ونفقات الفندق وينتهى بذلك ما نشكو منه » . وسكت زوجى ولم يعقب بكلمة . ويومئذ شعرت بأنه رجل عاجز الحيلة . فليس يضيق بأمر المال فى رأيى الا الذين يعوزهم الاقدام . فان من معارفنا من كانوا يتطلعون الينا أول زواجنا على أننا من الاغنياء واسعى الثراء ، ثم اذا هؤلاء المعارف يصبحون باقدامهم من أصحاب الألوف ، بل من أصحاب الملايين . والعجز عن الاقدام نقص وأى نقص .

لم يعقب زوجى بكلمة على مراجعتى فى هذا الامر ، ولم يفاتحنى من بعد فيه . ولعله استشف مادار فى خاطرى أو شعر من ناحيتى بأننى لست راضية عنه كل الرضى على نحو ما عودته . فقد رأيته مشغول البال ، بادى الهم ، كثير الأرق ، وان لم يتغير فى صلته بى

عما عودنيه من مودتي والاستجابة لكل رغباتي • وهو لم يكن يستطيع أن يتغير • فقد كان يحبني ، وكان يخشى أن أتغير أنا عليه بعد الذى رآه من اعجاب المعجبين بى واذعانهم لسلطان جاذبيتى وسحر حديثى • والواقع أننى شعرت بعد الذى رأيته من همه وأرقه ، بأنى أبالغ فى محبتى له واكبارى اياه ، لانه لايجارينى فى طموحى ولا يحاول أن يصعد بى ومعى الى الصف الأول من صفوف الحياة فى مصر •

وتمت الاصلاحات فى منزلنا الجديد وانتقلنا اليه ، وان بقيت فيه أشياء لم تنل كل رضاى • وأردت لمناسبة هذا الانتقال أن أقيم حفلة ساهرة كبرى فاعترض زوجى بأن مألوف عاداتنا المصرية لايسيغ مثل هذه الحفلات ، واقترح ان شئت أن أقيم حفلة شاى يتحقق بها غرضى • ورأيت حفلة الشاى دون ما ترضاه نفسى فأبيت ولم أقم أيا من الحفلتين • وكذلك تم انتقالنا فى صمت جنائزى ، كما أنى لم أستطع أن أبلغ كل ما أريد من تجديد أثاثنا لينسجم على ماأريد مع الدار الجديدة بعد اصلاحها •

على أننى عنيت بتأثيث غرفة النوم عنايتى بزينتى فى سريرى • فقد أدركت ابان مقامى بالفندق ما لهذه الغرفة من سحر وصاحبتها فىسريرها ، وفهمت لماذا كانت صاحبتنا الامريكية فىأوربا تؤثرها على كل ماسواها من أبهاء الفندق الفخم وصالاته • واصطناع المرض أو التعب الذى يلزم الانسان سريره لايشق على امرأة • هماعندها كالدموع تلين بهاقلب الرجل وتكسببها عطفه ومودته• وغرفة النوم أشد اثارة لطلعة السيدات وأدعى لثرثرتهن من غرفة الاستقبال ومن كل غرفة أخرى فى المنزل •

وقد أرضانى أثاث هذه الغرفة بعد تمامه ، وكان زوجى أشد سحرا به لانه كان أعلم بأسراره اذ ذاك من كل من سواه •

وكانت كل واحدة من صديقاتي تزور هـذه الغرفة تبدى من الاعجاب بها مايزيد رضاى عنها • أما أزواج صديقاتي الذين كانوا يصحبونهن فكان نظرهم يدور فى أرجاء الغرفة دورة خاطفة ليستقر آخر الامر على السرير وزينته •

كان الصديق الذى عهـد اليه زوجي بالاشراف على اصـلاح المنزل أثناء غيابنا فى أوروبا ، والذى انقطع عنا أو كاد حين عرف رأيى فى الاصلاح الذى تم باشرافه ، قد بالغ فى انقطاعه منذ انتقلنا الى المنزل ، فلم يحضر الينا فيه الا فى زيارة تقليدية لتهنئتنا بالانتقال • وكان هذا الصديق غير متزوج • وكان بطبعه سريعا الى رفع الكلفة كثير فلتات اللسـان • وكان الى ذلك ظريفا حاضر النكتـة حسن الاصغاء • وكان مابينه وبين زوجي من صداقة قديمة وود متصـل قد جعل زوجي يضيق بانقطاعه عنا وعدم تردده علينا • وقد قال لى يوما وكأنه يعـاتبني : « لقد أوحشني انقطاعه عن زيارتنا ، ولم تحسني أنت جزاءه عن اشرافه على الاصلاح للمنزل أثناء غيابنا • ولعله يخشى أن يسوءك مجيئه الينا » • قلت : « عجبا لكما أنت وهو • انني لم أزد على ابداء رأيي فى الاصلاح الذى تم فى غيابنا • ولم يدر بخاطرى أن يستاء صديقنا من هذا الرأى حتى ينقطع عنا • وانه ليسرني أن يعود الى سـابق مودته ، وليسرني أن يبـدى رأيه فى المنزل بعد اصلاحه الاخير • وتستطيع أن تؤكد له أنني لن أضيق بملاحظاته ولن أغضب منه اذا أبدى من النقـد أشـده • فالاذواق تختلف ولا يدل اختلافها على شيء يسوء صاحب هذا الرأى أو ذاك »

وألح زوجي على صديقه فجاء يوما معه • فلمـا فرغ من شرب القهوة قلت له : « الآن تفضل ودر فى أرجاء المنزل وقل لى رأيك فى صراحة فى اصلاحه » • قال فى تهكم : « وهل لمثلى أن يبـدى رأيه فيما يتم باشرافك أنت يا صـاحبة الذوق السليم » • قلت : « لا يسوءني أن تتهكم بى ولا أن تنقد عملى ، ولكني حريصة على أن

أعرف رأيك » ، فقام بعد تمنع ودار معى فى أرجاء المنزل • فلما أتم زيارة الطابق الاول قال : « وهل كانت الدائرة تسمح لى بأن أنفق ما أنفقتم أنتم ليبلغ الاصلاح هذا المدى ! •• والآن أفهم شكوى زوجك من باهظ النفقة • أنت جبارة لاتخافين الله • لقد كان خيرا بدل أن بعثرت مابعثرت فى اصلاح هذا المنزل أن تشتروا منزلا جديدا يبقى لكم ولأولادكم من بعدكم • » قلت مبتسمة : « لعلك قلت هذا الكلام لزوجى فكان ذلك سبب تغيره على ؟! » فنظر الى نظرة خبيثة وقال : « زوجك يستطيع أن يتغير عليك ! مسكين هذا الرجل • لقد كبلته من عنقه ومن يديه ومن رجليه فأصبح لا يستطيع حراكا أمامك • انه يوم حدثنى فى شأن الاصلاح وما أنفقت فيه استحلفنى بقبر أبى ألا أذكر من حديثه حرفا • ولولا غيظى منك لبررت بوعدى له » • قلت : « ألا تصعد الى الطابق العلوى • لقد عنيت به أكثر من عنايتى بهذا الطابق الذى يزورنا الناس فيه ، فالطابق العلوى هو عشنا الحقيقى • هو سكننا بالليل والجانب الاكبر من النهار • هو ملجؤنا من أعين الناس وطلعتهم • ولهذا أخالف الذين يبذلون النفقة ارضاء للناس وخوفا من ألسنتهم ولا يبذلونها ارضاء لأنفسهم ومتاعا بحياتهم • »

قال : « ألم أقل أنك جبارة لا تخافين الله • اذا كانت نفقة هذا الطابق قد بلغت ما أرى وكنت قد ضاعفت العناية بالطابق الاعلى فأى نفقة كلفتكم هذه العناية » • قلت « دعك الآن من النفقة وقل لى رأيك فى الاصلاح» • وصعد معى الى الطابق الثانى فلما دخل غرفة النوم الفسيحة ودار بنظره فى أرجائها فتح عينيه واسعتين وقال : « هذه غرفتك أنت أم غرفة مدام ركامييه ؟ • أقسم أن غرفة زبيدة الملكة زوج هارون الرشيد لم تكن فى جمال غرفتك هذه وابداعها • الآن أعترف أن ذوقك لايعلوه ذوق • ولو أن الاقدار كانت منصفة لوجب أن تكونى من أصحاب الملايين حتى لايقف فى سبيل ذوقك

الجميل عائق » . قلت فيما بيني وبين نفسي : « ترى ماذا عساه كان يقول لو أنه دخل هذه الغرفة وأنا في زينة سريري» . وشرد ذهني لحظة حين كان هو يتفقد كل قطعة من قطع الغرفة ويقف أمامها هنيهة . فلما عاد الى ناحية الباب حيث كنت أقف قال : « كل ماهنا بديع بارع . لكن هذا لايمنعني من أن أقول لك أنك ظلمت زوجك في النفقة ظلم الحسن والحسين » .

ضقت ذرعا بتكراره عبارة النفقة وظلمي زوجي فقلت : « وهل يضيق بأمور المال رجل ذو همة وذكاء ؟! انما يقعد العجز بصاحبه عن الاقدام لبلوغ مايريد ! وهل أمطرت السماء ذهبا على من تعرف ممن جمعوا مئات الالوف بل الملايين ، أم أن اقدامهم وحسن حيلتهم هما اللذان نصبا للمال شباكه فصادته وكانوا قبل ذلك فقراء لم يرثوا عن أهلهم ماورث زوجي عن أبيه . معذرة عن كلامي هذا . لكنك أكثرت الحديث عن النفقة واسرافي فيها . وقد حملت ماقلته أول الامر على أنه اعتذار عن عدم بلوغ الاصلاح مايرضيني حين اشرافك عليه . أما الآن فاني أشعر أن زوجي يكرر عليك الكلام فيه ولكأنه يوجه الى الاتهام بشأنه . وأنا انما أردت أن يعيش كما يجب أن يعيش . فان كنت أسرفت في حسن ظني به فاستغفره لي وقل له اني تبت لعله يقبل توبتي . »

قلت هذا الكلام في حدة روعت الرجل فقال : « مهلا مهلا ! لا تسرفي في التثريب على الرجل الى حد اتهامه بالضعف والعجز . ان أولئك الذين تذكرين ممن تصيدوا الملايين لم يتصيدوها في عام ولا في بضعة أعوام . وزوجك اليوم أعمق تفكيرا في التحايل على المال منه في الغضب منك أو في اتهامك . انه يريد ارضاءك . ارضاءك بكل وسيلة لاتخدش شرفه ولا تؤذي سمعته بين الناس . ولست أدري أيستطيع انسان أن يجمع بين المال والشرف وحسن

السمعة . لكن تصيد المال هو مايشـــغل زوجك الآن ارضـــاء لطموحك . ولعلى لو كنت مكانه لما صنعت صنيعه ولوقفت فى طريق اندفاعك ابقاء على نفسى من الانزلاق فى سبيل لايغامـــر بالانزلاق اليها الا الذين لايعنيهم شيء ، فان تحقق ماغامروا فى سبيله ارتفعوا بثروتهم الى السماك ، وان لم يتحقق ظلوا فى القاع الذى يحاولون الخروج منه » .

وخشينا كلانا أن يسرقنا الوقت الى مايثير هواجس زوجى من بطئنا ، فلما رآه صديقنا قال له : « هنيئا لك ياصديقى هذا المنزل الفخم ، بل القصر المنيف . لم أكن أتصور أن يخلق الاصلاح من تلك الدار التى رأيت أول الصيف هذه التحفة التى أرى الآن .» ثم التفت الى وقال : « وأنا أهنئك ياسـيدتى . لقـد محـا اعجابى بذوقك كل غضب أثاره فى نفسى عدم رضاك عن اشرافى . وهو اعجاب لا حد له . ولو أن أصحاب هذه الدار كانوا أهل ذوق ومروءة لاحتملوا نفقات هذا الاصـلاح كلها . وأنا مسـتعد لأن أخاطبهم فى ذلك وأحملهم ماأستطيع منها اذا لم يكن لكما على تدخلى اعتراض » .

وشكرناه وقلنـا له انا لا اعتراض لنا على تدخله . والعجب أنه لم يمض على حديثنا فى الأمر غير ثلاثة أيام ثم اذا هو يحمل الينا النبأ بأن الدائرة قبلت أن تتحمل نصف ما أضيف علينـا من نفقات الاصلاح . وشعرت كأن زوجى انتشل من وهدة لسماع هذا النبأ السار . واغتبطت أنا كذلك . ولكن هذه الفرحة التى بدت على زوجى جعلتنى أشفق عليه لعجزه عن أن يفعل ما فعله صديقنا ويحمل الدائرة على ما حملها هذا الصديق عليه ، وكان هو أحرى بهذا وهو صاحب الشأن الأول والمصلحة المباشرة . ولو أنه فعل لرفع عن عاتقه هما وأرقا كاد أثرهما يسيء الى صحته،

وعاد صديقنا سيرته الأولى من مودتنا والتردد علينا ، وعاد يعابث زوجى بفلتات لسانه .. ويعابثنى أحيانا كذلك . ولم يكن زوجى يجيب معابثته الا بالسخر منه وعدم الاكتراث لعبثه . وكان هذا الموقف وذاك من جانب الرجلين طبيعيا . ولكم عجبت كيف جمعت الصداقة بين طبعين مختلفين هذا الاختلاف . فزوجى رزين شديد الاتزان يقدر كل كلمة يقولها ويبالغ فى احترام النـــاس احتراما لنفسه . وصديقنا على النقيض يلقى الكلام جزافا ولا يعبأ بمظاهر الاحترام . وزوجى شديد الحياء الى حد أضيق به أحيانا ، وصديقنا يجد الحيـــاء ســـخفا لا معنى له . وزوجى ودود متخفف مع ذلك فى وده . وصـــــديقنا مسرف فى الود سريع مع ذلك الى المغاضبة . ولكن صداقة الرجلين اتصلت منذ كانا طالبين معا فى المدرسة الثانوية ، وصداقة الصبا قل أن يعدو عليها الزمان وان أمكن أن يعدو عليها النسيان .

وكان صديقنا يعرف صديقتى التى مات زوجها منذ عامين فطمع أهله فى تركته ومنعوها وذريتها الضعاف من الاستيلاء عليها أو على إيرادها . وكان صديقنا كذلك صديقا لزوجها ولأمها ، وكان فيما يخيل الى معجبا بجمالها وبطبعها . وقد كان زوجها شديد الغيرة عليها ، وكان يعرف فى طبعها خفة لا تؤذى وفاءها وعفتها، ولكنها تؤذى غيرته ، ولذلك انتقل بها الى الضواحى وسكن معها فيها ومنعها من أن تنزل الى المدينة الا باذنه وفى رفقته . فلما مات عادت الى القاهرة وأظهرت من الحزن عليه مارق له قلب صديقنا وفاء للزوج المتوفى ، واعجابا بالزوج الأرمل . ولقد عرف بعد قليل ماتضطرب فيه هذه الزوج الارمل من مشاكل ميراث مع أهل زوجها لا قبل لها وحدها بحلها ، فتبرع مشكورا لمعاونتها واضطر من أجل ذلك أن يكثر التردد عليها . واقتضت هذه المشاكل مشورة طبيب فأشرك صديقنا زوجى معه فى مهمته .

ولم يبد زوجي بادىء الامر حماسة لهذه المعاونة لولا أن دفعته أنا اليها • وقد أدهشني تباطؤه عن المبادرة الى عمل انساني يتفق مع طيبة قلبه وحبه الخير للناس • وزادني دهشة أنه كان يعرف صديقتي في حياة زوجها ، وكان يتردد عليها لعيادتها ، ولعيادة أطفالها ، ثم كان يحدثني عنها حديثه عن أي مريض أو مريضة يعوده أو يعودها ، ولم يبد من مظاهر الاعجاب بجمالها مايريبني •• لكنه لم يلبث بعد حين من مشاركته صديقنا في معاونتها أن ازدادت حماسته لهذه المعاونة ، حتى بلغت أشدها،وأن صار يتحدث عنها وكأنه يقوم بعمل يمس قلبه بل يحركه •• فماذا حدث ؟ •• أتراه أذعن لفتنتها فصار يبدي لميراثها ولميراث أبنائها كل هذه الحماسة !؟ •• ثم انه أخذ يتردد عليها في بيت أمها العجوز الشمطاء ، وهي في غير حاجة لطبه وعلاجه •• فهل تراها تنصب له شباكها ليقع في حبائلها ؟•• هنالك بدأت الغيرة تدب في صدري ، وان حرصت على ألا يبدو من أثرها على أي مظهر ، وبدأت أفكر كيف أستعيد هذا الرجل خالصا لي كما كان •• ولم يكن دافعي الى هذا التفكير محبتي اياه بقدر ماكان الدافع اليه غيرتي ونفوري من أن تأخذ امرأة مني رجلا ملكته يدي وأصبح طوع يميني ، فصار لايستطيع حراكا بغير ارادتي •

واستخلصت صديقتي ميراثها بمعونة زوجي ومعونة صديقنا ، وأصبحت بذلك في سعة تسمح لها أن تنهض بحياتها وحياة أولادها في رخاء ونعمة ، فأقامت في مسكن اختارته لنفسها ، ولم يكفها أن تذهب الى الاقصر في الشتاء لنزهتها • بل كانت تصطاف في أوربا وتقضي في ربوعها شهور متاع ومرح ومسرة •

ولم ينقطع زوجي عن التردد عليها بعد أن استخلصت ميراثها ، ولم تنقطع هي عن زيارتنا رغم قلة زيارتي بيتها •• وكانت غيرتي

تزداد لذلك ضراما ، وكنت أومىء الى زوجى أن الناس يتحدثون فى تردده عليها ، فلا يأبه لهـذا التلميح ، مكتفيا بقوله : « مادمت واثقة بى مطمئنة الى فان كلام الناس لا يعنينى » . وكانت كبريائى تأبى على حين أسمع منه هذا القول أن أخبره بمكنون صدرى ، وان استبد بى التفكير فى التماس الوسيلة للتخلص من هذه المرأة ومن تردد زوجى عليها . وانى لأقلب هذا الامر على وجوهه اذ أخبرنى زوجى أن الالمانى الذى عرفنا فى الاقصر قد جاء الى القاهرة ، وأنه تحدث اليه بالتليفون ، وأنه دعاه لتناول الشاى معنا . قلت : « اذن فادع صديقنا لنحدث التعارف بينهما ، واذا لم يكن لديك مانع فادع كذلك صديقتى فانه يسرها لاريب لقاء الالمانى بالقاهرة ، بعد أن تلاقيا طويلا بالاقصر .. » ولم يجد زوجى بأسا بدعوتهما فكدت أطير من الفرح مؤمنة بأن الحظ الذى جاء بالالمانى الى القاهرة فى هذا الوقت لابد مسعدى فى تفكيرى .. وستتمخض هذه المصادفة الطيبة عن نتائج أرضاها .

وجاء المدعوون ساعة الشاى ، وأقبل على الالمانى يحيينى وتكاد عيناه لاتنظر لغيرى . وكانت أول عبارة قالها .. « لم لم تحضرى الى الاقصر هذا العام ياسيدتى ؟ ان جميع معارفك والمعجبين بك كانوا يسألون عن موعد مجيئك بشغف ليس كمثله شغف .. سلى صديقتك .. لقد عرفت من ذلك ماعرفت .. وأظنها أبلغتك تحياتهم واحتراماتهم » .

لم يثر هذا الكلام من صديقتى أى صدى ، بل تشاغلت عن الاصغاء اليه بالحديث الى زوجى والى صديقنا . وزادنى ذلك اقبالا على الالمانى وترحيبا به وعملا على أن أصل الحديث بينه وبين سائر الحاضرين .

لم توجه صديقتى الى الالمانى أثناء الشاى الا كلمات متقطعة .

لكنها كانت المودة مع زوجي كل المودة • وكانت تلتهم صديقنا بعينيها التهاما ، وتكاد تأكله بهما أكلا • وكان صديقنا يجاهد لكي لايغيب عنا مسحورا بهاتين العينين الفاتنتين ، زانهما حور زاده الكحل الرقيق سحرا وزاد صاحبته فتنة • وكانت صديقتي تعرف سحر عينيها وتعرف كيف تزيد نظراتهما فتنة وسحرا • ومع ذلك جزى الالمانى صدها عنه بالاقبال علي وتوجيه الحديث كله الى الا عبارات كان يبعثرها هنا وهناك حتى لايحسب زوجي أو صديقنا أنه نسيهما لفرط اشتغاله بي •

فلما فرغنا من الشاي قلت •• « ألا تريد أن ننزل الى الحديقة» قال : بكل سرور •• فدعوت صديقنا وتخطيت مع الرجلين غرف الطابق الاول ونزلنا من السلم الخلفي الى حديقة الدار •• أما صديقتي فقد اعتذرت وآثرت المكث حيث هي ، واضطر زوجي للبقاء في صحبتها • ولم تطل دورتنا في الحديقة •• فلما عدنا منها قال الالمانى موجها الكلام الى زوجي •• « ماأجمل داركما •• ان براعة الذوق في نظامها وتنسيقها لتنطق بأن السيدة قد بثت فيها من روحها بعض ماتنطوى عليه من تناسق وجمال •• » وشكره زوجي ، ثم ودعنا ضيوفنا وأوصلناهم الى الباب الخارجي •

فلما خلوت الى زوجي قلت له •• « مارأيك في أن ندعو الرجل للعشاء غدا •• انه ينزل في فندق الكونتننتال •• وليس أيسر من أن تحادثه بكرة الصباح تليفونيا ، وما أحسبه الا قابلا دعوتنا » •• وأجاب زوجي في هدوء مصطنع لايتفق مع الفاظ عبارته : « ألم يكفك أني دعوته اليوم للشاى ارضاء لك • أنت تعلمين ، كما أعلم ، انه لم يخاطبني في التليفون حين جاء الى القاهرة حرصا على مقابلتي ، بل حرصا على مقابلتك أنت • فاذا دعوناه للعشاء غدا أثار ذلك حديث أصدقائنا حولنا • ولا أحسبك

تغتبطين بأن يذيع هـذا الحديث .. » .. قلت وأنا أكظم فى نفسى سرورا كادت تلمع به عيناى : « وماذا عسى يستطيعون أن يقولوا ؟. هذا رجل مسافر بعد غد الى بلاده فى أوربا ليقيم بها ستة أشهر أو تزيد ، وقد أكرمنى فى الاقصر العـامين الماضيين ، فلا عجب أن تكرمه بمناسبة مروره بالقاهرة .. وأنا مع ذلك لاألح عليك فى دعوته ، وان كنت أعجب لـكلامك عن حـديث النـاس وكأنهم لايتكلمون اليوم عنا لمبالغتك فى العناية بصديقتى . ولو أنك عرفت مايقولون لمـا ذكرت حديثهم فى دعوة بريئة لرجل أكرمنـا من قبل . وأكرر أنى لاألح فى دعوته ، بل أعتذر اليك وأرجوك أن تنسى أنى طلبتها » .

وتلجلج زوجى حين سمع هذا الكلام وكأنما طعنته فى صدره. فوجم هنيهة ، ثم قال : «يغفر الله للذين يتحدثون عنى . انما دفعتنى للعناية التى تذكرين عاطفة نبيـلة لاطفـال ماأحوجهم الى ميراث أبيهم ، وللعطف عليهم . أما أمهم فلا شأن لى بها ، ولا شأن لها بى الا أن تشكرنى على العناية بأطفالها . وصـديقنا هو المعنى الاول بالامر ، وهو الذى يحفزنى كلما ظن أنى بحاجة الى حافز لمضاعفة عنايتى . وقد لاتعلمين أن صديقنا يفكر فى الزواج من هذه السيدة أو أنها هى التى تفكر فى الزواج منه » .

كنت أسمع أحاديث عن هذا الزواج وكنت فى ريب منها . فلما أكدها زوجى كنت كمن فوجىء بها . والعجيب أنى شعرت حين تحققتها كأن صديقتى تخوننى ، وفكرت لذلك فى افساد ذلك الزواج الذى تعتزم . كيف نبت هذا الشعور فى نفسى وصديقتى مخلصة فى مودتها لنا ، ولا جناح عليها وهى أرمل أن تفكر فى الزواج ، ولا حق لى وأنا متزوجـة أن ألومهـا فيه ؟ ولم أكن أحسب أن بينى وبين صديقنا عاطفة تسوغ مثل هذا الشعور ..

لاجواب على هذه الاسئلة ، ولكن ذلك ماحدث •• وسرعان ماترعرع هذا النبت فحرك شجوني وأنساني الالماني ، وأنساني زوجي ، وأنساني حديث الناس ، وجعلني لاأعني بشيء الا بافساد هذا الزواج •

ولطالما فكرت من بعد : أي داع دفع هذا العزم الى نفسي ؟ • وكل ماهتديت اليه بعد طول البحث والتحليل أني كنت أجد في زيارات صديقنا وأحاديثه متعة أستعين بها على الملال ، بل أسعد بها في الساعات الطويلة التي كان العمل يشغل زوجي أثناءها ، وأن عقلي الباطن أوحى الى أن زواجه بهذه المرأة سيشغله عني ويأخذه مني • ومن يدري ، فلعلها يوم تتزوجه تجعل من دارها ندوة يأوي اليها زوجي فتتم بذلك عزلتي ، ويصبح انتصار هذه الفاتنة اللعوب على حاسما يحطم كبريائي ويمرغه في التراب ! فاما أن استطعت افساد هذا الزواج فسيبقى صديقنا يؤنس وحدتي ، ويبعث المسرة الى قلبي ، وسأجد في أحاديثه مسلاتي ، بل هناءتي ، وسيبقى منزلي مقصده ومقصد زوجي • هذا ماهتديت اليه من بعد ، تفسيرا لعزمي على افساد هذا الزواج •

وأحكمت يومئذ تدبيري ، فتمارضت ولزمت سريري • وكنت اذا أصبحت وخرج زوجي الى عمله تزينت للسرير أجمل زينة وأشدها اغراء ، وبقيت به طيلة النهار واستقبلت زائراتي وأزواجهن في غرفة نومي • وجاءني زوجي غداة اعتكافي وأخبرني أن صديقنا يستفسر عن صحتي وأنه في بهو الاستقبال • قلت : «لو أن صديقتي كانت هنا لما رأيت بأسا باستقبالهما في غرفة النوم ماداما يعتزمان الزواج» • ولم أعجب حين رأيت صديقتي تجيء الغداة ومعها صديقنا ويصعدان معا الى وأنا في سريري • وبعد برهة قامت صديقتي بحجة أنها تريد محادثة زوجي في بعض الشئون

المتعلقة بأبنائها • فلما خلا الجو لصديقنا قال:« أشكرك على السماح بزيارتك وأنت فى هذه الزينة البارعة • لقد ضاعف وجودك هنا من جمال هذه الغرفة وزادها سحرا » • قلت : « دعك من هذا الحديث فأنا متعبة لاطاقة لى بسماعه • وأين جمال هذه الغرفة وساكنتها من جمال عروسك وسحر عينيها الفاتنتين ، فلا تكادان تنظران الى رجل حتى يخر على قدميه ساجدا » • وسكت لحظة ثم قلت : « اننى هدنى التعب والمرض • وأنا أشكرك لتفضلك بالسؤال عنى » • قلت هذا وصحبته بابتسامة حار فى دلالتها ، أهى التهكم أم الصدق أم مجرد الاغراء • ونظر الرجل الى بعينين واسعتين وقال : « ياماكرة ! أمتعبة أنت حقا أم تريدين أن تتعبى من يزورونك هنا لانهم لايستطيعون الامساك عن التفكير فى صورتك الجذابة وفى الاطار البديع الذى أحطت نفسك به » •

وعادت صديقتى فأمسكنا عن الكلام • على أن صديقنا عاد الغداة مع زوجى وصعد معه الى غرفة نومى ، وقد أقنعته سرعته الى رفع الكلفة بأنه لم يبق مايمنعه من زيارتى فيها • وابتسمت فيما بينى وبين نفسى لنجاح الخطوة الاولى من خطتى • فلولا أننى أذنت بصعوده الى مع صديقتى لبقى كارها فى تحفظه • ورآنى حين دخل الغرفة فى زينة غير التى رآها لامسه فانتهز فرصة خرج فيها زوجى لبعض شأنه وقال : « ماأجمل المرض فى هذا السرير » قلت : « ومالك أنت وذاك وأنت موشك أن تتزوج • احتفظ بمثل هذه التحيات لتقولها لاهل بيتك •• متعك الله فى الحياة الجديدة التى تنتظرك • وأرجو يومئذ ألا تنسيك هذه الحياة أصدقاءك » •

وبعد هنيهة سألته : « ما بال صديقتى لم تحضر معه كما فعلت أمس وهى تعلم أننى متعبة » • قال : « مررت بها فألفيتها غادرت

منزلها ولم تذكر لخادمها أيان ذهبت • وسألت عنها فى بيت أمها فلم أجدها هناك » •

كنت أعرف فى هذه الصديقة خفة تستسيغ معها أن تصحب المعجبين بها الى نزهات خلوية • وكنت أعرف من أقاربى شابا جميل الطلعة يتودد اليها مسحورا بجمالها وبفتنة عينيها • وقد شجعته هذه الفترة الاخيرة على مصاحبتها • وعلمت فى هذا اليوم أنهما سيخرجان لنزهة على طريق السويس بعد مصر الجديدة ، فأوحيت الى صديقنا أن يذهب الى هذه المنطقة فاذا صادف قريبى هناك فليبعث به الى لأمر هام أريد أن أحدثه فيه • ولم يجد صديقى بعد زياراته الاخيرة اياى فى غرفة نومى مفرا من أن ينزل على رغبتى • وبعد الغروب عاد الى وعيناه تقدحان الشرر وهو يقول: « أهنئك ياسيدتى بنجاحك فى افساد هذا الزواج وأشكرك • لقد رأيت قريبك مع صديقتك داخل السيارة فى جوف الصحراء وهما فى وضع لا أستطيع أن أصفه » • قلت : « هون عليك يا أخى ! فقد حملنى الوفاء لصداقتك على أن أتيح لك فرصة ليس يسيرا أن تتاح لانسان • فان كان قد ساءك مافعلت فلى من حسن قصدى عذير » • قال : « ولكنك قاسية وكان حسبك أن تنبهينى» • فقلت : « اننى أردت أن ترى بعينيك مالا تستطيع أن تصدقه حين تسمعه » فأطرق اطراقة طويلة ثم ارتمى على مقعد وكأنما ترقرقت فى عينيه دمعة وقال : « شكرا لك أن أزلت عن ناظرى غشاوة حجبت عنى خطرا داهما • » وبعد برهة ودعنى وانصرف •

أما صديقتى فلم تخاطبنى ولم أخاطبها بعد ذلك اليوم • ولم يكفها أن قاطعتنى ، بل ذهبت تذيع فى كل صالون وفى كل ناد وفى كل مجتمع فى المدينة أنى أحب صديقنا ، وأننى أريد أن يطلقنى زوجى لأتزوجه ، وأن الغيرة دبت فى نفسى منها منذ عنى زوجى

بشأنها واهتم بميراث أطفالها • وقد كان عذرها فى مهاجمتى أنها تدافع عن نفسها • فقد أخبرنى قريبى الذى كان معها فى السيارة فى الصحراء أن صديقنا فاجأها وهو ممسك يدها بين يديه ، وهى ملقية رأسها على كتفه ، وأنها حين رأت صديقنا سحبت يدها من يديه وصفعته على وجهه قائلة : « أو بلغ من سفالتك أن تدبر مع قريبتك هذا الموقف المشين يا نذل » ، وأقسمت أن لن ترانى ، وأنها ستفضحنى • وكان مما قالته له والسيارة تعود بهما أدراجهما : « لماذا تدليتم الى هذا الحضيض يا أحط من خلق • هل أخذت منها زوجها ؟ لقد كان فى مقدورى أن أفعل • فأنا أجمل منها ألف مرة • ولكنى حفظت عهد الصداقة ورعيت ما بيننا من خالص الود • هل أخذت منها الالمانى فى الأقصر ولم تكن تراه الا على مائدتى فى ونتر بالاس ؟ واذا كانت تعشق هذا الذى كنت أريد أن أتزوجه فلماذا لم تخبرنى فأدعه لها وألقيه صاغرا تحت أقدامها ؟ أم حسبت أننى أنافسها فى محبته فتآمرت معك هذه المؤامرة الدنيئة ! ان يكن ذلك ظنها فهى مخطئة • انه رجل ماجن ، ولكنه أظهر صدق الاخلاص اثر وفاة زوجى وعمل جهده لمعاونتى على استخلاص ميراث أطفالى حتى استخلصه ، فقدرت له هذا الصنيع وأردت أن أجزيه عنه بالتزوج منه • فان كانت قريبتك قد ظنت رغبتى فى التزوج منه عشقا أو حبا فهى مخطئة • وليس بين الرجال من يستحق فى سنى أن أحبه ، وان كان منهم من يستحق أن أحترمه • ولست أنت ممن يستحقون الاحترام بعد أن انحدرت الى هاوية المؤامرة التى انحدرت اليها • »

قص على قريبى هذا كله غداة حدوثه واشتد فى لومى أن أوقفته هذا الموقف • وطمأنته بكلمات لم تزل غضبه • ولم يرعنى هذا الغضب وأنا أحسب أنى فى أوج انتصارى • لقد دبرت فنجح

تدبيري • وكنت أعلم أن نجاحي معناه القطيعة الحاسمة بيني وبين صديقتي ، وأن تدبيري لن يضير قريبي وهو شاب وسيم ومن حقه في نظر الناس جميعا أن يخرج للنزهة مع أي امرأة يغريها شبابه وجماله • فلن يروعني اذن أن ينتج عملي كل آثاره •

وانقضت أيام انقطع صديقنا أثناءها عن المجيء الينا حتى خشيت أن يكون قد خاصمني • وانني لفي غرفة زينتي اذ دخل علي زوجي متجهما صامتا ، فسألته مابه ، فقال : ان صديقنا مريض نزلت به الحمى منذ غادرني آخر مرة عائدا الى منزله ، وأنه قص عليه ماكان بين صديقتي وقريبي ، وأنه اليوم أحسن حالا • وسكت زوجي بعد ذلك طويلا ثم قال : « وقد سألته لم لم يدعني لعيادته لاول مانزل به المرض فقال أنه لم يرد ازعاجكِ • ولست أدري كيف سولت لك نفسك أن تقدمي على ما أقدمت عليه » • قلت : « لقد كنت أحسبك أكثر وفاء لصديقك وأشد حرصا على طمأنينته في حياته •• » قال : « أو قاصر هو لتنصبي نفسك وصية عليه » • قلت وقد بدأ هدوئي يزايلني : « وهل بلغ من حرصك على عواطف صديقتي وعلى رقيق مزاجها أن تلومني من أجلها • تزوجها اذن أنت ان كانت قد فتنتك ! لقد طالما حدثتني نفسي عن سر عنايتك بشأنها ، وطالما حاولت أن أقنع نفسي بأن انسانيتك وطيبة قلبك وشفقتك على أطفالها هي مصدر هذه العناية ! أما الآن فقد فضحت سرك واستبان لي خفي أمرك • اذهب فتزوجها أنت ان شئت • اذهب يا منافق » •

قلت عبارتي الأخيرة في ثورة غضب حاولت أن أكظمها فلم أنجح • وأبى كبريائي على أن أصيح لأنفس عن نفسي • واستلقيت منهدة في مقعدي وانهمرت الدموع من عيني وأخذت أبكي بكاء الطفل • وأراد زوجي أن يسكن روعي فدفعته عني

ملقية نظرى الى الارض لأنى كرهت أن أرى وجهه • ووقف الرجل قبالتى وانتظر حتى هدأ روعى بعض الشىء ثم نظر الى نظرة اشفاق وقال : « أولو كان بينى وبين صديقتك من الود ماتنزعجين له ، أفكنت أنظر مغتبطا لزواج صـــديقنا منها لينقطع الود بينى وبينها ، أم كنت أصنع صنيعك فأفســد هذا الزواج لتخلص لى ؟! لقد كنت أحسبك أوفر ذكاء من أن تضل الغيرة الحمقاء بصيرتك وتدفعك الى صنيع غير لائق بأمثالك » •

قلت وقد غالبت نفسى حتى ملكت ما اسـتطعت روعى : « أنت تتهم ذكائى وتحسب حجتك تقنعنى ! كلا ياســـيدى • انت تعلم كما أعلم أنها اذا تم زواجها بصديقنا فسيفتح هذا البيت أمامها على مصراعيه وسيكون لك من الحرية فى استدامة ودها أضعاف ما لك اليوم ، ولن أسـتطيع أنا يومئذ أن أقول شيئا • فتخـير ان شئت حجة أخرى أجدر بقدرتك على استنباط الحيل » • قال وقد كاد يخرج عن طوره : « يا عجبا ! أو بلغ الناس من الحطة أن يسلب رجل زوجة صديقه أو تسلب امرأة زوج صديقتها • ذلك أمر لايمكن أن يدور بخاطرى • وأنت فوق ذلك تعلمين أن لك عندى من المكانة ماكنت أحسبه يســمو بى عندك فوق كل شبهة • لقــد أصفيتك وأصفيت أولادنا حبة قلبى • فان كنت فى ريب من ذلك فالذنب ذنبك لا ذنبى » •

ثم انه أخذ بمجامع بدنى وجذبنى نحوه وضمنى اليه ليســكن من ثائرتى • ولم أستطع ازاء عطفه ورقته أن أتابع المعركة ، وان شعرت بأن شيئا بيننا قد تحطم ، وأن حياتنا الهانئة الهادئة قد أسدل عليها ستار كثيف •

وبعد أيام جاءنى صديقنا ولا تزال عليه آثار العلة • فلما رأيته امتلأ قلبى رحمة وشفقة وشعرت أنى أثمت فى حقه • فلما استقر

به المجلس وتناول بعض المرطبات قال : « جئت اليوم أسألك وأرجوك أن تجيبيني في صدق وصراحة . اني أعرف صديقتك منذ سنين ، وأعرف خفتها . لكنني لم أعلم أن هذه الخفة جنت قط على عفتها أو على وفائها لزوجها الاول . فهل تستطيعين أن تذكري لي بشرفك أنك تعلمين غير ما أعلم » . وأحسست من نبرة صوته أنه يريد أن يضعني موضع الاتهام فقلت : « وما شأني أنا بهذا ؟ . ان كنت تريد أن تتزوجها فلست أنا التي أمنعك من زواجها . انما دفعني الوفاء لصداقتك لنا على أن أفتح عينيك على ما أعرف . فان لم تجد فيما رأيت مايريبك فأنت أعلم بما يسرك وما يسوءك . وأنا لا أعرف عن صديقتي أكثر مما تعرف أنت عنها . وأنت كنت تعرف زوجها ولم أكن أعرفه ، وكنت تزوره يوم أسكنها الضواحي ولم أكن أزورها . فلا تسلني عما لا علم لي به . وأنت صاحب الشأن في زواجك منها بعد أن انقطعت صلتي بها » .

وتركني صديقنا وخرج . تركني حيرى أنعى مافرحت به من نجاحي وأنعى اخفاقي المشين وأنعى ماتحطم بيني وبين زوجي وأنظر الى المستقبل بعين كلها اليأس والأسى . والحقيقة أني لم أكن أعلم عن صديقتي رغم خفتها مايجرح عفتها . فأي شيطان دفعني الى ما أقدمت عليه وما نفر مني كل من أحب وضرب حولي نطاقا جعلني أدور حول نفسي في عزلتي كما يدور الحيوان المفترس الحبيس في قفصه .

أو لو تزوج صديقنا صديقتي رغم ما رأى فماذا يكون موقفي منه ، ومنها ، ومن زوجي ؟ واذا حدث ذلك ودعيت مع زوجي لحضور قرانهما فماذا أستطيع أن أفعل ؟ أأدعه يذهب وحده فيصدق الناس ما أذاعته من أني أحب زوجها وكنت أريد أن يطلقني زوجي لأتزوجه ؟ أم أذهب معه قطعا لألسنة الناس ؟ واذا ذهبت

فبأى وجه ألقاها ؟ مرت بخيالى أمثال هـذه الاسئلة المحرجة حتى ضقت ذرعا بها وحتى أظلمت الدنيا فى عينى •

وهب صديقنا لم يتزوج فهل تظل صلته بى كسابق عهده فى الايام الاخيرة اذ كان يزورنى فى غرفة نومى وأنا فى سريرى ، أم تراه ينقبض عنى ولا يلقانى الا بحضرة زوجى كما كان الحال من قبل ؟ وبأى وجه ألقى الناس فى الحالين ، حال اقبـاله وحال اعراضه ؟ فهم لا ريب سيقولون وسيعيدون ، ولن تفتأ صديقتى تذيع ثم تذيع لتجعلنى أحدوثة المجتمعات ، يتندر بقصتى المتندرون ويرثى لحالى الشامتون ، ويذهب من شاء مذاهب أيسرها أن الحب والغيرة دفعانى لأزدرى ماتقضى به المروءة وتفرضه الصداقة •

وعدت أسأل نفسى : « أى شيطان وسوس الى ما أقدمت عليه ؟ فلو كنت أحب صديقنا حب غرام وعشق لكان حبى اياه عذيرى عن مؤامرتى ، أو لكنت التمست وسيلة أخرى لارضـاء حبى • ولكنى لا أحس نحوه بنـار الحب المحرقة التى تبيح لمن تحب أن تفعل مافعلت • اننى أغتبط بمجلسه وبحسن اصغائه • لكنه ليس وحده الذى يتمتع عندى بهذه المنزلة ، بل أن غيره من أصدقائنا المهذبين المثقفين من أحب مجالستهم ، وأغتبط باصغائهم واعجابهم بحديثى • وان قل منهم من كان مثله كامل الرجولية جم الوفاء •

واذا لم يكن حبى صديقنا حب غرام دافعى الى فعلتى ، أفكانت غيرتى على زوجى ومخافتى أن تغصبه صديقتى منى هى هذا الدافع؟ لقد ابتسمت ساخرة حين عرض لى هذا السؤال • فزوجى آخر من تغـار امرأة عليـه • لقد تزوجته فرارا من زوج أبى ، ومن بيت أبى ، وتزوجتـــه طفلة غريرة لا أعرف شـــابا غـيره ، فأصفيته ودى ومنحته قلبى وشـعرت بأنه يبـادلنى حبـا بحب وودا بود • وربما دام شعورى ذاك لو أن الدنيا بقيت كما كانت

فلم أعرف رجلا غيره • لكنني ما لبثت بعد سنوات قلائل أن رأيته يحبني بحكم الواجب لا من أعماق قلبه ، ورأيت فى طبعينا تفاوتا ينأى بى عنه • فليس عنده من الطموح ماعندى ، وليست فيه رجولية العقل أو القلب ، أو أى من ألوان الرجولية التى تجعل المرأة تتعلق بالرجل وتفنى فيه • انه طيب بالغ الطيبة ، فيه صفات رب الاسرة العطوف الذى يبذل غاية جهده لارضاء أسرته • لكنه ليس بالرجل الذى يثير الغيرة لانه لايعرف الحب الذى لايرضى بما دون قلب المحبوب وعقله وروحه وجسمه ليملكها جميعا ملكا تاما مطلقا •

ما الذى دفعنى اذن الى مافعلت ؟ لا أدرى • وهأنذا أشعر الآن بأنى خسرت المعركة وأضعت كل شىء • أضعت حتى كرامتى وأذللت نفسى وكانت أعز من أن تذل لانسان • وهأنذا أشعر بالعزلة وكأنى من الحياة فى سجن مظلم • حتى أطفالى أشعر حين أراهم أنى غير جديرة بأن أقبلهم • لقد خاننى ذكائى فلم أقدر لكل هذه العواقب • اننى تعسة وليس على الارض امرأة أتعس منى •

واستوحشت حتى من نفسى فكنت اذا أقبل الصبح وخرج زوجى الى عمله ، خرجت أضرب فى الارض على غير هدى مخافة أن يسأل عنى أحد معارفى بالتليفون ، أو يسألنى من لا أعرف عما اجترحت ويؤنبنى عليه • فاذا كنت فى الطريق ورأيت الناس وتعرضت لضجة الحياة عدت الى نفسى بعض الشىء ابقاء على نفسى أن تدهمنى سيارة أو يرتطم بى انسان مشتت الذهن لانه لايجد قوت عياله ، أو آخر نزلت به كارثة اضطرب أمامها ولا يدرى كيف يتخلص منها • فاذا كان موعد الطعام رجعت الى الدار ألقى زوجى وأطفالى وأنا مضطربة الذهن خائرة القوى •

ودخل على زوجى بعد أيام والتأثر باد عليه وقال : « مسكين صديقنا . لقد انتكس ولزم من جديد فراشه يعانى من الحمى أهوالا . وقد دعانى صبح اليوم لعيادته فلما ذهبت اليه وفحصته تولانى القلق عليه . وسأعوده كل يوم مرتين لارى أثر الدواء فيه . والله يساعدنى . »

نزلت على هذه الكلمات نزول الصاعقة . ألا لئن أصاب صديقنا مكروه لأكونن الآثمة الجانية . وأردت أن أسأل زوجى ان كانت حياته فى خطر فتلجلج لسانى فى فمى وعز على أن يدور هذا الخاطر الاسود بخيالى . فلما أمسيت تولانى أرق اضطربت أثناءه بين اليقظة والاغفاء ، فاذا أغفيت رأيت صديقنا ترعده الحمى وسمعته ينادينى . وحين بدت تباشير النهار هببت من مرقدى كالمجنونة طائشة الصواب . وحاولت جهدى ضبط أعصابى فاذا بى أرتعد وكأن بى من الحمى ما بهذا الرجل الذى جنيت عليه . واستيقظ زوجى وتناول فطوره وذهب الى عمله وتركنى مستلقية فى غرفة أخرى وقد خيل اليه حين دخل ورآنى بهذه الصورة أنى أرقت ليلى ثم نمت وجه الصبح ، وأن من الخير لذلك أن يدعنى أستعيد بالنوم راحتى .

فلما استطعت أن أجمع قواى خرجت الى الطريق هائمة على وجهى . وجعلت أسير ثم أسير وأتلفت بين الحين والحين مخافة أن يرانى أحد معارفنا ، وكأنى سجين هارب من سجنه . وطال بى السير وأنا لا أعرف لنفسى غاية أقصد اليها . ورأيت نفسى بعد حين على مقربة من كوبرى عباس فملت اليه وسرت فوقه حتى توسطته . هنالك وقفت وأخذت أنظر الى صفحة الماء فى النيل .. أولو ألقيت بنفسى فى النهر فابتلعتنى لجته ، ألا تكون هذه الخاتمة خير جزاء لى ؟ .. مر هذا الخاطر بذهنى كلمح البصر ثم استقر

فى رأسى لايبرحها .. ولم آذكر لاول وهلة فجيعة أطفالى بموتى ، بل اعتبرته الوسيلة الوحيدة لنجاتى من الهم المقيم الذى جثم على صدرى منذ انقلب على انتصارى . وثبت نظرى على صفحة الماء فسحرت بهـا ولم أجد عن ادامة النظر اليهـا منصرفا . واننى لكذلك تزداد فكرة الانتحار تشبثا بنفسى اذ برق طيف الطفلين فى خيالى ، وكأنما ينادينى : « رحماك يا أماه » . هنـالك انهملت العبرات من مآقى وغامت الدنيا فى عينى واستندت بيدى الى حاجز الكوبرى ، ولم أعد أرى شيئا .

كم بقيت على هذه الحال ؟ ساعة أو أكثر أو أقل ! لا أدرى . وكل الذى شعرت به أن المارة كانوا ينظرون الى ثم يتخطوننى لشأنهم ولا يعنيهم أمرى . واننى لـكذلك اذ وقفت الى جانبى سيدة ربتت بيدها على كتفى ، فتنبهت فزعة ، فنظرت اليها فاذا هى زميلة قديمة من زميلات المدرسـة . فلمـا استيقنتها واستيقنتنى قالت : « مالك ياحبيبتى وماذا يبكيك ؟ اننى لم أرك منذ سنوات ، ولكنى سرعان ما عرفتـك . انك لم تتغيرى عما كنت عليـه أيام المدرسـة . لماذا تبكين ؟ هونى عليك فالحيـاة أهون من أن تذرفى عليها دمعة واحدة . أنظرى الى هؤلاء الذين يمرون الآن بنـا . أتحسبينهم أسعد منك حالا ؟ بل أتحسبينهم أقل منى ومنك هما وألما ؟ ان منهم من لايجد قوت يومه الا بشـق النفس ، ومنهم العاجز والمريض ومن أثقلته الاحزان والهموم . نعم ياحبيبتى ! ومن نظر الى بلوى الناس هانت عليه بلواه . فهونى عليك وكفكفى عبراتك وتعالى معى . »

قالت هذا الكلام ولم تنتظر منى جوابا ، بل جذبتنى من يدى وسـارت وسرت أتبعهـا كأنى طفلة ولا تكاد قدماى تحملاننى . فلمـا جاوزنا الجسر الى الطريق قالت : « أراك متعبـة ، فخير أن

تركب عربة أوصلك بها الى بيتك تستريحين فيه • ونادت سيارة وطلبت الى أن ألقى الى سائقهابعنوان‌منزلى • وألفيت نفسى منقادة لاوامرها كأننى تلميذة من تلميذاتها • فقد عرفت من حديثها أنها مدرسة ، وأنها مضطرة الساعة للذهاب الى مدرستها ، ولولا ذلك لبقيت معى حتى أسترد سكينتى • وألقيت الى السائق بعنوان المنزل فلما كنا عند بابه نظرت‌زميلتى‌اليه ثم قالت : « أتسكنين‌هذا القصر ثم تبكين ؟ »

وشكرتها من أعماق قلبى ، لا لأنها أنقذت حياتى ، بل لانها ردتنى الى الطفلين العزيزين • قالت : «أسعدك الله بهما وأسعدهما بك » وألقت الى السائق بعنوان مدرستها بعد أن اطمأنت الى أننى دخلت المنزل • وعبثا حاولت من بعد أن أرى هذا الملاك الرحيم •

دخلت المنزل منهوكة القوى محطمة الأعصاب لا أكاد أقوى على نزع ملابسى • فلما استطعت نزعها وألقيت بنفسى فى سريرى اذا البكاء يغلبنى من جديد واذا عيناى تجودان بدمع هتون • وبعد برهة اذا جسمى كله ترعده الحمى ، واذا بى أضطرب فى فراشى اضطرابا جعلنى أصيح منادية مربية أطفالى • فلما دخلت على ورأتنى ممتقعة اللون أسرعت الى الترمومتر ثم سارعت بعد أن نظرت اليه الى اسعافى •

وبعد سويعة أقبل زوجى لموعد طعامه ، فلما عرف مابى أسرع يفحصنى ، ثم أمر باقفال نوافذ الغرفة وبتركى فى راحة تامة • وجاء الطفلان بعد ذلك من المدرسة ، فاستقبلتهما مربيتهما وأخبرتهما أننى مريضة ، ولذلك يجب عليهما ألا يحدثا أية ضجة أو جلبة تزعجنى • وأمسكت الطفلين ودخلت بهما على فاذا هما ساهمان وكأنما حدثتهما نفساهما البريئتان بأن أمرا حدث • فلما وقفا الى جانب سريرى اغرورقت عيناى بالدمع ونظرت اليهما

كأنما أستغفرهما أن كدت أجنى عليهما فأيتمهما • وانصرف الطفلان كسيرى الطرف ثم غلبتهما الطفولة فسمعتهما يضحكان • عند ذلك شعرت بأنى كنت مقدمة على عمل جنونى أنجانى القدر بأن بعث الى ذلك الملاك الرحيم •

ولم يكن يشغلنى أيام مرضى غير نكسة صديقنا وحال صحته • وقد سألت زوجى غير مرة عن حاله ، فأنبأنى أنه تخطى الخطر وان كان فى حاجة الى زمن طويل ليسترد عافيته • فلما برئت واستطعت أن أخرج من منزلى سألت زوجى أن أصحبه يوما فى عيادة هذا الصديق العزيز •

واذ رأيته وتبينت حاله رق قلبى رقة لم يكن يسيرا معها أن أغالب دمعى • ثم زادت بقلبى رقته فأمسكت بيده وزوجى واقف بجانبى وقلت : « أستحلفك بأعز عزيز عليك أن تسامحنى • أنا أعلم أن ذنبى لايسعه الغفران • ولكنى أعلم كذلك أن وفاءك لصداقتنا يسمو بك الى ما فوق المغفرة ، يسمو بك الى الرحمة والى الاشفاق على بائسة مسكينة • »

فنظر الى الرجل وهو ممدد على كرسيه الطويل بعينين يشيع فيهما عطف يكاد يكون الحنان وقال : « لقد سامحتك منذ زمان طويل • وليسامحك الله • وليسامحنا جميعا • »

لم أشعر فى حياتى بتضاؤل كبريائى مثل ماشعرت فى هذا اليوم • لقد شعرت بنفسى ، أنا المتعالية المعتزة بنفسى ، صغيرة ضئيلة تافهة محتاجة الى كلمة عطف تسند ضعفى وتسكب ماء البر الطهور على ذنوبى • وهأنذا قد سمعتها • لكنى بقيت مع ذلك صغيرة ضئيلة تافهة •

وانقضت الايام والاسابيع وعوفى صـديقنا وعاد يتردد علينا .
لكنى بقيت رغم ذلك محطمة الاعصـاب فلا بد لى من جو جديد
تتغير فيه نفسيتى . فلما أقبل الصيف قال لى زوجى : « ماأحسبك
احتجت يوما للسفر الى أوربا حاجتك هذا العام . فأعدى عدتك .
وقد لاأسـتطيع السـفر معكم ولذلك أعددت جواز سـفر لك
وللطفلين . وأرجو أن يفيـدكم تغيير الجو الفائدة التى أرجوها .
وشكرته ، وأخذت أفكر فى السفر وفى اعداد عدته .

الفصل السادس

لم أنظر الى اصطيافنا بأوربا هـذا العام مطمئنة النفس قريرة العين • أنا حقا فى أشد الحاجة اليه • فهذا الجو الذى يحيط بى خانق ولم يبق لى طاقة باحتماله • وأعصابى مرهقة يثيرها مس الهواء • لكن الهواجس كانت تفزعنى وتبلبل خواطرى وتزيد نفسى قلقا وأعصابى اضطرابا •• فما بال زوجى لايريد أن يصحبنا الى أوروبا ؟ أى شىء يمسكه بالقاهرة ليصلى صيفها القائظ ؟

وهنا ارتسمت أمامى صورة صديقتى وهى تنظر بعينيها الجميلتين الساحرتين الى هذا الطبيب الذى وهبها كل عناية لانقاذ ميراثها وميراث أطفالها • أولا تكون هذه المرأة هى السبب فى تخلفه عن مصاحبتنا وبقائه بالقاهرة ؟ أنا أعلم أنها تصطاف بالاسكندرية • لكن الذهاب من القاهرة الى الاسكندرية آخر كل أسبوع لقضاء يومين أو ثلاثة على مقربة منها والتقاءهما كلما شاءا أمر يسير •

واذا أنا كنت قد فعلت ما فعلت لأمنع زواجها من صديقنا ، أفأسافر الى أوربا وأدعها تغصب منى والد أطفالى بينما أتنقل أنا بهما بين بلاد المياه وفى أعالى الجبال الاوربية الجميلة •

ودار بخاطرى أن أعتذر عن عدم السفر ، وأن أكتفى بالذهاب الى الاسكندرية أقضى الصيف بها • وانى لأفكر كيف أصور الامر لزوجى اذ مر بى صديقنا وأخذ يسألنى عن موعد السفر وبرنامجه • قلت بعد حوار طويل ، وما اهتمامك أنت وزوجى بهذا الامر كأنما تريدان ابعادى عن مصر لامر تدبرانه ؟
فبهت الرجل لسماع هذه العبارة وقد قلتها بنغمة كلها الجد والحزم وقال بعد هنيهة : « أو هجست بنفسك هواجس جنونية جديدة

لتقولى مثل هذا الكلام السخيف ؟ » قلت : « فلم اذن لايصاحبنا زوجى الى أوروبا ؟ » •• هنا تبسم الرجل ضاحكا وقال : « اذن فاعلمى أنه استدان المبلغ اللازم لسفركم وكنت أنا واسطته وضامنه • وهو يريد أن يشتغل فى الصيف ليسدد ما استدان • أويكفيك هذا العلم لتهدأ نفسك وتسكن أعصابك ؟ » قلت وأنا أحاول التسكين من وساوس نفسى : « ماكان أغناه عن هذه الاستدانة وأغنانى عن التعرض لهذه الهواجس ! اننى لم أرغب اليه فى السفر بل هو الذى عرضه على • ولو علمت أن الامر يقتضيه أن يستدين لما قبلته ، بل لكفانا أن نقضى معا شهرا بأى مصيف وأن نقيم بقية الصيف هنا فى وكرنا وملجئنا » • وأجاب صديقنا مبتسما : « ثم تبقى أعصابك مضطربة وحسك مرهفا طيلة العام المقبل فتجعلين حياته جحيما ! لاتحسبى يا سيدتى أنه نسى فى هذا الامر نفسه ولم يفكر الا فيك • فقد ذكرت له حين طلب الى التوسط فى الاستدانة وضمانه فيها هذا الكلام الذى قلت أنت الآن ، وعرضت عليه أن تذهبوا الى مكان قصى كمرسى مطروح ، فحدثنى بلغة الطبيب الذى يعرفك خير معرفة أنك لادواء لك الا السفر الى أوروبا ، وأن ما يتكلفه فى ذلك من النفقة أيسر عليه من بقائك فيما أنت فيه مما ينغص عليه وعلى الطفلين عيشهم • ألا ترين أنه يحسن التقدير والحساب ! فاطرحى من خيالك المريض هواجس لا وجود لها الا فى هذا الخيال واستقبلى سفرك بنفس راضية لتعود اليك صحتك وليعود الى طفليك مرحهما وابتسامهما • وسأمر بك بعد ثلاثة أيام لاعرف كيف أعددت لرحلتك وبرنامجها » •

وصدق الرجل وعده ومر بى بعد ثلاثة أيام فألفانى أكثر هدوءا وطمأنينة • ذلك بأننى كنت قد أخذت أثق به وأطمئن الى كلامه بعد أن أيقنت من خلال أحاديثه المتكررة أنه لن يتزوج صديقتى •

ودار بيننا فى رفق حديث هادىء أطلعته أثناءه على خطة سفرى وعدته ..

وصحبنى هو وزوجى الى الاسكندرية حتى ودعانى ساعة تحركت الباخرة . فلما بعدت عن الشاطىء وغابت عنا آثاره ذهبت أستقبل هواء البحر أملأ منه صدرى ورئتى ، مقتنعة بأن فيه الدواء الناجع لعلتى . واستنشقت هذا الهواء ملء خياشيمى فأحسست فيه حياة تنعش قلبى ، وترفع عن صدرى عبئا كان يثقله . وتمددت على مقعد طويل أرحت الى مسنده ظهرى ليكون صدرى أكثر استقبالا لهذا الهواء المحسن . وتطلعت بنظرى الى الافق الممتد بين السماء والماء وكأنما يتهادى مع الباخرة فوق لج البحر العظيم . وانقضت ساعة وأخرى وأنا على هذه الحال ، أزداد كل ساعة شعورا بأن الاعصاب المنهارة التى كانت تتحكم فى وجودى تستقيم وتقوى شيئا فشيئا . ألم يقل صديقنا ان السفر الى أوربا فيه دواء علتى . وهأنذا أشعر بفعل هذا الدواء منذ اللحظات الأولى .

وأقبل المساء فكنت أهدأ نوما . وتقضت أيامنا على الباخرة وأنا أشعر كل يوم بأننى أحسن حالا مما كنت عليه اليوم الذى سبقه . وكان على الباخرة سيدات رقيقات رأيننى ورأين أطفالى فكن يداعبن الاطفال ويحادثننى مألوف مايتحدث المسافرون فيه . فلما أصبحت اليوم الأخير والباخرة تتأهب لالقاء مراسيها على رصيف المرفأ جئن يودعننى ،ثم قالت احداهن وكأنها تهمس فى أذنى : « أهنئك من كل قلبى ياسيدتى . لقد أشفقت عليك ساعة رأيتك تصعدين الباخرة فى الاسكندرية . كان وجهك شاحبا وملامحك متعبة وكان الجهد باديا عليك وكأنما قضيت زمنا طويلا فى غرفة مظلمة . أما الآن ، ولا حسد ، فوجهك مشرق وملامحك باسمة وكلك حيوية ونشاط » . فشكرتها وقلت : « لقد كنت أحس

الاعياء حقا • لقد مرت بى أحداث أرهقتنى • وأشعر الآن أننى أفقت وحييت ».

وسافرنا توا من المرفأ الى الجبال وأخذت أتنقل مع الاطفال من مصيف الى مصـيف وقد نسيت كل شيء الا أننى حييت • فلمـا اطمأننت الى العافية والى أطفالى أخذت أستعيد هذا الماضى القريب فى دهشة ، وأعجب لما حدث فيه • فاذا رأيته بدأ يشغل حيزا من تفكيرى لم يكن أيسر من أن أهز أكتافى وأعود الى متاعى بجمال الطبيعة من حولى • لكن أمرا واحدا لم يبرح ذهنى • ذلك أمر صديقتى وعناية زوجى بشأنها وبمبرات أطفالها عناية غير مألوفة • فلن تحرك الرحمة والانسانية وحدهما رجـلا ليعرض نفســه الى ماتعرض له زوجى من أجل هذه الفاتنة ؟

وفيما نتنقل بين المصايف صادفتنى السيدة الأمريكية المعنيـة بزينة سريرها أكثر من عنايتها بزينة خروجها ونزهتهـا ، وهى التى عرفتها الصـيف المـاضى اذ كان زوجى معنا فى أوربا • فقد صادفتنى أسير فى بهو الفندق وطفلاى يسيران معى • فلما رأتنى أقبلت على وعانقتنى وأبدت من السرور بلقياى ما أنعش نفسى • وعدنا سـيرتنا العام الماضى ، وزدنا عليهـا أننى جلست واياها على مائدة واحدة فى غرفة الطعام •

وكانت تدعو بعض أصدقائها وصديقاتها أحيانا لتناول الطعام معنا ، فيتيح ذلك لنا فرصة الحديث فى شئون شتى • ولهـــؤلاء الغربيين جرأة على موضوعات يمنعنا الحياء فى مصر أن نعرض لها • ولست أنسى لهم حديثا ترك فى نفسى من بعد أثرا عميقا ، وكان للسيدة الامريكية فيه رأى جرىء لم أجد مثل صراحته فيما سبق من مطالعاتى • فقد تحدثوا عن الحب وعن صلات الرجل والمرأة ، وأيد بعضهم مايقوله الروائيون من أن الحب عاطفة يقصد

بها الرجل تملك المرأة ، وأيد آخرون مذهب شوبنهور من أن الحب أسطورة تقصد الطبيعة من ورائها الى تخليد النوع وتحسينه. قالت الامريكية : « أما أن الحب عاطفة يقصد بها الرجل تملك المرأة فحديث خرافة ابتدعه الرجال ارضاء لغرورهم . فلست أعرف رجلا تملك امرأة فى غير الكتب التى يزوقها القصاصون . أما الواقع فان النساء هن اللواتى يمتلكن الرجال ويسخرنهم كما يشأن لأغراض الحياة . وقصة آدم وحواء تصور هذا الواقع خير تصوير . فحواء هى التى أرادت أن تطعم من شجرة الخلد فسخرت آدم لما أرادت فأذعن لها وهو يعلم أنه يخالف بهذا الاذعان أمر ربه . والمرأة هى التى تخلق من الرجل ملاكا أو شيطانا حسب هواها ، ترتفع به الى الذروة أو تهوى به الى الحضيض ، وقل أن كان العكس صحيحا . والرجال أنفسهم لاينكرون على المرأة هذا السلطان ولا يأبونه . ألا يتحدث الشعراء من أقدم العصور عن ربة الشعر على أنها مصدر وحيهم والهامهم . والغزل فى الشعر من فنون الرجال يتغزلون به المرأة ويتخذونه زلفى اليها . وقل أن روى التاريخ لامرأة شعر غزل الا أن يكون الرجال قد زيفوه لينزلوا بالمرأة الى مثل مكانتهم . وماذا يمتلك الرجل من المرأة فيما يزور القصاصون ؟ جسمها . انه يملكه سويعة يذل لصاحبته بعدها ماعاش . وفى طبعها مافى طبع كل أنثى مما يذكره شوبنهور : أن تخلد النوع . والرجل يحسب أنه يتملكها حين تسخره هى ليتم أسمى غرض فى الحياة وأرفعه ، ذلك أن تخلق جيلا جديدا . »

قالت سيدة من الحاضرات : ان ماذكرته يصدق على الزواج ، أو على التناسل ان شئت ، لكنك لم تذكرى شيئا عن الحب . والحب لا صلة له بالتناسل ، بل هو عاطفة مجردة مكتفية بذاتها كالصداقة.

والحب كلما ازداد تجردا ازداد سموا ، وكلما كان خالصا لوجهه وحده كان رحيق العواطف وخلاصتها جميعا •

أجابت الامريكية : « ان هذا الحب الرحيق الذى تذكرين ، وهذه العاطفة السامية المكتفية بذاتها ، حب ملائكى لايعرفه بنو الانسان ، وهو على كل حال ليس الحب الذى يذكر القصاصون ان الرجل يقصد به الى امتلاك المرأة • ولئن وجد هذا الحب الملائكى بين شاب وفتاة ، أو بين رجل وامرأة ، ونذر كلاهما لله أو للعذراء ألا يقرب أيهما صاحبه ، وألا يكون بينهما قط شىء من صلة الجسد ، انهما اذن لمن أتقى أبناء الكنيسة الكاثوليكية البررة المطهرين ، وليسا من أبناء عالمنا نحن ، عالم الحياة والتجدد • أما حب الرجل والمرأة فى عالم الحياة فغايته انشاء الشركة اللازمة لأداء واجب الحياة على خير وجه ، ووسيلته التجانس والتجاذب بين الشريكين على نحو يكفل انتقاء أحسن بذرة للتربة التى تصلح لها ، والتى تتكفل هذه الشركة بتعهد ثمراتها • هذه صورة مادية قد لاترضى الخيال الشعرى ، لكنها الصورة التى تنتقل مع تاريخ الانسانية منذ عرفنا تاريخ الانسانية • فالتشريع الذى وضعه الرجال فى مختلف العصور يقررها ، والواقع الذى تراه أعيننا يشهد بها • فاذا أراد رجل أو أرادت امرأة أن تسمو على هذه الصورة المادية فقد أنكر كلاهما واجب الحياة وتنكر له • وهذا مع الشىء الكثير من الأسف ماتيقنته أنا بعد تجارب كثيرة مريرة

قلت ملقية الكلام الى الحاضرين من غير أن أوجهه الى أحد بذاته : « والغيرة ! ألها صلة بالحب أم أنها مستقلة عنه قائمة بذاتها • »

قالت الامريكية وكأنما حرك هذا السؤال عندها شجنا دفينا : « غيرة المرأة عاطفة طبيعية باعثها الدفاع عن النفس ، وعن الملك •

فالمرأة كما ذكرت تملك الرجل الذى تحب وتحرص على ألا تفرط فيه • وهى لذلك تحوطه بالعنـاية التى يحيط بها الانسـان أعز مايملك ، هى تعتبر ماله ملكها ، وصحته ملكها ، وقلبه ملكها ، وسمعته ملكها ، ومكانته فى المجتمع ملكها ، فاذا حاولت امرأة غيرها أن تغصب هذا الملك منها فمن حقها أن تدفع هذا الاعتداء بكل وسائلها • وفى مقدمة هذه الوسائل أن تنصب شباكها حول الرجل نفسه حتى لايفلت منها • فان نجحت فذاك ، وان تغلبت عليها غريمتها أو حاول رجلها أن يفر منها فمن حقها أن تعلن عليهما حربا شعواء • قد تكون الهزيمة فى هـذه الحرب نصيبها ، ولكن خوف الهزيمة لايجوز أن يثنيها عن النضال ، فلا تفرط فى قيد أنملة من ملكها الا مغلوبة على أمرها • واذا هزمت مع ذلك فلها العذر ، ولها من استماتتها فى النضال عن ملكها عزاء عن فقده آخر الأمر ، وان لم يرد هذا العزاء فائتا ولم ينجها من أن تغرق نفسها فيما يذيب الهم ويذهب الحزن •

قالت الامريكية عباراتها الأخيرة وقد شردت نظراتها وانخفض صوتها وكأنما حركت نفسها هواجس ماض قاست فيه أهـوالا وانهزمت فيه بعد دفاع طويل مجيد • عند ذلك أدركت حرصها على الشراب ، تغرق فيه همها • وقد رأيتها ذلك اليوم أشد اكبابا عليه كأنما هاجت الذكرى أشجانها فاستعانت بالشراب على نسيانها • وخشيت أن يعاودها من هذه الذكرى رجع يثير من نفسى مالاأريد أن يثور وأنا حريصة على أن أفيد لصحتى ولأعصابى ولكـل حيويتى من هـذا الاصطياف ما استطعت ، فانتقلت الى مصيف آخر أكثر مرحا وأخذت أعبث أنا وأطفالى وأرتع معهم ، نرتفع الى قنن الجبال ، ونلعب فى الثلوج البيضاء المتراكمة عليها ، ونهبط الى الوديان نستمتع بخضرتها ومياهها ، وننتقل ثم ننتقل حتى لايدع لى المقام فى مكان واحد فرصة للتفكير فى غير المرح والمتاع •

وعدنا آخر الصيف الى مصر واستقبلنا زوجي على ظهر الباخرة أول ما أرست بالاسكندرية • وفرح الطفلان بأبيهما فتعلقا بعنقه وأخذا يقبلانه • فسألني هو كيف أمضينا صيفنا فذكرت له طرفامما رأينا ، وذكرت الامريكية التي زارها معي العام الماضي في غرفة نومها ، ولكني لم أذكر شيئا من أحاديثها وأحاديث أصحابها•وسألته بدوري كيف قضى صيفه ، ورجوت ألا يكون قيظ القاهرة أرهقه •

وأجابني أنه استطاع أن ينتهز فترات جاء أثناءها الى الاسكندرية يستريح من عناء العمل ويستنشق هواء البحر يسري به عن نفسه ويعتاض به من قيظ بلغت درجته الأربعين في بعض الايام • وذكرتني زوراته الاسكندرية حيث مصطاف صديقتي بهواجسي قبيل سفري الى أوربا • على أني آثرت الصمت فلم أقل شيئا •

وانتقلنا الى القاهرة وجاء صديقنا يحمد الله على سلامتنا فأبدى اغتباطه بما أفدت لصحتي من رحلتي وسروره بما عاودني من سكوني وطمأنينتي • وتقضت أوائل الخريف بعد ذلك رتيبة متشابهة تبعث الى النفس السأم والملال • فلما كنت في الأيام الأولى من شهر ديسمبر أقبل زوجي يوما يذكر لي أن جماعة من أصدقائه الذوات ، سيدات ورجالا ، يريدون أن يستمتعوا تلك الليلة بضوء القمر عند سفح الاهرام ، وأنهم يدعوننا لمشاركتهم في هذا المتاع ، وأنه ذكر لهم أن مثل هذه النزهة الليلية غير مألوفة لي ، فألحوا عليه في أن يقنعني بمشاركتهم وقبولي دعوتهم ، وأنه وعدهم أن يفعل ، وسألني بم يجيبهم • قلت : « وما رأيك أنت •• فأنا في هذا الامر على ماتحب • ان شيئت ذهبنا وان شئت اعتذرنا »

وانما أردت بهذا الأدب الجم أن ألقي عليه كل التبعة •• على أنني كنت أود من كل قلبي أن يقبل هذه الدعوة • فهي لون جديد

من الحياة يشوقنى أن أعرفه ، وأصحابها طراز من الجمعية القاهرية الراقية يسرنى أن أتعرف اليهم • ولقد كنت فوق هذا وذاك أفكر فى الوسيلة التى أسترد بها زوجى الى حظيرتى فلا يبقى لدى خيال شك فى تعلقه بصديقتى • وقد استبد بى هذا التفكير بعد أن ذكر لى حين استقبلنا على الباخرة بالاسكندرية أنه جاء من القاهرة اليها غير مرة أثناء غيابنا فى أوربا حين كانت صديقتى تصطاف بها • فاذا قبلنا هذه الدعوة فتحت أمامى بابا أنفذ منه للغرض الذى أقصد اليه •

وبدا على زوجى بعض التردد بعدما ذكرت أنى تركت الأمر له • قلت : « فيم تتردد •• ان لم يكن فى هذه الدعوة مايغريك فلا أيسر عليك من أن تعتذر عنها • وكل الذى أرجوك فيه ألا تحتج فى اعتذارك بى حتى لايفسر القوم ذلك تفسيرا يسوءنى • تستطيع ان شئت أن تحتج بعملك • فأنت طبيب معرض لأن تطلب فى كل وقت • أما ان راقك أن تقبل الدعوة فأبلغ أصحابها شكرى اياهم واغتباطى بالتعرف اليهم »

وسكت زوجى هنيهة ثم قال : « أما وأنت لاترفضينها فأنا أقبلها • وسأبلغهم ذلك الساعة • واننى لواثق من أنك ستسرين بمعرفتهم • فهم غاية فى الرقة رجالا ونساء • وقد أبدوا من الحرص على التعرف اليك ماشكرتهم عليه • واننى لواثق من أنكم ستصبحون أصدقاء عما قليل » •

ما أشد غبطتى وما أسعدنى بما قال ! فهذا يتفق مع مادار بخاطرى ومافكرت فيه من وسيلة أسترده بها الى حظيرتى • لابد أن أثير الغيرة فى نفسه حتى لايظل متوهما أننى لا أعرف غيره ، ولا أحب غيره ، ولا أقدر غيره ، مما دعاه الى الاكتفاء نحوى بأداء واجبه ربا لاسرتنا ، وأن يتناسى شخصيتى وما حبانى القدر من مواهب يعجب بها غيره أشد الاعجاب •

وأقبل المساء وأشاع القمر بضيائه الرطب الندى معانى النعيم فى أجواء القاهرة واشتملها كلها • وتزينت لهذه النزهةالصحراوية زينة جمعت الى البســاطة الاغراء • ودق التليفون وقال زوجى : ان القوم فى طريقهم الينا ، فهبطنا الى الطابق الأول حتى اذا سمعنا نفير سياراتهم خرجنا اليهم فألفيناهم نزلوا من السيارات لتحيتنا • وتعرفت اليهم ودعانى أحدهم لأجلس فى سيارته الى جانبه وهو على عجلة القيادة ، وذهبت زوجه الى سيارة أخرى ، وتفرقنا حتى لاتجلس زوجة مع زوجها فى سيارة واحدة •وانطلقنا مسرعين حتى اذا بلغنا طريق الهرم سرنا على هون مبطئين • وماكان لنا ألا نفعل • فقد سكب القمر على ماحولنا من المزارع والمساكن أمواجا من نور غمرت مابين السماء والأرض وجعلتنا نسبح منها فوق أثير شعرى رقت معه قلوبنا وسمت عواطفنا حتى كادت تلتقى وتتعانق • قلت لزميلى فى السيارة : « لست أدرى كيف أشكر لكم هذه الدعوة • فلست أذكر أنى رأيت القمر أبهى سنا وأروع جمالا فى هالته البديعة مما هو اليوم • لقد طالما اجتزت هذا الطريق فى ضوء عاشق السماوات فلم أره يرنو الى ويحدثنى بمثل هذه اللغة التى يحدثنى بها الليلة »

وأجاب صاحبى : « أنت ياسيدتى التى أوحيت الى القمر كل هذا الشعر الذى يوقع لنا الليلة أنغامه • وسترينه على سفح الاهرام وعلى وجه أبى الهول أروع شعرا وأبدع ايقاعا بفضل وحيــك والهامك •• » واتصــل بيننا بعــد ذلك حــديث رقيق حرصت ما استطعت على أن يزداد ظرفا ورقة وسحرا ، فاذا تحدث الرجل بعد ذلك عنى حديثا بلغ سمع زوجى عرف أنه ظالمى وأن من حقى أن أثور بهذا الظلم •

وبلغنا سفح الأهرام وأوغلنا فى الصحراء ثم تركنا السيارات

وأخذنا ننعم فى هذا الجو الشعرى الساحر بأعذب ألوان الحس • كنا نتطلع الى ناحية الاهرام فنراها قد كساها القمر من ضيائه حلة زادتها بهاء ومهابة ورهبة ، ثم نتطلع الى رمال الصحراء المتموجة تحت أشعة القمر فى ارتفاع وانخفاض يخلقان منها بحرا لجيا وان لم يصطخب له موج ، وان كان صامتا صمت الليل • ونرتفع ببصرنا أحيانا الى السماء فاذا الجو كله معطر بعبير هذه الساعة اللذيذة المنعشة ، واذا القمر قد أذاب فى هذا الجو نورا مطمئنا تستريح له العين وينهل منه القلب وتنتشى بسحره العواطف ويعبث الهوى أثناءه بالافئدة بين الجوانح •

وسرعان ماأقام القوم مرقصا على أنغام اسطوانات جلبوهاوجلبوا فونوغرافها معهم•وشاركت وشارك زوجى بطبيعة الحال فى الرقص، وان لم نرقص مرة واحدة معا خلال الساعات المتعاقبة التى شهد فيها ساهر السماوات هذا المرح السابغ المجنون • وقد ألقيت نفسى أثناء هذا الرقص بين أذرع الرجال من أصحابنا جميعا ، وجعلت أكثر رقصاتى مع زميلى فى السيارة • وكنت أثناء رقصى معه أتابع الاحاديث الحلوة التى بدأناها فى طريق الهرم •

فلما أخذنا من الرقص حظنا كاملا ، جلسنا على سجادة جىء بها لهذا الغرض وتناولنا طعاما خفيفا نكظم به صيحات معداتنا بعد أن هضم الرقص ماكانت تحتويه • وجعل القوم أثناء الطعام يثنون أطيب الثناء على رقصى وينسبون لقوامى البارع أكبر الفضل فيه •

وعدنا أدراجنا بعد أن شكرت القوم من كل قلبى لأنهم أتاحوا لى فرصة متاع لا عهد لى بمثلها من قبل • وأجاب القوم بأنهم هم الذين يشكروننى لأننى دفعت الى سهرتهم من حيويتى ومن رقتى حياة ورقة لم يعرفوهما فيما سبق لهم من مثلها •

وانطلقت السيارة بي وبزوجي في هذه الساعة المتأخرة من الليل • فلما شعرت أني واياه في خلوة قلت : « ألم تحدثك نفسك طيلة ساعات الرقص أن تطلبني لرقصة معك ؟! » وكأنما أدهشه سؤالي هذا فأجابني : « لقد رأيتك أثناء الرقص كله في غبطة لم أرد أن أفسدها عليك أو أنتقص منها • » قلت : « لست أنكر أنني اغتبطت بهذه النزهة الساهرة من أولها الى آخرها • لكنك كنت أكثر مني اغتباطا • فقد رأيتك ، وهاتيك السيدات الظريفات الفاتنات أثناء الرقص بين ذراعيك ، تائها في أحلام أفسح سعة من الصحراء •• وأقسم أنني لم أكن ممن خطرن بأحلامك • ولو أنني خطرت بها لدعوتني ولو مرة واحدة الى الرقص معك •» وأجابني وكأنما أخذ لهذا الجواب عدته : « لكن ذلك لم يكن يليق • فنحن مدعوان الى هذه الحفلة فيجب ألا يشعر أصحابها بأنا ننكمش عنهم الى ناحية لحظة واحدة ولأي اعتبار • » قلت : « ومالهم لم يرعوا ذلك فيما بينهم • فقد راقصت كل سيدة زوجها مرة على الاقل • أما أنت فقد تعمدت اهمالي لغرض لا أفهمه » • وأدرت وجهي غاضبة واستمر هو يقود السيارة الى منزلنا •

ومر بي صديقنا الغداة فقصصت عليه أنباء سهرتنا ومادار بيني وبين زوجي حين عودتنا ، فابتسم وقال : « مسكين زوجك • انه رجل طيب ، ولكنه لا يفهم العواطف كما تفهمينها • هي ليست في نظره لونا من ألوان الفن الجميل الذي يشهد الناس صوره المختلفة على المسرح ، ولكنها بعض واجبات الحياة الزوجية يؤديها الرجل فيما يبديه من عناية براحة زوجه وأولاده • وعذره عن هذا الفهم أنه فلاح • هو من أبناء الاعيان الذين يرون الحب المسرحي عيبا غير لائق بالناس الطيبين • وهو مقتنع بأنه يؤدي لك ولطفليك مالكم عليه من حق ، ويحسب أنه يؤدي هذا الواجب على الوجه الاكمل ، بل أكثر من الوجه الاكمل • وهو

يظهر لى دهشته أحيانا ويسألنى أمقصر هو فى حقكم فى شىء رغم مايحمل نفسه من أعباء يخشى أن ينوء بها يوما من الايام » •

وقلت فى نفسى : « نعم • هو فلاح وفيه خبث الفلاحين • وكل ما درسه وكل ما رآه فى اسفاره الى أوربا ، وكل ماتعلمه من معاشرة الذوات وأبناء الذوات لم يغير طينته ، وان أسبغ عليه طلاء ظاهرا من الثقافة والتمدن ، فاذا حك هذا الطلاء ، ظهر الفلاح بقسوته وضعفه وخبثه • ألا يتزوج أحدهم زوجة ثانية ثم لاتعلم زوجه الاولى بما فعل سنين متعاقبة ! وما يدرينى لعله تزوج صديقتى ! وهو لاريب يحبها وان لم يتزوجها • ان هذه الطيبة التى يتظاهر بها ليست الا ثوب رياء يستتر به مكره وخبثه •• أفلا يجمل بى أن أحاربه بمثل سلاحه ، فأظهر غير ما أبطن ، على بذلك أستل منه سره وأقف على مكنون صدره ؟! »

وفى الغد كان القمر بدرا كاملا ، فاتفقنا مع أصدقائنا الذوات على أن نوغل فى الصحراء ، وأن نجعل الاستراحة القائمة فى منتصف الطريق بين القاهرة والاسكندرية غايتنا • وقضينا وقتا ناعما استمعنا فيه من الجراموفون أحلى الاغانى وأعذب الانغام ، وتناولنا من الاحاديث ، كل جماعة فى ناحية ، ماأرضى هوانا وأمتع أرواحنا وقلوبنا • ألا ماأروع الصحراء فى ضوء القمر ! أنت منها فى لجة تجمع السماء والهواء والارض فى غلالة من غمام مضىء لاتعرف العين له بداية ولا نهاية ، ولا نعرف أين منه مساكن الشياطين وأين منه منازل الملائكة • كل شىء فيه مبهم أمام العين واضح أمام البصيرة تقرأ سطور الغيب فى لوحه المحفوظ •• فأنت تشعر وأنت فى هذا المحيط الباهر الوضاء كأنما كشف عنك غطاؤك ، وكأنما اتصلت على موج الاثير بعوالم الكون جميعا ، وهى مع ذلك محجوبة عنك ، لاترى فيها الدقائق التى ترى فى وضح النهار ، وأنت مع ذلك معجب بما ترى ، تحسب أنك

استبطنت أسرار الكون وعرفت منها ماكان وما يكون .

وعدنا أدراجنا حين تكبد القمر السماء . وانتا لننهب الطريق الى القاهرة اذ وقفت احدى السيارات واندفع نفيرها يعلن نداء الاستغاثة . وفى لمح البصر اجتمعت السيارات كلها حول السيارة المنكوبة ، ونزلنا جميعا رجالا ونساء نتساءل ماأصابها . ولم يكن العطب فادحا . انما هى عجلة انفجرت ويجب تبديلها . يكفى اذن أن يتعاون رجلان فى هذه المهمة ، وكان أحد الرجلين زوجى .. وانصرفنا جميعا نستمتع من جديد بالهواء المنعش ، والضياء الرقيق ، والحديث العذب ، والضحكات الناعمة تتأرجح على أرج النسيم فتنتشى بها أسماع الرجال نشوة تترجمها بسمات ثغورهم ، وبريق عيونهم .

وكنا اذ ذاك فى طريق الصحراء على بضع كيلو مترات من طريق الهرم . فلما استعادت السيارة المنكوبة مقدرتها على السير ركبت كل سيدة مع زوجها حتى بلغنا منازلنا .

لذ لى عيش هؤلاء الذوات ، واستراحت نفسى للون حياتهم ، وأعجبنى فيهم ظرفهم وحسن ذوقهم الحياة ولطف مسلكهم فيها . وارتبطت لذلك معهم بأوثق صلة . ولقد كنا حين لايسعفنا ضوء القمر بسهرات فى الهواء الطلق نؤثر أن نجتمع فى منزل من منازلنا نقضى فيه سهرة لاتقل عن سهرات الصحراء متاعا ومرحا . كنا نرقص ونغنى ونستمع الى الموسيقى تثير من ألوان الطرب مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . فاذا عدت مع زوجى الى منزلنا فى الهزيع الاخير من الليل كان الجهد قد أخذ منا ، فنمنا الى الضحى ، فاذا استيقظت علمت أن زوجى قد بكر الى عمله كعادته وأمر ألا يزعجنى عن فراشى أحد .

ولم أكن أحسب أن هذا اللون من حياة الذوات باهظ النفقة .

لكنى سرعان ماتبينت خطئى . فالولائم والازهار النادرة والحلى والثياب وما يتصل بذلك من ملحقاته لاينتهى حين يبدأ ولا تنتهى نفقاته . ونحن نعيش من قبل عن سعة اضطرت زوجى للاستدانة سدا لنفقات سفرنا الى أوربا . وليس فى مقدورنا الآن وقد عرفنا هذه الالوان الجديدة من الحياة ، وتعرفنا الى أصحابها أن نرتد عنها حتى تترع منها ويفيض بنا كأسها . ولم يدر بخاطر زوجى أن يخالفنى فى ذلك حذر المستقبل . ولعل عقله الباطن هو الذى صده عن أن يفعل مخافة كلام الناس .. انه يحسب انه انتقل بى الى مصاف الذوات ، ومن العار عليه أن يرتد بى عن هذه الصفوف خشية املاق . فالله يرزق من يشاء بغير حساب . أليس صاحبه المليونير كان الى بضع سنوات متواضع الثراء ، وكان يقترض منه ثم يرد له ما اقترضه . فما ضره وقد أصبح الرجل مليونيرا أن يقترض هو منه فى انتظار أن يسد الله عنه دينه .

ولكن ! كيف يحتال لذلك من غير أن يجرح اباءه الذاتى .. دعا المليونير الى وليمة فاخرة عندنا وأوصانى أن أبالغ فى اللطف معه والتودد اليه وحسن اللقيا لزوجه . ولم أجد فى تنفيذ الوصية مشقة .. فقد أعجبتنى هذه الزوج وحلت أجمل مكان من نفسى ، فبالغت فى تحيتها عن رضى منى واطمئنان اليها . وكان المليونير قليل الكلام ، كثيرا مايغيب بذهنه عن المجلس وكأنه يفكر فى مشروعاته وحساباته . وقد بذلت جهدى لاستدرجه الى الكلام فى الشئون الجارية مما تنشر الصحف أو تداوله المجالس ، فكان يحصر ذهنه ليحسن الاصغاء الى ، ثم يجيبنى فى عبارات موجزة جدية محكمة .

وزرنا الرجل بعد ذلك وتردد علينا . لقد طالما سمعت عنه من رجال ذوى ثقافة أنه محدود الافق لايستطيع أن يسمو بعقله فوق الماديات وفوق مايتناول الناس من منافع الحياة . وقد أردت

أن أسبر غوره لاعرف مبلغ مافى هـذا الكلام من دقة وصدق ، فدلنى ماشهدت على صحته • لكنى رأيت ذلك التفكير المادى الذى ينسبونه اليه واسع المدى الى غير حد • اذا تكلم فى أحد مشروعاته تناول تفاصيله فى دقة غاية الدقة ، وقص ماأنفق للحصول على هذا المشروع من جهد ومال قصصا يستهوى اللب ، ويكاد يذكر الانسان بالقصص البوليسية • وهو يؤمن بالمال ايمانا لاحد له • وقد ذكرنى ايمانه هذا بغنى آخر نعرفه جعله الايمان بالمال شحيحا غاية الشح ، الا أن يكون له من وراء السخاء منفعة مادية • هنالك ينفق عن سعة ولكن بحساب • عابه أحد أصحابه يوما لعبادته المال وحرصه عليه • وكان صاحبه هذا مولعا بالتحف والصور الزيتية ينفق فى اقتنائها الشىء الكثير • وكان جواب الغنى الشحيح على ماعابه به صاحبه صريحا واضحا ، قال : « أوتستطيع أن توضح لى سبب اقتنائك هذه الصور التى تزين جدران بيتك ، وهذه التحف الكثيرة المنثورة فى أرجائه ، وهى تكلفك الالوف » • ودهش صاحبه وقال : « عجبا لك ياأخى ! ألا تعرف شيئا اسمه الجمال وذوق الجمال والمتاع به • اننى اذ أقف أمام هذه الصور وهذه التحف أتأملها أشعر بمتاع يتضاءل المال الى جانبه ، ويهون فى سبيله • انما المال ياأخى وسيلة للمتاع بالحياة وجمالها • فاذا نحن لم ننفقه واكتنزناه لم نعرف للجمال قدرا ولم نسغ للحياة طعما » • قال المؤمن بالمال : « اننى أوافقك على كل ماقلت ، ولا أخالفك الا فى استنتاجك الاخير •• أنت تعشق الجمال وترى فى اقتناء الصور والتحف وان كلفتك من المال ماكلفتك وسيلتك الى المتاع بالحياة • وأنا أرى فى المتاع بالحياة رأيا آخر •• اننى حين أتناول كشف حسابى من البنك آخر كل شهر وأرى رصيدى فيه يزداد ، أشعر بمزيد من العزة والسلطان يضاعف متاعى بالحياة • ولا تثريب على ولا عليك اذا اختلف ذوقنا فى المتاع بالحياة ، واختلفت وسيلتنا الى هذا المتاع »•

ولم يكن للمليونير كذلك ايمان عميق بغير المـال ، فكان غرامه بالنساء هوى طارئا لاعمق فيه . وكان تعلقه بمتع الحيـاة سطحيا لايعنيه منه الا المظهر البادي للناس يرضى به غرور نفسه وكبرياء سلطانه . كان لكاتب صحفي دالة عليه .. ولقد زاره يوما وأخذ يتحدث واياه في أمور جارية لانتيجة لها . ودخـل السـكرتير وأخبر المليونير أن أحد أصحاب الدولة السابقين يستأذن عليه . وكان صاحب الدولة السابق هذا عضـوا منتدبا لادارة شركة من شركات المليونير . وأجاب الرجل سكرتيره : « قل له فلينتظر فلى حديث معه » ، فلما انصرف السكرتير قال الصحفي : « ليس بيننا حديث ذو شأن حتى تنظر رجلا في مقام صاحب الدولة هـذا » . وكان جواب المليونير : « بالله عليك خبرنى . أتحسب أنى ، ولى من الثراء مالى ، آكل خيرا مما تأكل ، أو ألبس خيرا مما تلبس ، أو أنام في فراش أوثر من فراش نومك .. لاشيء من كل هذا . فأى قيمة للثراء اذن اذا لم أشعر أنى أسـتطيع بفضل سلطانه أن أدع صـاحب الدولة هذا وأمثاله ينتظروننى ان أمرت ويدخلون على ان شئت ؟! » .

كنت قد سمعت هــذه القصة وخشيت أن ينال زوجى مانال صاحب الدولة يوم يعلم المليونير أنه يطمع منه فى قرض . على أن زوجى لم يخبـرنى من ذلك بشيء ، ولم أسـأله أنا عن شيء . لكنى لاحظت بعد أن تم القرض أن المليـونير قل تردده علينـا . وكان أكثر مجيئه حين يكون زوجى فى عمله . وكنت ألقاه متلطفة فى مودة ، فاذا عاد زوجى من عمله أخبرته بمجيئه وقصصت عليه ما دار بيننا من حديث فلا يعلق على ذلك بكلمة ، وكأن رجلا لم يقابل زوجه ولم يقل لها عبارة مجاملة .

أدهشنى هذا الجمود من زوجى فلا تحركه أية غيرة على ، أنا التى فعلت ما فعلت لغير شيء الا لعنايته بميراث صـديقتى وأطفالها .

أترانى أحبه وهو لايحبنى ! أم أنه طراز من الرجال لايعرف كيف يعبرعن حبه رغم تعلقه بى ! أنا لا أطلب اليه أن يكون شاعرا يتغزل فى ، ولـكنى أريد منه أن يتحدث الى ويصغى لحديثى فى اعجاب بى كما يفعل صديقنا ، وكما يفعل غيره من الرجال الذين يقضون الساعات مصغين وعيونهم تناجينى فى صمت واذعان . الا تعسا ليوم ربط الزواج بينى وبينه فيه . ولكن ماذا عساى أن أفعل وهذان الطفلان يوثقاننا فى رباط يتعذر الفكاك منه .

ولم أكن أستطيع أن أشكوه الا لصديقنا . فزوجى اليوم طبيب مشهود لطبه بين زملائه وبين مرضاه . ولو أننى شكوته الى أبى لرمانى بالجنون ، ولنسب جنونى الى خلة ورثتها من أمى . فذلك دأب الرجال ، ينسبون فضائل ذريتهم الى ما ورثوه منهم ، وينسبون عيوبها الى ما ورثوه من أمهاتهم . ذلك شأنهم ولو كانت الأم لا تزال معهم وكانوا لايزالون يحبونها ، مابالك بهم اذا انفصلت الأم عنهم أو ماتت وحل غيرها محلها عندهم .

والآن ماذا أفعل ازاء ذلك الجمود الذى يلقانى به زوجى ! انه لايزيد على أن يسألنى عن حاجاتى وحاجات أطفالى ، فاذا ذكرتها قضاها أو أتاح لى فرصة قضائها . لكنه لم يعن يوما بثوب جديد أرتديه ، ولا بقبعة ألبسها ، ولا بحذاء أنتعله ، ولم يقف أمام شىء من ذلك مثنيا فى اعجاب . وهو انما يتحرك بعض الشىء للجديد الذى يلبسه الطفلان . هذا وما حبانى به القدر من جاذبية استهوت كثيرين لايحركه نحوى ، ولا يثير غيرته على . وقد حاولت أن أحرك هذه الغيرة فى نفسه أثناء مرحنا فى الليالى القمرية التى نعمنا بها مع أصدقائنا الذوات فلم أنجح . أترانى انهزمت ويجب أن ألقى سلاحى ! لكنه لم يجرحنى يوما بكلمة ولم يغض يوما عن تلبية رغباتى ما استطاع . ولم تتغير معاملته لى قط . ولم أعلم من صلاته بصديقى مايثير شبهاتى ، وان أثار غيرتى .

ولم يكن صديقنا يزيد حين أذكر له مايعنينى من خلجات نفسى على أن يسخر منى ومن نزعاتى الخيالية نحو رجل لم يهبه القدر ذرة من نعمة الخيال • وانتهى بى الامر الى أن أستسلم للمقادير وأن أذعن لقضاء الله فى •

وأقبل الصيف فقضى زوجى جانبا منه فى ربوع لبنان ، وبقيت أنا وأطفالى بالقاهرة • والعجيب أنه كان يحدثنى كل يوم بالتليفون من مصيفه يسأل عن صحتنا وحاجاتنا ، مما يشهد بشــديد عنايته براحتنا وطمأنينتنا ، وعظيم حرصه على أن يطمئن علينا • أم تلك نعرة الفلاح يريد أن يتظاهر أمام أصــحابه الذين يصطاف معهم بأنه أكثرهم جميعا برا بأهله وعطفا عليهم ؟! ••

وبقيت فى حيرتى ، تضيق نفسى أحيانا وتدفعنى الى الثورة على ما أنا فيه ، وأستسلم أحيانا أخرى اشفاقا على طفلى أن يصيبهما من ثورتى مايفسد حياتهما • وأفكر أثناء ثورتى وأثناء استسلامى فى هذا القضاء الذى نزل بى ، وفرضته الاقدار على ، والذى جعلنى أضطرب فى حياتى ولا أعرف لها مستقرا •

وهدانى تفكيرى آخر الامرالى خطة رسمتها واعتزمت تنفيذها• فما الذى يمسكنى فى هذا الوضع ؟ هو شعورى بأنه مفروض على ولا فكاك لى منه •ومبعثهذا الشعور حرصى على مستقبل الطفلين• فلو أننى تخلصت من هذا الشعور واستردت استقلالى لاستطعت أن أصــور حياتى على ما أريد ، وأن أطرح كل ماأضــيق به • فكيف أبلغ هذه الغاية وأحقق هذا الغرض ؟

فكرت أولا وقبل كل شىء فى أمر الطفلين ، وقررت أنى لن أتخلى بحال عنهما أو أدعهما لأى سبب لأبيهما • هما منعانى من الانتحار مخافة يتمهما ، فليس يجوز أن أراهما بعينى يتيمى الأم وأنا على قيد الحياة • انهما يتقدمان الآن من الطفولة الى الصبا ،

وهما مبعث سروري ومصدر ما أشعر به أحيانا من السعادة • فمن الحمق الذى لاحمق بعده أن أحرم نفسى منهما ، وأحرمهما من حنانى وعطفى • وهما لن يشعرا قط بالحرمان من أبيهما • فعمله يشغله عنهما ، وهو قليلا مايراهما • لابد لى اذن من أن أحتفظ بهما وأن أبذل فى سبيل ذلك كل ما أستطيع بذله •

ثم يجب أن أوفر من المال كل ما أستطيع ليكون سندى فى تنفيذ خطتى • ولهذا فتحت لنفسى حسابا خاصا فى البنك ، جعلت أودع فيه كل مايصل الى من والدى ، وكل ما أقتصده من نفقات المنزل ومن أى مصدر أحصل عليه لى وللطفلين • قد لايكون ذلك وفيرا وقد يحتاج اقتصاد مبلغ ذى قيمـة الى سنوات • لكن الخطة التى رسمتها للنضال كان أساسها الصبر والاحتمال • فليس يسيرا أن ينجح فى نضـــال من ليس يستطيع الصبر • وأنا بعد أدافع عن حريتى وعن كرامتى • وذلك نضال لا أذكر أن مصرية سبقتنى اليه ، بل قل أن سبقتنى اليه فى غير مصر امرأة يحيط بها وبمجتمعها مايحيط بى من ظروف •

وكانت الخطوات الاولى لتنفيذ هذه الخطة بطيئة بالفعل • انقضت الشهور الاولى ولم أستطع أن أقتصد شيئا يذكر • وشعرت اثر انقضائها بشىء من اليأس فى نجاح ما اعتزمت • وبدا لى أنى لو سلكت خطة أخرى فهاجمت زوجى فى سمعته الطبية وبخاصة فيما يتصل بعنايته بصديقتى وبميراث أطفالها ، فقد اختصر الطريق الى غايتى • ولعلى أشرت الى شىء من هذا فى حديث جرى بينى وبينه فى نوبة غضب لم أملك معها صـوابى • فقد جاءنى صـديقنا يوما متجهما ، فلما سألته عن سبب تجهمه قال : « هو هذا الجنون الذى قام برأسك وجعلك تهددين زوجك بتحطيم سمعته ، بل بتحطيم حيـاته • أولا تعلمين أن مايمس زوجك يمس طفليك فى صميم

حياتهمـــا . انهمـا ابناه رضـيت أنت أو أبيت • فاذا حاولت أن تشوهي سمعته أو تحطمي حياته فاعلمي أن الحجر الذى تقذفينه يصيبهما قبل أن يصيبه • ولن يقول الناس يومئذ أنك زوج غاضبة أو عاقة ، بل ســيقولون انك أم شريرة • وقد يقولون أكثر من هـذا • وقد جئتك الآن لتقسمي أمامي بحيـاة طفليك أنك لن تجازفي بشيء من هـــذا الجنون الذى يضر بك قبل أن يضر بأى انسان آخر • ولن أقبل يمينا أخرى غير حياة هذين الطفلين العزيزين عليك • فأنا أعلم أنهما أعز عليك حتى من نفسك » •

ووجمت برهة غير قصيرة تردد أثناءها أمام خيالى طيف الطفلين فانحـدرت من عيني دمعـــة قلت بعـدها : « أعدك بألا أفعـل • وأرجوك في ألا تلح على في هــذا القســم الذى تطلب • فلن أستطيع أن أقسمه • لكن هذا الوعد الذى بذلته لك وعد قطعته ولن أخل به الا أن يكون ذلك بعلم منك » •

ويظهر أن موقفي هذا قد كان له أثره • فقد بدأ زوجي يسخو في النفقة سخاء لم يكن لى به من قبل عهد • لم أكن أطلب شيئا للمنزل أو لى أو للطفلين الا أجابني الى ما أطلب ووضع في يدى من المال أكثر مما أرغب فيه • بذلك بدأت خطتي المرسومة تنجح على نحو لم أتوقعه ، وبذلك أخذ رصيدى الخاص في البنك يزداد شهرا بعد شهر ، وأخذت أشعر أنني أمهد بالفعل لاسترداد حريتي ، وأن شــيئا من الصــبر كفيل بأن يفتح لى باب الخطوة الحاســمة لاستكمالها •

وتوفى والدى وأنا في صميم هذه المعركة الصامتة أناضل نضال امرأة مست عزتها وجرحت كرامتها • وقد حزنت أشد الحزن لوفاة هذا الوالد البر الحنون الذى لم يذكر والدتي يوما بسوء ، وطالما أسدى الى أصدق النصح وأحكمه • على أن وفاته قربتني من الامل الذى كان يداعبني في اســترداد حريتي • ولم يكن ذلك لانى ورثت

عنه مالا يعتمد عليه • فقد رزقت زوجه الثانية عديدا من الاطفال فتت تركته وجعل الاعتماد على حصة كل وارث فيها غير مستطاع لمن كان فى مثل مكانتى • ولكنى أحسست بوفاته أنى أصبحت طليقة من قيود معنوية كان وجوده يفرضها على •

على أننى رأيت أن أدع العيدين يمران على وفاته قبل أن أتخذ أى موقف حاسم ، وذلك ارضاء لذكراه ، وحتى لايقول الناس أنه ، عليه رحمة الله ، هو الذى كان يحمل زوجى على امساكى • بذلك انقضت شهور ستة تابعت فيها خطتى ، وازداد خلالها رصيدى فى البنك ، ورأيت بعدها أن أخطو الخطوة الاخيرة أضطره بها أن ينزل على كل ما أريد •

استغرقت خطتى منذ بدأت تنفيذها الى ذلك اليوم مايزيد على ثلاث سنوات خيل الى أن ما أتممته فيها كفيل بأن يثير زوجى ويحمله على التسليم من غير قيد ولا شرط • فقد عزلته فى غرفة فى أقصى المنزل نقلت اليها سرير نومه وكتبه وأدواته الطبية • وكنت أتناول الطعام أحيانا وأخرج من المنزل قبل أن يحضر • وكنت أقص عليه أحيانا فى ازدهاء وعلو مايغمرنى به المعجبون من عبارات الثناء التى تثير غيرته • وكنت أبالغ فى الانفاق مبالغة ينوءبها ايراده من عمله ، وايراده من ثروته ، وتحمله من غير شك على الاستدانة • وكنت أفعل هذا كله متعمدة اساءته ، واثارته • وكنت أحسب أنه سيجيء يوما وقد فاض معين حلمه وطار صوابه ليقتلنى أو ليضربنى غير عابىء بالنتائج ، أو أنه سيقول لى يوما : « لك ماشئت على أن تنفصل وأتخلص من هذا السعير الذى أعيش فيه » • لكن شيئا من ذلك لم يحدث ، بل ظل الرجل يتحمل كل مايلقاه منى فى صبر وكأن حبنا المتبادل أول زواجنا لايزال يملأ قلبه ، وكأن ما أوجهه له فى وجود أصدقائنا وصديقاتنا لايحرك شعرة من ابائه وكرامته • ولقد عجبت لهذا الاذعان المطلق من

جانبه حتى ظننت يوما أنه يدبر أمرا ضدى ، وفكرت ماعسى يكون هذا الامر لأفسده . ولكن مر الاسابيع والشهور أقنعنى أن اذعانه عجز ، وأنه أضعف من أن يقف رافعا رأسه أمامى .

وأعجب من ذلك أنه لم يكن يناقش قط أثناء هذه الفترة الاخيرة فى أمر الطفلين وطريقة تربيتهما وتعليمهما ، بل كان يقر كل تصرفاتى بشأنهما من غير بحث . فكانا يلبسان كما أشاء ، ويذهبان الى المدرسة التى أختار ، وكان لمربيتهما رأى تأخذ وتعطى فيه معى حين لايقول هو شيئا ، وكأن الامر لايعنيه ، وكأنهما ليسا ولديه .

وكانت حالته هذه تثير اشفاقى عليه أحيانا . فقد بدا لى أنه انحلت همته وتضعضع عزمه وتداعت ارادته فأصبح كأولئك الذين يصيبهم الانهيار العصبى ، فهم يبثون كل انسان شكواهم ولا يعرفون كيف يواجهون الحياة وأعباءها ، وهم يخشون يومهم وغدهم ويحسون الخطر فى كل لحظة يهدد وجودهم . وطبيعى أن تأثر بهذا الاضطراب عمله فى عيادته ، وتزعزعت ثقة مرضاه به . ولكننى مع ذلك لم أكن مستعدة لتخفيف ظلباتى المالية منه . لذلك أضطر أن يلجأ الى كبير فى الدولة يرجوه أن يسند اليه منصبا طبيا فيها . وكان هذا الكبير يعلم من أمره لكثرة ماسمع عنه ومنه ما أثار شفقته فأسند اليه عملا محترما لايحتاج الى مجهود فكرى . فهو اشراف ادارى على طائفة من الاطباء الناشئين فى مصلحة كبرى . وما لبثت حين علمت بذلك أن اطمأننت الى أننى فى حل من أن أمتص مرتبه هذا أو معظمه . فطفلاى أولى به من أبيهما ، ومن الواجب على وحدى أن أفكر فى مستقبلهما .

ترى هل بقيت فيه بعد كل الذى مر به بقية للنضال ، أم تراه أصبح كالجدار المتداعى لا يلبث حين تعصف به الريح أن ينقض وينهار! لقد خيل الى يوما أننى لو طلبت اليه أن ننفصل بالطلاق فانه لن

يتردد فى ذلك ، بل يتلقاه شاكرا متنفسا الصعداء مؤمنا بأنه قد آن له أن ينتقل من الجحيم الى المطهر فى انتظار يوم تتم عليه مغفرة الله فيه . لكنى خشيت ان أنا أقدمت على هذه الخطوة بنفسى أن يعاوده عناد الفلاح فيرفض لغير شىء الا تشبثا بهذا العناد . لهذا آثرت أن ألقى على صديقنا هذا العبء ، فان نجح فيه فى غير مشقة فذاك ، والا أقدمت على الخطوة الحاسمة التى اعتزمتها .

ودعوت صديقنا واتفقت معه على أن يذكر لزوجى أن الحال التى يعانيها لاتحتمل ، وأنه رحمة به يرى أن يخاطبنى فى أن ننفصل بالطلاق ، فان أنا قبلت ذلك ولم يدفعنى العناد الى لدد فى الخصومة كان ذلك خيرا له ولى . واضطلع صديقنا بهذه المهمة وخاطب زوجى كما اتفقنا . لكنه عاد يذكر لى أن زوجى أجفل حين سمع كلمة الطلاق وقال له : « وماذا يقول النـاس عنا ؟ وماذا يكون مصير طفلينا ؟ اننى احتملت وأحتمل ماتعلم ، وأكثر مما تعلم ، حتى لايشمت الشامتون بنا ، وحتى لايشعر الطفلان بأنهما ليسا كغيرهما من أبناء طبقتهما . وأنا لاأزال أطمع فى أن يرد الصبر الى زوجى رزانتها وحكمتها ، بل انى لاعتقد أنها لو خوطبت فى هذا الامر الذى تخاطبنى فيه لكانت أكثر منى انكارا له وتقززا من الكلام فيه » .

وعجبت لما سمعت .. لقد كنت أتوقع أن يغتبط الرجل بفكرة انفصالنا ، وها هو ذا يفزع منها وينفر أشد نفار . ولست أحسبه يفزع وينفر تعلقا منه بى ، أو تلبية منه لداعى محبته اياى . فلو أنه أحبنى كما أحب ليلى المجنون لما بقى فى قلبه أثارة من هذا الحب بعد الذى صنعته معه .

وهنا برقت أمامى فكرة آمنت بأنها التصوير الصحيح لما بعثه على أن يرفض طلاقى . لقد خيل اليه أن صديقنا يريد أن ننفصل

لأتزوجه • فقد أذاعت صديقتى هذا الحديث بعد انقطاع ما بيننا وألحت فى اذاعته • وأكبر ظنى أن ماتذيعه صديقتى يؤمن به زوجى، ولذلك عاند وتشبث بعنساده • نعم •• ! ذلك باعثـه على رفض ماعرض عليه أن ننفصل بالحسنى • أما وذلك شأنه فلم يبق لى مفر أن أنفذ خطتى ، ولا أظنه يستطيع مقاومتها ولو جمع فى نفسه مكر الفلاحين جميعا ، بل مكر النساء جميعا •

وقررت أن أنفذ هذه الخطة منذ غد •

الفصل السابع

لزوجى أصدقاء كثيرون من خيرة طبقات القاهرة يجتمع بهم فى ناد من أنديتها • وقد كان يتناول طعامه فى هذا النادى أثناء غيابنا فى أوربا ، كما كان يتناول بعض وجباته فيه اذا اضطره عمله للتخلف عن الحضور الى المنزل فى الظهر أو المساء • أو لو حملته على أن يتناول أكثر وجباته هناك ، وأمعنت بذلك فى ابعاده عنا وعن المنزل ، أولا يشعر بالوحدة شعورا يهون عليه أن يقبل الانفصال الذى أريده •

وتنفيذا لهذا التصميم كنت كثيرا ما أطلبه المساء فى النادى وأبلغه أن المنزل لا طعام فيه ، وأنه ان شاء أن يتناول طعامافليتناوله فى النادى • ولعله لم يكن يضيق بذلك ويتأذى منه • ولعله كان يجد فيه فرصة لاطالة المقام بين أصدقائه ، فاذا جاء الى المنزل فى موعد النوم لم يزد على أن يبادلنى تحية المساء ويذهب الى غرفته • ولم أكن صادقة فى كل المحادثات التليفونية معه ، فكثيرا ما كان يتناول العشاء معى فى تلك الليالى أصدقاء وصديقات يسر زوجى بالوجود معهم • وفى هذه الليالى كنت أشد حرصا على بقائه بعيدا عن المنزل حتى لايجد مايحببه فيه ويدعوه اليه •

وللمصادفات فى حياتنا الانسانية تصاريف عجب • فقد كلمته ذات مساء ليتناول طعامه فى النادى ، وكانت عندى ليلتها وليمة دعوت اليها عددا من أصدقائى الذين يسرون بلقائه • فلما حضروا ودعينا الى المائدة سأل بعضهم عنه فذكرت أنه اعتذر لى

فى اللحظة الاخيرة لامر طرأ عليه • واننا لنتناول الطعام اذ دخل هو علينا ووقف واجما ينظر الى هذه المائدة الفاخرة ويذكر قولى له ان المنزل لا طعام فيه • وأخـذت حين رأيته فى موقفـه منا وكدت أضطرب • لكننى ملكت نفسى وقلت فى عبارة حاسـمة انه لا مكان له على المائدة • وأراد بعض الحاضرين أن يفسح له مكانا فقلت فى لهجة الحزم : « فليبق كل فى مكانه ، أما هو فلا مكان له بيننا » وساد الحضور ، وبينهم صديقنا ، وجوم استمر حتى خرج زوجى من قاعة الطعام معتذرا فى ابتسامة متكلفة بأنه أكل قبل أن يحضر الى المنزل ، ثم عدنا الى أحاديث تافهة نقطع بها جو هذا الوجوم •

وفى الغد تناول زوجى طعام الظهيرة خارج المنزل ثم جاء مبكرا فى المساء فألفانى وحيدة فى غرفة نومى وقد تزينت لسريرى زينة كلها الاغراء • وقد ألف بحكم مهنته أن يجلس على سرير المريض حين يفحصه • وكثيرا ماكان يجلس الى جانبى هـذه الجلسة فيما مضى • أما اليـوم فلم يفعل ، بل جر كرسـيا الى جانب السرير جلس عليه وارتسم على وجهه من سيما الحزم مالم أتعوده منه قط ثم قال : « اسـمعى • اننى أريد أن أحـدثك فى هدوء فاياك أن تفسدى على هدوئى • ان ماحدث منك أمام ضيوفك أمس لايصدر عن سـيدة ولا عن امرأة من حثـالة النـاس • لقد تحملت منك ماتحملت حتى اليوم لغير سبب أعلمه • ولقد تحملته لاخوفا منك ، ولكن خوفا عليك • وخوفا عليك من نفسك • فأنت امرأة مريضة النفس ، لاتنظرين الى الحياة بالعين التى ينظر بها الاصـحاء ، بل متأثرة بعاملين هما مصدر علتك وسبب مرضـك النفسى • هذان العاملان هما الغرور والغيرة • رغم ذلك أحببتك ولا أزال أحبك • وحبى اياك ، من أجلك ومن أجل طفليـــك ، هو الذى يجعلنى أحتمل منك ما احتملت ، وأن أصبر عليه مابقى أمره بينى وبينك ، آملا أن يشفيك الله يوما فيثوب اليك رشـدك • أما أن يبلغ الامر

اهانتى على نحو ما حـدث أمس فذلك مالا قبـل لى باحتمـاله .
ويجب أن تعلمى أن هـذا البيت بيتى أنا ، وأن الذين يدخلونه
يدخلون بيتى أنا ، وأنت تقيمين فيـه وتدعين أصـحابك اليه لانك
زوجتى . وأحسبك تقرين هذا ولا تجهلينه . فلو أننا انفصلنا غدا
بالطلاق كما طلب الى صـديقنا أن أفعل لما بقى لك فى هذا البيت
مكان ، ولما استطعت أن تستقبلى فيه أحدا .

كنت أسمع كل كلمة من كلماته هذه وكأنها خنجر يطعننى فى
صميم كرامتى . ولكنى كظمت غيظى وحبست دموعى حتى اذا
أتم مقـاله أجبته فى هدوء .. « وماذا عليـك اذا أرحت نفسـك
وأخرجتنى من هـذا البيت ليكون لك وحـدك ، أو لمن يرضى
قلبك أن يحل فيه مكانى .

لم أكد أتم هذه الكلمة حتى رفع يديه وقال : « الآن أيقنت
أنى لم أخطىء فى تقـديرى . فصـديقنا لم يحضر ولم يكلمنى فى
طلاقك من تلقاء نفسه ، بل اتفقتما معا لغرض تضمرانه . لكنى
لست من السذاجة بما تتوهمان . اننى لن أنيلكما ما تبغيان ولن
أجعل نفسى وأجعلك وأجعل طفلينا أحدوثة الناس . كلا ! . لن
أفعل . لن أطلقك وان تحملت فى سـبيل امسـاكك أضـعاف
ماتحملت . كلا ! لن أنيل هـذا الجاحد للاخوة الخائن للصداقة
مايريد . أوتستطيعين أن تقولى كيف عرفته . أو لم يكن صديقى
الحميم وأنا الذى قدمته اليك وائتمنته على شرفى وعرضى واتخذت
منه أخا فخان مودتى وتسـلل الى قلبـك مكانى . ياله من غادر
مخادع . انى أحذرك مغبة السير وراءه والانخداع بمعسول كلامه .
انك لاتزالين فى أعين الناس السيدة المحترمة الشريفة التى تحمل
اسمى ، فلا تدعى هذا الماكر الخائن ينفث فى فؤادك سمومه ويدع
الناس يتقولون عليك ما أنت بريئة منه ، ويتهمونك باطلا وأنت
الطهر والعفاف والكرامة والشرف » .

وهنا بدأ الرجل يضطرب كأن به الحمى ، وأمسك برهة عن الكلام . ولم أجد وهو فى هذه الحال ما أجيبه به ، فقد غلبتنى الرأفة بحاله وخشيت أن أنا قلت شيئا أن يزداد اضطرابه .

وبدا عليه شيء من الهدوء الظاهر ، لكن نفسه كانت تتعذب ، وكانت عيناه تنمان عن هذا العذاب الذى يتأجج فى صدره . ولقد مر بخاطرى أثناء صمته أن تمنيت لو أنه ثار هذه الثورة منذ شهور وسنين ، وتمنيت لو أنه يومئذ حطم كبريائى وان أدى به الحال أن يضربنى . فلو أنه فعل يومئذ لاعتقدت أن لى عنده مكانا وأنه يريد أن يدافع عنى غيرة على .. وانى لتمر بى هذه الخواطر وأشباهها اذ رأيته يمد يده ويسحب يدى فى رفق ويقول وقد تندت عيناه وانخفض صوته: «بالله خبرينى . لم تعاملينني هذه المعاملة . انى لا أزال أحبك كما أحببتك يوم زواجنا ومن قبل زواجنا . وهذا الحب هو الذى يجعلنى أحتمل منك مالا يمكن ـ لولا الحب ـ احتماله . أو يرضى قلبك أن ينخدع بصديقنا فينكر ماضينا وينكر أبوتى لطفلينا ؟ بالله عليك ! . بحق هذين الطفلين العزيزين ! ألا ما راجعت نفسك واتقيت الله فى نفسك وفينا جميعا » .

كدت أشفق عليه وأضعف لضعفه ، بل كدت أتلطف معه وأعتذر عما بدر منى أمس له . ولكنى ما لبثت أن رأيت طيف صديقى يتبدى فى خيالى ويجفف فى عينى عبرات كانت توشك أن تنحدر . عند ذلك سحبت يدى من يده واستويت جالسة فى سريرى ونظرت اليه بعينين انقلب حنانهما حزما بل قسوة وقلت : « يرحمك الله يا صديقى ! لقد كدت تمس قلبى كما لم تمسسه من قبل قط . فما عهدتك فى كل ماخلا من سنى حياتنا تتقن التمثيل المسرحى وتستطيع أن تتلاعب بالعواطف . أما اليوم فما أبرعك ممثلا تتقن الادوار المتناقضة . فأنت روميو وأنت عطيل فى وقت معا . أتراك لعب بك اغرائى وأنا فى هذا السرير فانتقلت من

التهديد الذى حفظت دوره قبل أن تحضر الى ، الى الاستعطاف ، والى الحديث عن الهوى والغرام • وانى لأسأل نفسى ، ولك هذه المقدرة ، أى دور تمثل حين تلقى صديقتى ؟ أحسبك حين تراها لايبقى أمامك من الوجود كله سواها ، فهى أمامك الشمس والقمر ، ولعلها فى نظرك أبهى من الشمس والقمر » •

أيقظته عبارتى الأخيرة فنظر الى بعينين فيهما عطف وفيهما حزم وقال : « حسبك الله يا ظالمة • فأنت تعلمين أنى لو أردت أن أتزوج صديقتك بعد وفاة زوجها لما عزت نفسها على ، واننى لو أردت أن أتزوجها بعد أن بدا اليأس لها من صديقنا لاستجابت فى غير تردد ، واننى لو أردت أن أتزوجها اليوم أو غدا لقبلت فى اغتباط أى اغتباط • لكنى لم أفكر قط فى أن أتزوجها ولن أفكر فى ذلك • فهى لى منذ مات زوجها بمثابة الأخت المحرمة على • وأنت تعلمين أنى أعرفها وأعرف أسرتها منذ بدأت أمارس مهنة الطب • ولعلى فكرت فى أن أتزوجها قبل أن أعرفك وأن يكون بيننا من الود ما أدى الى زواجنا • ولم أجرب عليها من يومئذ الى اليوم مايمس شرفها وعفافها رغم ماتتهم به من خفة ورغم جمالها الفاتن • فبالله عليك لاتسرفى فى تصوير عواطفى نحوها ، فعواطفى كلها لك • .وليس بينى وبين صديقتك الا الاخاء يدفعنى اليه سابق معرفتى بها وبأسرتها وبزوجها » •

دهشت لهذا الدفاع الحار عن امرأة قاطعتنى وأذاعت فى كل مجتمعات القاهرة ما أذاعت عنى • فلو أن عواطف زوجى كانت كلها لى كما يقول لغضب لى من صديقى ولما ذكر جمالها الفاتن وريقه يتحلب وكأنما يريد أن يطير اليها ليستمتع بنظرة من عينيها الساحرتين • لذلك قلت له : « انك ياصديقى لست ممثلا بارعا وكفى ، بل أنت محام بارع كذلك • وكنت أود أن تكون قضيتى أقرب الى قلبك من قضية صديقتى فتدفع تخرصاتها عنى فى كل

مجالسها بهذه الحماسة التى تدافع بها عن عفافها وشرفها » .

وبعد هنيهة أردفت : « ولو أننى أردت أن أدافع عن صديقنا كما تدافع أنت عن صديقتى لما أعوزتنى الحجة الصادقة . فهو لم يخنك كما تزعم ولم يحاول التسلل الى قلبى . ولكنى أشعر بأن حديثنا الليلة طال ، وأن من الخير أن تنسحب أنت الى غرفتك ، وأن تدعنى أستريح فى مخدعى » .

وابتسم هو وقد بدا عليه شيء من الاطمئنان ، أو من الاذعان . وأطفأت أنا مصابيح الغرفة وحاولت أن أنام فذهبت محاولتى عبثا . فقد أخذت أستعيد الحديث الذى دار بينى وبين زوجى كلمة كلمة وحرفا حرفا ، ثم أخذت أفكر كيف أواجه هذا الموقف . فلو أن هذا الحديث جرى بيننا قبل أن أوجه اليه فى وجود أصدقائنا تلك الاهانة التى أدمت قلبه ودفعته لما فعل لكان لى فيه رأى . أما وقد شعر بأنى أتعمد احراجه فأراد بما فعل أن يفسد خطتى فلن أمكنه مما أراد . لقد تحطم ما بيننا منذ عهد طويل . وهو قد واجهنى خلال هذا العهد كله بجمود يدل على أنه لايحس نحوى بأى عاطفة . فمجيئه اليوم بعد اللطمة القاسية التى نالته منى يتحدث عن قلبه وحبه ليس الا أحبولة يتوهم بها القدرة على تغيير ما استقر عليه عزمى . وذلك مالا سبيل اليه .

وفكرت فيما عساى أفعل فى هذا الموقف الذى خلقه هو بأسلوب لا يخلو من براعة . واستقر بى الرأى بعد طول الروية على أن أكتب اليه خطابا يكون عريضة اتهام ، وانذارا نهائيا فى الوقت نفسه . وأردت بالفعل أن أبدأ الكتابة رغم تقدم الليل . ولكنى شعرت بالجهد فأطفأت الانوار من جديد ولزمت سريرى .

وكان النهار ضحى حين استيقظت فى الغداة أجمع أعصابى المهدمة . وسألت عن زوجى فاذا هو قد استيقظ وتناول فطوره

وخرج كعادته الى عمله • وشعرت بالضيق يكاد يخنقني وبالحاجة الى الهواء أتنفسه وكأن المنزل على سعته لم تبق فيه أثارة من هواء • ولذا قمت فتناولت فنجانا من اللبن والقهوة واكتفيت به عن كل فطور ، وخرجت الى الشوارع التمس فيها متنفسا ، وجعلت أسير حتى انتهيت الى حدائق الجزيرة • هنالك وقفت على شاطىء النيل استنشق الهواء ملء رئتي أسترد به نشاطي وهدوء أعصابي • فلما ردت الى حيويتي أخذت أفكر فيما حدث أمس وفي الخطاب الذى أكتبه الى زوجي •

ولم تطاوعني نفسي على العودة الى المنزل ساعة الظهيرة ، فعاودت السير حتى بلغت حديقة الحيوان فدخلتها وذهبت الى جزيرة الشاى وتناولت فيها طعام الغداء ، جالسة الى مائدة على حافة بحيرتها الصغيرة ونظرى كله الى الماء والى الطيور الجميلة التي تعوم فيه ، وفكرى مشتت يحاول أن يجمع مايحويه خطابي الى زوجي • فلما كانت ساعة الشاى أقبل قوم وعليهم سيما المرح وفي أصواتهم رنين المسرة • وأفسدت ضجتهم الطروب على خلوتي فغادرت مكاني وخرجت من الحديقة وناديت سيارة أقلتني الى المنزل •

فلما احتواني المنزل عاد الضيق يأخذ بخناقي ، فذهبت الى غرفتي ، وجلست الى نضد زينتي وهيأت منه مكتبا ، وأخذت أدون ماأريد أن أكتبه لزوجي • لقد كانت الكتابة تستعصي على حين الجأ الى الحجة والمنطق ، فاذا أرخيت العنان لعاطفتي وما تتنفس عنه اندفع قلمي لا يكبو ولا يتعثر • وسطرت بضع صفحات أعدت قراءتها فاذا هي ليست عريضة اتهام وكفى ، بل تأنيبا موجعا في لهجة مقذعة لا تتفق ومألوف رزانتي واتزاني ، ولا مع الهدوء الذى حاول زوجي به أن يصوغ كلامه لى • لذلك أعدت الكتابة وحاولت التخفيف من حدتي • لكنى لم أستطع أن أكون هادئة ولا موجزة ،

بل كتبت عشرات من الصحف كانت سطورها تتـدافع الى قلمى ولا تكاد يدى تجاريها فى سرعة تدفقها لتدون كـــل كلمة من كلماتها • فلما فرغت من تدوين الكتاب وراجعته بعثت به اليهوأقمت أنتظر النتيجة التى يرتبها عليه

ولست أريد أن أنقل نص ذلك الكتاب الى هذه القصة وأنا كلما تلوته بعد السنين التى انقضت على كتـابته خجلت وتولتنى الدهشة كيف استطعت أن أفرغ كل مافيـه من قحة واقذاع • وحسبى أن أذكر أننى قلت فيه اننى لم أشعر بالسعادة منذ تزوجنا يوما من الايام ، وأن مسلكه فيما ادعاه من معاونة صديقتى للحصول على ميراثها وميراث أبنائها كان معيبا دنيئـا ، وأنه أهملنى وأهمل ولدينا وكأننا من سقط المتـاع ، وأنه عاملنى كما لو كنت خادمة أبيه ، وأنه كان يغتبط بسفرى الى أوربا ليخلو له الجو ليندفع فى تيار أهوائه ومفاسده ، وأنه ضيق الفكر ريفى العقلية الى الحد الذى جعله يقول لى فى آخر حديث له ان هـذا البيت بيته وأننى أقيم فيه بأمره واذنه وتسامحه ، وذكرت أننى لن أبقى فى هذا البيت ولن يعرف هو بعد ذلك مقرى ، وأنه يستطيع ان شاء أن يطلبنى الى بيت الطاعة ، واننى أتحداه أن يفعل ليتيح لى فرصة الدفاع أمام القضاء عن نفسى وعن حياتى التى حطمها ، ولأتمكن بعد ذلك أن أطلب الانفصال عنه ، ويومئذ لن يتردد قاض فى الحكم لى ، ثم يعلم الناس كم قاسيت فى سبيل المحافظة على سمعته وسمعتى ، لا حبا اياه ولا حرصا على الحياة معه ، لكن من أجل طفلينا حتى لايصيبهما رشاش من مسلك أبيهما المشين •

ولم أتحرج حين الحـديث عن معاونته صـديقتى فى أن أصفها بمـا أعتقـد أنهـا أهل له ، وأن أذكر أن صــلاته بها أوحت بها الأهواء ولم توح بها المروءة ولا الانسانية ، كما اننى ذكرت له أنه سبنى سـبا قبيحا حين تكلم عن صـديقنا وزعم أنى دبرت معه

أن يتحدث اليه في أمر طلاقي منه لغرض في نفسينا ، وأعدت في خاتمة الكتاب أنني لن أراه ولن أسمح له بأن يراني ، وأنني لن أبقى في بيت يسميه بيته ، وأنه لن يعرف لي مقرا ، وانني أحتقر نفاقه حين يزعم لي أنه لا يزال يحبني ، وأنا أعلم علم اليقين أن قلبه لغيري ، هذا ان كان قلبه يعرف الحب أو يملي عليه عاطفة كريمة صادقة •

ماذا كان شعوره حين قرأ هذا الكتاب ؟ لا أدري • لكن صديقنا جاءني بعد أيام يقول لي أنه التقى بزوجي مصادفة ، وأنه رآه في حال من الهم والأسى تثير الشفقة ، وأنه تحدث اليه محاولا أن يخفف عنه فاذا عيناه تدمعان ، واذا هو يخرج من جيبه خطابي ويدفعه اليه ويطلب اليه أن يقرأه • قال صديقنا : « وقد تصفحت بعض صحفه فأدهشني أنه لم يحضر اليك ولم يضربك ولم ينتقم لنفسه من بذاءة لم أقرأ ولم أسمع قط مثلها من سيدة أو امرأة من السوقة أو سواد الدهماء • ولو أنه فعل لما استطعت الآن أن تعتذري له عن هذا الطيش الجنوني الذي أملى عليك ماكتبت • أنت حرة في أن تكرهيه أو تحبيه ، لكنك لست حرة في أن تهينيه وتسبيه » •

قلت : « أتراك عاودتك نزواتك السابقة حين أردت أن تتزوج من صديقتي ، وأن هذه النزوات هي التي دفعتك للتطاول على الساعة • »

نظر الرجل الي في صمت حين سمع مني هذا الكلام نظرة تأنيب وعتاب ، ثم استدرك هذه النظرة بعد برهة وقال : « وماذا يعنيك أنت من أن تعاودني نزواتي أو لاتعاودني ؟ أم تريدين أن تسمعي مني مرة أخرى أني لن أتزوج صديقتك ؟ اذن فاعلمي اني لن أتزوجها • نعم • لن أتزوجها • وليس ماتتوهمين من نزواتي هو الذي دفعني لاخاطبك بهذه اللهجة التي خاطبتك بها •

لكنك أسرفت فى اهانة رجل لا يسوغ لك أن تهينيه وأنت لاتزالين زوجته وله عليك حقوق أولها احترامه • فالزوجة قد لاتستطيع أن تحب زوجهـا ، ولكنهـا لاحق لها بحال أن تهينـه • أفهمت الآن سبب ما سميته تطاولى عليك »

هذه كلمات قاسية لم أسمع من قبل مثلها • لكنها نزلت على بردا وسلاما • أكان ذلك لأنه أكد من جديد أنه لن يتزوج صديقتى ؟ أم لانه خالف بزجره اياى ماألفت من جمود زوجى ؟ لا أدرى • لكنى ابتسمت حين أتم كلامه وقلت : « ماأظرف حديثك وماأرق فلتات لسانك » • ثم نظرت اليه فى خبث نظرة حرصت عيناى على أن تكذب بها لسانى وأضفت •• « وأى شأن لى ان أنت تزوجت صديقتى ، اللهم الا أن تكون حريصا على أن تجىء معك لزيارتى » •• وازدادت ابتسامتى وضوحا ونظرتى خبثا وزدت •• « هذا الا أن تخشى أن يكون عندى قريبى الذى رأيته معها فى السيارة »

وكان كل جواب الرجل : « دعينى من صديقتك فقد انقطع مابينى وبينها كما انقطع مابينك وبينها • لكنك ذكرت فى خطابك لزوجك أنك لن تبقى بهذا البيت ، فالى أين تذهبين ؟ وهلا تخشين مايتقوله الناس عليك وأنت لاتزالين فى عصمة زوجك ، ولا يزال هو مصرا على امساكك • »

قلت : « أما أنى سأترك هذا البيت فذلك أمر قررته ولا رجعة فيه • ولست أخشى مايقوله الناس لانهم لايعلمون ماقاسيت هنا • فقلوب الناس كالحجـارة مادام أمر لايمسهم ، وأن أوقف هـذا الأمر من يعنيه على حافة اليأس ودفعه الى الانتحار • لقد دبرت أمرى فى سر ، ولعلى لا أضن عليك أنت بسرى يوم يصبـح أمرا مقضيا • فأنت وحدك الذى أجد فى التحدث اليه السلوى عن بلواى ومنقذى من عزلة يحاول زوجى أن يضرب نطاقها حولى بمايذكره الى أصدقائنا عنى • فأنا أعلم أنه تحدث الى غير واحد من هؤلاء

الأصدقاء عن الخطاب الذى بعثت به اليه وذكر لهم شر مافيه . لكن مايقوله لم يعـــد يعنينى وقد انحسم مابيننا ولم يبق سبيل الى غير انفصالنا . »

وتركنى صديقنا بعد حديث حاول به أن يردنى الى ماسمـــاه الصواب . فلما خلوت الى نفسى أخذت أقلب صفحاتها وأنا مضطربة الخاطر حينا ، هادئة حينا . وعدت بذاكرتى الى حديث زوجى الاخير معى ووقفت منه عند كلامه عن مرضى وعلتى ، وأن الغرور والغيرة هما مصدر هذه العلة . عند ذلك ثارت نفسى وسمعت بأذنى صوتى وأنا أقول : « يابؤس لهذا الرجل ! أو لو صح مايزعم أفلا يرضيه أن أغار عليه ! .. أم يريد أن أصنع صنيعه فأختار رجلا غيره أصفيه مودتى وأهبه قلبى . أم تراه يحسبنى بعض متاع هذا المنزل ، يسكن اليه متى شاء ، ويدعه متى شاء ، ويركله برجله أو يلقيه من النافذة ان أراد ؟!. ان يكن ذلك رأيه فليبحث عمن توافقه عليه . ولألقين عليه درسا لن ينساه ماعاش .»

وشغلت بالتفكير فى ترك هذا البيت الذى يسميه بيته . فأين أذهب ؟ وكيف أنفذ ماذكرته له من أنه لن يعرف لى مقرا ؟ ليس ذلك يسيرا ان أنا بقيت بالعاصمة .. وهو ليس يسيرا كذلك فى مدينة صغيرة تثير أتفه الحوادث فيها طلعة ساكنيها فهم يتحدثون عنها وتلوكها ألسنتهم ويتناقلونها فلا يبقى فيهم صغير ولا كبير لايعرفها . اذن فليكن مقرى الجديد بالاسكندرية ، ولأذهب اليها أبحث فيها عن مسكن لى وللطفلين . فالاسكندرية مدينة فسيحة الأرجاء مترامية الاطراف ، وحسبى يوم أقيم بها أن لا أختلط بأهلها وأن أجعل مقامى فى حى ناء من أحيائها . وسأستحلف صـديقنا يوم أبوح اليه بسرى ألا يبوح به لأحـــد . ولن أقبل منه الا أن يقسم بقبر أمه . فذلك قسم لايحنث هو به أبدا .

فلما صـح منى العزم ترددت على الاسـكندرية ثم اخترت فى

ضاحية من ضواحيها النائية بيتا صغيرا أنيقا تحيط به الاشجار ، وكأنما بناه صاحبه للغرض الذى أقصد اليه • وبعد أيام مر بى صديقنا فأخبرته بما فعلت بعد أن أقسم لى بقبر أمه أنه لن يبوح بسرى • وبعد أيام جاءت الى المنزل عربة من عربات نقل الأثاث حين كان زوجى فى عمله فنقلت ماأخذت الى الاسكندرية • وقبل أن يحضر زوجى كنت قد سافرت أنا والمربية والطاهى الى مقرنا الجديد •

وتنفست الصعداء حين نزلت بيتى أنا ، لا بيت زوجى ، وشعرت كأن عبئا ثقيلا قد انزاح من فوق صدرى ، واستنشقت رئتاى هذا الهواء الجديد ، هواء الحرية المطلقة ، وخيل الى أن السعادةأصبحت فى متناول يدى ، وأننى ألقيت ماكان يساورنى من هموم فى لجة البحر المترامى بموجه المصطخب أمام نظرى • وزاد فى غبطتى أنى رأيت طفلى مغتبطين بهـــذا الانتقال كأنما كانا يعانيان ماكنت أعانى ويضيقان بالجو الخانق الذى كنت أضيق به •

وبعد أسبوع أو نحوه جاء صديقنا يزورنى ، فلما رأى المنزل ونظامه هنأنى على حسن اختيارى ، ثم تحدثنا فى شئون حرص من ناحيته وحرصت من ناحيتى على ألا نشبـوبها بشىء من ذكرى الماضى • وقد حمدت له عنايته بسؤالى عن الطفلين وأية مدرسة اخترت لهما ، ونصحه اياى أن أحتفظ بمربيتهما • وانقضى الوقت وأنا أقص عليه فى مرح كمرح الأطفال ماأجده فى هذه الحياة الجديدة من مسرة ، أيسرها جلوسى الى شاطىء البحر ، أسمع الى صريف أمواجه ، وأستنشق طيب هوائه،وأمد بصرى الىآفاقه التى لاتنتهى ، والتى تحجب فى طياتها غيب السموات والارض •

أتاح لى هذا الهدوء الذى اشتملنى أول مقامى بالاسـكندرية ، لبعده عن موطن النضال ومايثيره النضال فى النفس من غضب ، أن أسبر غور نفسى لأستظهر عواطفى • لقد بذلت الجهد فى

مقاومة صديقتى ، أريد أن أستخلص من براثنها زوجى لأختصه خالصا لى ولولدى ، غير مطمئنة لتوكيده المكرر لى أنه لايحبها ولا يحب غيرى ، وأن تردده عليها عناية بشأن أولادها لاتشوبه قط ريبة • وقد بقيت أمقتها رغم شعورى فى أعماق روحى بأن حجابا قام بينى وبين زوجى يحول دون تآلفنا وامتزاج قلبينا • وقد بلغت قسوتى فى مقاومتها ذروتها يوم أوحيت الى صديقنا فذهب الى الصحراء فألفاها فى سيارة مع قريبى ويدها بين يديه ورأسها على كتفه فأفسد ذلك عزمه على التزوج منها ، وكان هذا الزواج موشكا أن يتم • وأنا ان أحسست فى نفسى ميلا لصديقنا واستلطافا اياه ، فلم يبلغ هذا الميل وهذا الاستلطاف مبلغ الحب الذى يجيز لصاحبه أو لصاحبته المغامرة بمثل مافعلت • ولا أحسب غيرتى من جمالها باعثى على هذا النضال • وهل ترانى تحركنى غيرة من مثلها ولم يقف جمالها الساحر حائلا دون فتنة المعجبين بى وقد فتنتهم جاذبيتى وذكائى وسحر حديثى وسائر مواهبى ! وحسبى أن أذكر الالمانى الذى كان يجالسنا معا بالاقصر وكيف دفعه ذكاؤه وواسع علمه وسعة أفقه ففتن بى وسحره حديثى ولم يفتن بها ولم يسحره جمالها • فما الذى حركنى اذن الى هذا النضال ؟

لم أهتد الى جواب على هذا السؤال بعد أن جهدت أياما حسوما ألتمس الجواب عليه • وعند ذلك آثرت أن أدعه واثقة أن الزمن سيكشف لى عن هذا الجواب • وعدت الى طمأنينتى السابقة الجميلة وقد زادت حياتى الجديدة فى سعادتى بها واستراحتى لها •

كان صديقنا يزورنى فى عطلة آخر الاسبوع مرتين على الاقل فى كل شهر • واننا يوما لنتحدث اذ فتح الباب ورأينا زوجى وكأنما يريد أن يدخل علينا • وأجفلت لمرآه وتولتنى الحيرة ماذا أصنع • لكنه لم يدع لى فرصة للتفكير • فانه مالبث حين رآنا

أن أرتد على عقبه وأن أقفل الباب الذي فتحه وأن هرول مسرعا الى خارج الدار حتى خلت أنه طيف لا حقيقة له ، وأن خيالى هو الذي صوره لى • لكنني صدمت بهذه المفاجأة صدمة هزت أعصابي• واضطر صديقنا أن يدعو المربية لتسعفني • وانقضى وقت غير قليل قبل أن أسترد هدوئي • فلما سكنت نفسي واستطعت أن أفكر وأن أتكلم قلت :

ـ كيف اهتدى هذا الرجل الى المنزل ، وكيف سولت له نفسه أن يصعد الى هنا ؟

ولم يكن صديقنا أقل مني حيرة ولا دهشة ، فهو لم ير زوجي منذ أطلعه على خطابي ولم يحدث له من أمري ذكرا • من ذا الذي هداه اذن الى بيتي ؟ وهل تراه يريد أن يفسد على حياتي من جديد بعد أن تركت له العاصمة كلها ، ومافيها ومن فيها ؟ لقد كان يخشى قالة الناس فينا اذا هو سرحني ولم يمسكني • أما وقد حسمت مابيني وبينه بهذا الانفصال من غير طلاق فما مطاردته لى كأنني سجين هارب من سجنه ولا مفر من اعادة القبض عليه !؟

انصرف صديقنا حين أوشك النهار أن يولى ، بعد أن حاول ما استطاع أن يهون على ماحدث • فلما خلوت الى نفسي ارتسمت أمامي صورة زوجي ساعة فتح الباب علينا ووجدني في خلوة مع صديقنا وكاد يتولاني الدوار من جديد • ترى أى ظنون قامت بذهنه لهذا المنظر الذي لم يكن يتوقعه ؟ أم تراه جاء وهو يعلم بوجود صديقنا عندي فأراد أن يظهرني على أنه يعلم من أمري ماأردت ستره ؟ أم أنها المصادفة البحتة هي التي ساقته في تلك الساعة وأوقفتني منه موقفا ارتج على فيه فلم أستطع أن أقول كلمة ، ولم أستطع أن أزجره لاقتحامه على بيتا هو بيتي ، وليس بيته ولا شأن له به ؟ •• وكذلك أخذت أقلب هذا الأمر في نفسي ، ثم ترتسم بين آونة وأخرى أمام

خيالى تلك الصورة التى أثارت انزعاجى • ترى أين ذهب بعد أن ولى مدبرا وأقفل الباب وراءه ؟ هل ذهب يدعو من يشهد مارأى ؟ لكن أحدا لم يحضر • وهل تراه غادر الاسكندرية أم بقى بها ؟ وهل أستطيع أن أراه لاؤنبه على فعلته المنكرة ؟

وجفا النوم مضجعى تلك الليلة لكثرة مافكرت فيما عساى أصنع، وكيف أستطيع أن أعلم كيف عرف زوجى مقرى • ولم يغمض لى جفن حتى الهزيع الاخير من الليل • فلما استيقظت ضحى الغد ناولتنى مربية أولادى خطابا عرفت لأول مارأيت عنوانه أنه من زوجى ، وتوقعت قبل أن أفتحه أن أقرأ فيه من فحش القول وهجر الكلام مالاأستطيع الرد عليه ، وما لزوجى كل العذر فى أن يقوله • فلما فتحته وتلوته انقلبت مخاوفى دهشة وعجبا ، وتولانى من الحيرة ماكاد يذهلنى • فهو كتاب موجز كل الايجــاز ، وفيه يقول زوجى بعد تحية رقيقــة انه لم يحضر الى بيتى لظنــة قامت بنفسه كما قد أتوهم ، ولكن عليه واجبات بصفة كونه زوجا وأبا لايمكن أن يهملها ، ولا بد له من أدائها ، ويسألنى أأفكر لصحتى وصحة الولدين أن أسافر الى أوربا هذا العام ليبعث الى نفقات السفر كما عودنى ، ويختم خطابه •• زوجك الوفى المخلص •

لم أصــدق عينى حين تلوت الكتاب ، فأعدت تلاوته مرة ومرة ومرة ، ثم شعرت بعد هذه التلاوة وكأننى هويت من أعلى السحاب• ياعجبــا ! أو لو كانت فى يد هــذا الرجل طبنجة أفرغها فى وفى صديقنا ، أفكان يلومه أحد ؟ أو لو كانت معه هراوة أدارها علينــا ثم طرد صديقنا كما يطرد الكلب ، أفما كان الناس جميعا يرونه محقا ؟• أو لو كان قد وجه الينا أقبح الشتائم وأقذع السباب ، أكان فى مقــدورنا أن ندافع عنا بكلمــة ؟ لكنه لم يفعل من ذلك كله شيئا ، بل انسحب وكأنه لم يرنا ، وهاهوذا يبعث الى بذلك الكتاب العجيب يريد أن يؤدى واجب الزوج والأب ، ويعرض

على أن أسافر الى أوربا • أأستطيع مع ذلك أن أهمل الرد عليه ؟ واذا رددت فماذا أقول ؟!

وأسندت رأسي برهة الى مقعدى أفكر فى الأمر • على أننى مالبثت أن مر بخيـالى أن يكون هـــذا الخطاب أحبولة نصب لى شباكها • فلو أننى قبلت ماعرضه لكان ذلك أقوى سند له اذا أراد أن يكرهنى بحكم القضاء على العود الى بيته والى طاعته • أأرفض اذن ؟ ولكنى ان رفضت أسقطت حجتى فى مطالبته بنفقتى ونفقة الطفلين اذا اقتضى الأمر ! وانى لأفكر فى هذا كله اذ جاء صديقنا يبلغنى أنه عائد الى القاهرة ، ويسألنى أفى حاجة أنا لأى رأى أو معونة • ولعله أراد أكثر من هذا وذاك أن يرى الأثر الذى تركته مفاجأة زوجى فى نفسى بعد انقضاء يوم كامل عليها • فلما أريته الخطاب وتلاه تولاه من الدهشة ماتولانى ، وأخذ يقلب الامر معى على وجوهه بعد أن ذكرت له ماثار عندى من ظنون • ثم اننا اتفقنا على أن أكتب له فى ايجـاز كتابا أقول له أنه أدرى بواجبه أكثر منى ، وأن طبه يسمح له بأن يقدر حاجة الولدين للسفر الى أوربا • فان رأى ذلك ورأى أن أسافر معهما للعناية بهما فاننى لن أقصر فى القيام بواجب الامومة ، وسأنهض به كما ينهض هو بواجب الأبوة • اما ان رأى بقاء الطفلين بمصر فلا اعتراض لى على ذلك فصحة الولدين غاية همى والعناية بهما مصدر سعادتى وهنائى •

على أن كتاب زوجى وردى عليه لم يهديانى الى جواب عن سؤالى: كيف عرف مقرى ؟ وقد عرفت من بعد أنه علم بتردد صديقنا الى الاسكندرية فأيقن أنى أقمت بها ، فاتصل بمحافظها ، وكان صديقه ، وطلب اليه أن يدله على عنوانى • ولم يجد المحافظ مشقة فى الاهتداء الى حيث أقيم ، اذ سأل رجال الادارة فى أحياء الاسكندرية جميعا فجاءه من أقيم فى حيه بالعنوان فأبلغه الى زوجى • عند

ذلك أيقنت أن من يعيش فى جماعة منظمة يصعب عليه أن يحتفظ بأسرار حياته ، وبخاصة ماكان منها واقعا تحت نظر الدولة ورجالها كمحل السكن .

وأقمت أنتظر تصرف زوجى بعد ردى على خطابه . ولم يطل انتظارى . فبعد أيام تناولت كتابا به تحويل على أحد بنوك الاسكندرية بنفقة اقامتنا ، وفى الكتاب أن محل كوك أصدر تعليماته الى فرعه بالاسكندرية ليعطينى تذاكر السفر لى وللولدين وللمربية الى أوربا والى حيث أريد التنقل بين أرجائها ذهابا وايابا حتى عودتى الى مصر ، وأنه يريد أن يعرف الزمن الذى اعتزم قضاءه فى تلك الربوع ليبعث الى تحويلا بالنفقة اللازمة له .

لم تكن دهشتى اذ تلوت هذا الكتاب بأقل من دهشتى يوم تلوت الكتاب الأول . فلو أننى كنت مكانه حين رآنى أتحدث فى خلوة الى صديقنا لأكلت الغيرة قلبى ولما ملكت نفسى ولما استطعت أن أضبط أعصابى . وهاهو ذا يبعث الى بالنفقة كأن أمرا لم يحدث ، وكأنى لا أزال أهلا لعطفه وحبه . أى انسان هذا الرجل وكيف ظل واثقا بى ليوقع كتابه الى « الزوج الوفى المخلص » وكأنى لست دونه اخلاصا ولا وفاء . أم يحسب نفسه قديرا على أن يشترينى بالمال !. ان يكن ذلك ظنه فقد خاب رجاؤه . فلست بالجامدة التى تستطيع أن تتحكم فى أعصابها وعواطفها كما يتحكم هو فى أعصابه وعواطفه !

وألفيت نفسى ، بعد أن تلقيت كتابه الاخير ، أمام الامر الواقع . لذا ذهبت الغداة الى البنك فقبضت التحويل ، ثم ذهبت الى كوك لمخاطبتهم فى أمر السفر ، واستعنت بهم فى تصوير خطته وبرنامجه ، ووعدتهم أن أعود الغداة لابلغهم مطالبى . وأخذت وأنا فى طريق عودتى أفكر من جديد فى زوجى وجموده أمام منظر يثير الغيرة

فى نفس أكثر الناس جمودا وأشـدهم لزوجته ـ التى لاتزال على ذمته ـ كراهية واحتقارا •

على اننى سمعت اذ ذاك صوتا ينادينى منبعثا من أعماق نفسى : « لك الله ياظالمة ! • أو تظنين أنه كان يحمل على نفسه كل ماحمل ، ويكلف نفسه عبء سفركم وحاله المالية ماتعلمين ، لولا أنه أراد أن يفرق بينك وبين صديقنا من غير ضجة تفضحكما وتسي الى ولديكما؟ •• خففى اذن من غلوائك واعلمى أن غيرتك الحمقـاء وكبرياءك الغرور عما علة ما أنت فيه ، وأنك لولاهما لاستطعت أن تكونى أسعد النساء •• »

أزعجنى هذا الصوت ، فلم يبق فى قلبى ذرة من عطف على هذا الرجل ، أو عاطفة تقربنى منه ليفرق بينى وبين صديقنا • واذا صح أن غيرته هى التى دفعته ليحمل على نفسه ويحتمل عبء سفرنا الى أوربا فأين كانت هذه الغيرة من سنوات مضت ؟ واذا كان يظن أن هذا السفر يصلح ماأفسد فما أفحش خطأه • لقد تنافر ود قلبينا فلم يعد الى تجاوبهما سبيل • أما غيبتى عن صديقنا أشهر الصيف فلا أثر لها فى نفسى ، فليس بينى وبين الرجل الا أنه كان شهما ذا مروءة ، سندنى فى أوقات محنتى ، وأظهر من الرجوليـة ازاء صـديقتى مالم يظهره زوجى ، وأبدى من العطف على ولدى منذ انتقالى الى الاسكندرية مااستحق ثنائى الجميل •

ومر بخاطرى برهة أن أرفض السفر وأن أظل بالاسكندرية كيدا لزوجى وامتحـانا جـديدا لغيرته • ولكنى خشيت ان فعلت أن يتمسك على بهذا الرفض ويتخذه حجة لامر يدبره ضدى ، فذهبت الغداة الى كوك ورتبت معه برنامج رحلتنا وطلبت اليه أن يعد تذاكر السفر كلها ، ثم مررت به بعد يومين وأخذت كل ماأعده • وأبلغ المحل الرئيسى زوجى ماحدث فبعث الى بكتاب أرفق به تحويلا

جديدا لنفقات السفر ، وبعث معه بالجوازات اللازمة لى وللطفلين والمربية وتمنى لنا رحلة سعيدة موفقة •

وجاء صديقنا قبيل السفر يودعنى ويذكر أنه كان يود أن يرانى ساعة السفر لولا مخافته أن يلتقى بزوجى على الباخرة لقأء تخشى مغبته • فلما كان يوم الرحيل وذهبنا الى الميناء ألفيت زوجى فى انتظارنا ، فلما رآنا أقبل علينا وقبل الولدين وسلم على وحيا المربية وصعد معنا الباخرة واطمأن معنا الى حجراتنا منها والى موضع متاعنا بها ، ثم ذهبنا جميعا نستريح فوق ظهر الباخرة ، فسرت أمامه وسار خلفى ممسكا كلا من الولدين فى احدى يديه حتى أجلسهما معه على مقعد طويل • ولقد أخذ يداعبهما ، ويقبلهما ، وأخذت أرق له وأرثى لحاله • واننا لكذلك اذ فاجأتنا المصادفة بمنظر ارتاع له قلبى • فقد رأيت صديقتى مقبلة علينا وحولها عديد من معارفها والمعجبين بها وهى توزع بينهم نظراتها الساحرة وابتساماتها المشرقة وتبادلهم فى صوت خافت عبارات لم أتبينها • وأشحت بوجهى حتى لا أراها ، ومرت هى بى فى استخفاف وكأنها لاترانى • ولكنها وقفت عند زوجى وحيته وقبلت ولدينا وبادلته عبارات فهمت من مجموعها أنها تسأله ان كان مسافرا معنا ، وأنه يجيبها أن عمله لايسمح بهذا السفر • اذ ذاك تضاحكت فى دلال وقالت بصوت مسموع : « كم آسف لذلك • فقد كانت رفقتك تسعدنى ولو لم تطل لأكثر من الايام التى نقضيها على ظهر السفينة حتى نصل الى جنوا • »

هى اذن مسافرة معى على الباخرة • وقد كان زوجى يعلم لاريب بموعد سفرها • أتراه جاء اليوم ليودعنا ، أم اتخذنا سلما ليودعها ؟ هاهى ذى تنظر اليه كأنما تريد أن تلتهمه بعينيها ، وهو يحدثها ملقيا بنظره الى الارض كأنما خجل من أن أراهما يتحادثان! وحانت منى التفاتة الى مربية أولادى فهمت منها ماأريد فأسرعت الى

الولدين وجاءت بهما عندى . وصديقتى تتعمد اطالة الحديث حتى استغرق دقائق خلتها دهرا أرهفت أذناى أثناءه لأسمع مايدور بينهما من حديث . ولاحظت منذ جاء الولدان عندى أن زوجى يريد أن ينهى هذا الحديث ليعودا اليه . وأدركت صديقتى ذلك من ردوده المقتضبة فسلمت عليه سلاما حارا وودعته بنظرة بارعة وقالت فى ابتسام ساحر : « أرجو أن أراك حين عودتى مستريح البال موفور العافية »

فلما عاد الى مجلسه على مقعده الطويل نظر الى ولديه وأومأ اليهما برأسه فهرولا نحوه مسرعين ، وأجلسهما معه كما كانا من قبل وعاد يقبلهما ويداعبهما . فلما أعلنت الباخرة المودعين بصوتها الضخم تؤذنهم بالانصراف ضم كلا من الولدين الى صدره ثم مسح عينيه بمنديله وأقبل نحوى فسلم على وعلى المربية وقصد نحو السلم يهبط عليه الى رصيف الميناء .

وجرى ولداى مع المربية الى الناحية الاخرى من الباخرة حيث السلم ليتمكنا من رؤية أبيهما حين انصرافه . ومكثت أنتظر عودتهما . لكنهما طال غيابهما لأن أباهما وقف يشير اليهما ويناديهما ويلوح بمنديله الأبيض حتى تحركت الباخرة واستدارت نحو مدخل الميناء الى فسحة البحر . عند ذلك عادا فقبلتهما وقلبى يدق وكأنما يقول فى دقاته : تستطيعين أن تنفصلى عن هذا الرجل بجسدك . لكنك لن تستطيعى أن تفصلى حياتك عن حياته وهذان الطفلان يربطان بينكما بأوثق رباط .

وتخطت الباخرة الميناء الى البحر وأطلقت لحركاتها العنان وأخذت الاسكندرية تتوارى شيئا فشيئا فى حجاب الأفق . فلما لم يبق أمام ناظرى الا السماء والماء تمطيت على مقعد طويل وحاولت أن أخلى خاطرى من كل شىء ، وأن أدع نفسى تموج مع نسيم البحر العليل فى عوالم مبهمة لا يشغل الخيال ولا الذهن شىء

مما فيها • واننى لكذلك اذ مرت صديقتى مستندة الى ذراع أحد المسافرين وهى ترسل الحين بعد الحين ضحكات ناعمة تشهد بما يملأ قلبها من مرح ومسرة • قلت فى نفسى : «ما أسعد هذه الأرملة الطروب بالحياة اليوم ، وهى هى التى كانت من سنوات مضت صورة ناطقة لمعانى الهم والشجن • وهمها وشجنها بالامس هما مصدرمرحها وسعادتها اليوم • فلولاهما مابذلصديقنا وزوجى مابذلا من عناية حتى استخلصا ميراثها وميراث أبنائها وأتاحا لها هذه الحياة الناعمة التى تحياها ، ولما شغل صديقنا ولما شغل زوجى بها الى اليوم • وهكذا الحياة ، مجموعة من المتناقضات يسعد بها قوم ويشقى آخرون • صحة ومرض • فقر وغنى • شقاء وسعادة • وهذه المتناقضات تتداولنا دراكا فنسعد ثم نشقى ، ونشقى ثم نسعد، ويتوالى ذلك علينا حتى يدركنا الأجل المحتوم •

لست أدرى لم أثار مرور صديقتى هذه المعانى الفلسفية فى نفسى وجعلنى أفكر فى ضعف الانسان أمام الحياة حتى لتزعجه أتفه الاشياء كما تسعده أتفهها • قد يكون موج البحر الممتد أمام النظر الى مدى الافق ، والذى يستتر فى طياته من الغيب ما لا أعلم ، هو الذى أثارها • وقد يكون هواء هذه الساعة برقته وما يهيىء للنفس من استرخاء وسكينة هو مبعثها • على أية حال فقد بقيت بعدها كأننى فى حلم ، متمطية على مقعدى ، أفتح عينى وأغمضهما كما أهوى ، وأشعر بنوع من تخدير الاعصاب الذى يسبق النوم •

فلما حانموعد العشاء وحان للناس أنيبدلوا ملابسهم ارتديت للسهرة ثوبا بسيطا ثم صعدت الىسطح الباخرة تلمع عليه أضواء الكهرباء • وبينما أسير ذهابا وجيئة مرت بى صديقتى من جديد وقد ارتدت للسهرة ثوبا بارع الجمال ، وقد تزينت زينة كلها الاغراء ، وقد أمست بجمالها وزينتها وثوبها تلفت نظر كلرجل

وكل امرأة مرت به أو مر بها • ونظرت اليهـــا اذ ذاك وأطلت النظر وذكرت كلماتهـا الاخيرة لزوجي : أرجو أن أراك حين عودتي مستريح البال موفور العافية •

وتناولنا طعام العشاء ثم أديرت بعده حفلة رقص شهدتهـا الى منتصف الليل • وقد رقصت صديقتي مع كثيرين كانوا يستبقون اليها ويطلبونها للرقص معهم • وكانت لا تأبى أن تلبى من يتقدم اليها لتراقصـه • ثم كان جمالها وكانت زينتهـا حديث الرجال جميعا ، وكان مرحها وكانت ابتسـامتها أشد اثارة لاعجابهم من ثوبها ومن زينتها • وقد خيل الى ساعة غادرت هذه الحفلة الى مخدعي أن الرجال جميعا جنوا بها جنونا وأنهم لن يدعوا الحفلة تنتهي حتى مطلع الفجر •

وخلعت ثيابي وارتديت ملابس النوم واستلقيت فى سريرى وصورة صديقتي وهى موضع الاعجاب بل موضع التقديس عند الجميع لا تبرح خيـالى • وأغمضت عينى أحاول النوم فاذا هذه الصورة تتوارى لتحل محلها صورة صديقتي يوم التقينا بالاقصر بعد عام من وفاة زوجها • لم تكن يومئذ الأرملة الطروب التى يراها الرجال اليوم ويعجبون بها ، بل كانت سيدة بادية الحشمة ، تؤمن بجمالها من غير أن تفرضه نزهة للناظرين ، بل كانت تبدو وكأنها تستحيي منه ، وتود لو تستطيع أن تواريه عن الأعين • يومئذ كنت أجلس اليها وأراها شابة جميلة ساذجة لا تجيد أن تتكلم ، ولا تجيد الا أن تنظر بعينيها الساحرتين الى من يجالسها ومن يمر بها • ويومئذ لم أر بأسا بأن يهتم صديقنـا بأمرها وأن يعنى زوجى بشـئونها وشئون أبنـائها • أما منـــذ خلص لها ولابنائها ميراثهم وحسبت أنها اطمأنت الى الحياة تبـدل حالها غير الحال وأصـبحت امرأة وقاحا لاتطاق • ظنت أنهـا تسـتطيع أن تنافسنى فى سلاسة العبارة ، وجمال اللفظ ، وأنهـا تستطيع أن

تسحر بهما الناس فوق سحرها اياهم ببارع جمالها وساحر فتنتها • وقد بلغت من ذلك أن فكر صديقنا في أن يتزوجها ، وأن قبضت على ناصية زوجي واستبقت مودته •

وكانت صورتها تتبدل أمام بصيرتي وأنا مستلقية فيمرقدي ، كلما تصورت حالا من أحوالها التي أثارتني بها وانتهت الى القطيعة بيني وبينها • وكنت أزداد حنقا على هذه الصور وعلى صاحبتها كلما هفا الى مسمعي صوت موسيقى الرقص آتيا من ناحية بهو الباخرة ، وهي الليلة في ذروة مجدها وانتصارها •

وأصبحت فتناولت فطوري في غرفة الطعام وصعدت الى ظهر الباخرة ، ووقفت أستنشق هواء البحر لعله يذهب عني جهد الأرق الذي لازمني معظم ليلتي • وبعد قليل وقفت الى سيدة حيتني بالفرنسية ثم أخذنا نتبادل الحديث المألوف في مثل هذه الاسفار ، عن الجو والبحر والرجاء أن يظل هادئا الى نهاية السفرة • وانا لفيحديثنا اذ مرت صديقتي مشرقة الوجه باسمة الثغر كأنها نامت كل ليلتها وسعدت بأجمل أحلامها ، وكأنها لم ترقص الى قرابة الصبح • ونظرت الى ساعة مرت بنا نظرة تعال وكبرياء وكأنها تقول لي : « أرأيتني ليلة أمس ، وهلا تزال الغيرة تأكل صدرك مني ، ولا تفتئين تطمعين في منافستي ؟ ان يكن ذلك فهذا البحر أمامك فاشربي منه أو القي نفسك بين أحضانه لتتخلصي من غيرتك ويأسك »

وسألتني محدثتي ، وكنت قد علمت منها أنها فرنسية ، أأعرف هذه السيدة الجميلة ؟ قلت : نعم أعرفها وان لم نكن أصدقاء • وهي كثيرة المعارف والاصدقاء وأصحابها في مصر يسمونها « الارملة الطروب » ففيها خفة تقارب الطيش • وتذكرت وأنا أتكلم أن صديقتي مصرية ويجب لذلك ألا أجرحها ، فاستطردت في كلامي : « لكن أصدقاءها يذكرون أنها طيبة القلب ، وأن

خفتها ومرحها لايتعديان المجتمع الى حياتها الخاصة • أما معرفتى بها فقليلة وليس من حقى أن أحكم لها أو عليها »

وعلقت محدثتى الفرنسية على كلامى فقالت : « أنت على حق يا سيدتى ، فأنا أعرف فى باريس نفسها سيدات اشتهرن بالخلاعة وهن مع ذلك مثال الشرف والسمو عن الابتذال • وتقولين أنت الآن أن أصدقاء هـذه السيدة المصرية يقولون ذلك عنها • ولا أحسبنى فى ريب من ذلك بعد الذى رأيتـه أمس • لقد تركتنا أمس منتصف الليل والسهرة لم يحم وطيسها • ولو أنك بقيت الى نهايتها لرأيت عجبا • شرب بعض الشبان حتى ثملوا وعرضوا على هذه السيدة أن تشرب ولو قليلا من الشمبانيا فأبت اباء مطلقا معتذرة بأنها لم تشرب فى حياتها ، وأن دينها يحرم عليها الشراب • وألقى هؤلاء الشبان الثملون أنفسهم على أقدامها ، وزعم أحدهم أنه شاعر انجليزى وألقى مقطوعة ادعى أنه نظمها لساعته من وحى عينيها الساحرتين • وذهب آخر الى غرفة الطعـام وجاء بما فيها من الازهار ونثرها عليها • ولم يكن القبطان أقل الحاضرين افتتانا بها • فقـد عرض عليهـا وهو فى نشـوة شرابه ان لم تكن تعجبها قمرتها ، أن تأخذ قمرته وصالونه • وضحكت هى لهذا الغرض وقالت انهـا ستفكر فيه متى أصبحت وأصبـح القبطان • والحق أشهد أنها كانت رغم مرحها وطربهـا شـديدة الاعتزاز بنفسهـا وبكرامتها ، وان لم تكن أقل من ذلك اعتزازا بجمالها وبسـحرها » •• وسـكتت محـدثتى قليـلا ثم قالت : « ألا ليتك تستطيعين ياسيدتى أن تحدثى التعارف بينى وبينها » •

وأخذت لهذه العبـارة الاخيرة • فلن يحملنى اعتبار أيا كان على التحدث الى هذه المرأة التى سلبتنى هناءتى وسعـادتى ، بل سلبتنى كل ما فى الحياة من نعمة وجمال • على أنى سارعت مع ذلك وقلت لمحدثتى : « أنت ياسيدتى فى غير حاجة الى من يقدمك

لها • وحسبك أن تبادئيها الحديث باطراء جمالها لتكسبي قلبها • وهي طيبة القلب كما ذكرت لك ، ويسرها لذلك أن تعامليها من غير كلفة ولا رسميات •• »

لا أستطيع أن أصف ما أثاره هذا الحديث في نفسي من غيرة ومن حيرة • لقد كان هذا الانتصار الباهر الذي أحرزته صديقتي خنجرا مسموما صوب الى صدري • ولكني كتمت موجدتي واتخذت من طفلي مسلاة لي أنسى بهما همي وكربتي •

وتناولنا طعام الظهيرة وذهبنا الى بهو الباخرة نتناول القهوة فاذا به اعلان بخط واضح أن الآنسة الايطالية ، ضاربة الكمان الشهيرة في الاوساط العالمية جميعا ، تفضلت باحياء سهرة هذا المساء في بهو الباخرة ، وتبدأ الساعة التاسعة والنصف ، والجميع مدعوون •

أقبل المساء وبدل المسافرون ملابسهم لطعام العشاء ، فاذا صديقتي أبدع ثوبا وزينة مما كانت عليه أمس ، واذا العيون تنهبها نهبا ساعة دخلت قاعة الطعام • وعجب الناس حين رأوها تتخطى المائدة التي كانت تجلس عليها الليلة الماضية الى مائدة القبطان لتجلس الى جانبه • عند ذلك دوت القاعة بالتصفيق مما أخجل مصريتي • فلما فرغنا من الطعام وذهبنا الى البهو اذا رجال الباخرة قد استحدثوا فيه منصة للاعبة الكمان ، واذا على هذه المنصة كراسي ثلاثة لم نعرف لمن وضعت • وبعد قليل أقبل القبطان وعن يمينه لاعبة الكمان وعن يساره صديقتي ، واذا هم يصعدون جميعا الى المنصة ، ويجلس القبطان بين السيدتين • فلما سكن تصفيق الحضور وقف القبطان يقول : «لاحاجة بي الى تقديم الآنسة ربة الكمان وشهرتها تغنيها عن كلامي ، وكمانها الذي ستسمعونه عما قليل أبلغ عبارة مني في تقديمها • أما السيدة المصرية فقد عرفتموها جميعا ليلة أمس•

بعد أن قدمها لكم جمالها وظرفها وقلبها الكبير • والكلمة الآن للكمان البارع ••

ولعبت الآنسة عدة مقطوعات لعبت معها بالعقول والقلوب ، فكانت كل مقطوعة تنتهي تدمى الأكف بالتصفيق • ولست أذكر أني سمعت موسيقى بلغت من الاعجاز مابلغت موسيقى تلك الليلة • سمعنا مقطوعات لبتهوفن ، ولموزار ، ولفاجنر ، وأمثالهم من الخالدين الذين أشاعوا في جو العالم أبدع الانغام وأعذب الالحان • فلما فرغت الآنسة من ايقاعها البارع البديع الذي سما بنفوسنا الى أجواء الفن العليا وقف القبطان يشكرها لما أسعدتنا جميعا به من تلك الموسيقى السماوية ، ثم قال : « ولم أرد أن أروعكم ساعة بدأت هذه الحفلة • فقد صادف بدؤها بدء عاصفة لعبت بالباخرة وستحسونها جميعا عما قليل • لكن هذه العاصفة وعبثها بالباخرة لم يكن لهما أي سلطان على الآنسة لأن فنها ملكها أثناء لعبها فلم يكن لغيره ولم يكن للعاصفة سلطان على أصابعها البارعة ولا على جسمها الذي استطاع أن يحتفظ بكل توازنه أكثر مما استطاعت باخرتي أن تحتفظ بتوازنها •

«ولم تقف قدرة الآنسة عند هذا الحد ، فقد أنستكم جميعابراعة فنها ان الباخرة تميل يمنة ويسرة ، لان أنغامها أمسكتكم في مقاعدكم تطربون لها وتستمعون اليها • أفلا يوجب هذا كله على وعليكم أن نضاعف شكرنا لمن أباحت لنا هذا الفن الجميل وأنستنا غضب البحر وهياجه ! فباسم هؤلاء الحاضرين واسمي أقدم لك ياسيدتي خالص الشكر وجزيل الثناء • »

واندفع الحاضرون نحو المنصة يحيون الآنسة ويشكرونها • ولكن الأعجب من هذا أنهم كانوا يتجهون بعد تحيتها الى صديقتي يحيونها هي الاخرى ثم يقفون حولها يبدون من الاعجاب بجمالها

مثـل اعجابهم بالكمان ولاعبته • وحاولت صديقتى أن تنصرف حين انصرف القبطان فاذا المحيطون بهـا قد ضربوا حولها نطاقا يتعذر اختراقه • ولم ينجها من هذا الموقف الا أن أعلنت أنهـا بدأت تشعر بالدوار وأنهـا فى حاجة الى الهواء الطلق أو تهبط الى قمرتهـا • عند ذلك أفسح المحيطون بها طريقـا لهـا وكلهم يكررون آى اعجابهم بجمالها ورقتها وظرفها •

وكنت أشهد ذلك مشدوهة ، لا دهشـة أعظم من دهشتى ، ولا حيرة أعظم من حيرتى وغيرتى • ولو أن زوجى اختـار لها أن تسـافر معى على هذه البـاخرة كيدا لى ، لقد بلغ من كيده ما أراد وأكثر مما أراد • أما ان كانت المصادفة هى التى ساقت ذلك كله الى فيا لبؤسها من مصادفة مشئومة •

وخرجت مع الناس الى ظهر البـاخرة وكأنى أشعر بالدوار يعبث بى ، فهبطت مسرعة الى قمرتى وقضيت بهـا ليلة تابغية • فلمـا أصبحت كان البحر قد استرد اتزانه فسكن هيـاجه وعاد سلسا كما كان • والتقيت بالفرنسـية بعد الفطور وتبـادلنا التحية وأخذت تحدثنى عن موسـيقى الآنسـة الايطالية وروعتها • ثم قالت : « وصاحبتنا المصرية ، أرأيت تهافت الرجال عليها واستسلامهم لفتنة جمالها ؟ » • قلت : « نعم رأيت ذلك ولم يدهشنى ، ذلك شـأن الرجال • يترامون على المرأة ترامى الفراش على النور ، ثم لايعنيهم أن تحرقهم بنارها وتذرى بقـاياهم فى الهواء يبـددها كل ريح »

وقالت محـدثتى : « وأعجب الأمر أن أكثر الرجال رزانة وحكمة لا يمتازون فى هذا الشأن عن أكثرهم طيشا ونزقا ، وان اختلفت أمزجتهم فى ذوق الجمال وصاحبته • وأعجب من ذلك أن البريق الظاهر يفتنهم ويغريهم أكثر مما يفتنهم الجمـال الحق فى المرأة الـكاملة • ولا شىء يدل على هـذا مايدل عليـه افتتانهم

بثياب المرأة وحليهـا وظاهر زينتهـا ، وأنهم مع ذلك يذكرون أن المرأة هى التى تخلع على هذه الاشياء جمالها ورونقها • وأما ان رأوا سيدة بسيطة الثياب قليلة الزينة فقل ما يلفتهم جمالها • وأقل من ذلك أن يلفتهم ماتنطوى عليـه روحها وجسمها من كريم المعانى ورائع الجمال • ثم يقول الرجال بعد هذا انهم أولو حكمـة ، وان كانت حكمتهم أغلب الأمر هى السـخف كل السخف ، ولم يكن لها من سند الا سخرية المرأة منهم وفتنتهااياهم»

أعجبنى هذا الكلام فانصرفت أكرره فى أعماق روحى وتبدو لى من خلاله صورة زوجى وعطفه على صديقتى فلا يزيدنى ارتسامها أمامى الا ازدراء له ومقتا اياه • فهو الذى أفسد حياتى ودفعنى للفرار من بيتى باصطفائه صديقتى على رغم علمه بخفتها وطيشها •

كانت ليلتنا المقبـلة آخر ليالينا على البـاخرة ، اذ كانت ترسو الصباح بمرفأ جنوا • ولهذا أقيمت فى المساء حفلة تنكرية لم أرد أن أشترك فيها ، لان صـديقتى بارعة فى التنكر ، تبتكر له من الازياء ما لا يرد بالخاطر ، وما يلفت الانظار اليه ويمسكها عنده • ولست حريصة على أن أشهد الاحتفال بانتصارها الساحق للمرة الثالثة • لهـذا أويت الى قمرتى وأعددت متـاعنا وقضيت بعض الوقت أقرأ وأنا فى سريرى ثم أطفأت مصباحى

واستيقظت بكرة الصباح وصعدت الى ظهر الباخرة فاذا هى ترسو • وانتقلنا توا الى محطة السكة الحديدية • فلما انطلق القطار ولم تكن به صديقتى تنفست الصـعداء وحمدت الله أن استعدت حريتى • وتنقلنا بين شمال ايطاليـا وسويسرا وفرنسـا وألمانيـا مبتعدين عن المدن ما استطعنا ، مستمتعين من هواء الجبال والبحيرات بما رد الى هدوئى وطمأنينتى • وزادنى هـدوءا أننى انتهيت الى تصـميم حاسم أن أنفصـل بالطـلاق عن زوجى ، وان كلفنى

ذلك ما كلفنى • لم يعد يعنينى ما يقوله الناس عنى اذا لجأت الى القضاء ، فالأمر لايتعلق بسعادتهم بل بسعادتى • ولم أعد أعبأ بما كان يذكره صديقنا من تأثر ولدى بهذا الطلاق ، فالوضع الحاضرأسوأ أثرا على نفسيهما وأكثر اساءة لهما • واذا اضطرنى عناد زوجى الى التشهير به فلن يكون ذلك ذنبى • ولن أكون آخر امرأة طلقت ولا آخرامرأة تطلق • ولن يكون لى من وراء هذا الطلاق الا أن أستعيد حريتى وأن أحيا كما يحيا كل من ملك حريته •

من يوم صح على هذا الرأى عزمى شعرت بدبيب الحياة السعيدة يجرى فى عروقى ، ورأيت الجبال أبهى منظرا بالخضرة التى تكسو سفوحها ، والبحيرات أبرع جمالا بأضواء الشمس والقمر تنعكس على صفحتها • ثم شعرت بنوع من النعمة لم أكن أشعر به من قبل • شعرت بكمال شخصيتى وبقوة أنوثتى •

وعدنا الى مصر فألفيت زوجى يصعد الى الباخرة وهى لا تزال فى عرض الميناء • وأقبل علينا وجلس الينا بعد أن قبل الطفلين وضمهما الى صدره وقبل يدى وسلم على المربية وكأنه مشوق الينا أعظم الشوق • وبعد أن اطمأن بنا المجلس وتبادلنا السؤال عن الصحة وكيف قضينا سفرنا نظر الى فى عطف وحنان وسألنى : « ألا تريدين أن نعود جميعا الى القاهرة ؟ » • فأجبته فى هدوء وحزم : « أشكرك ياصديقى فلم يبق الى حياتنا المشتركة من سبيل • وأنا أطلب اليك منذ اللحظة أن تسرحنى • ولن أضن عليك بما تطلب لقاء طلاقى • فان أجبتنى الى ذلك شكرت لك • وان أبيت فلن تحمد من بعد اباءك •

ووجم الرجل لما سمع • ولم نتبادل بعد ذلك كلمة حتى خرجنا من الجمرك وذهبت الى بيتى بالاسكندرية • وعلى باب البيت ودعنا ولا يزال واجما كئيبا • وعاد الى القاهرة وعدت الى حياتى أنتظر ما الله فاعل به وبى •

الفصل الثامن

بعد ثلاثة أيام من مقامنا بالاسكندرية جاء صديقنا يسلم علينا ويرحب بنا . وانما علمت بمقدمه حين سمعت طفلاى يستقبلانه أول وصوله بالبشر والتهليل كأنه أعز عزيز عليهما . وصعدا معه الى وجلسا من حوله ينظران اليه بعيونهما البريئة نظرات كلها الحب الخالص . واهتز قلبي لهذا المنظر غبطة وطربا . وبقي هو يداعبهما تارة ويحدثني تارة أخرى وأنا سعيدة بلقائه أعظم سعادة . واستأذن يريد الانصراف قبيل موعد الغداء فدعوته ليتناوله معنا فاعتذر بأنه على موعد مع أصدقاء من أهل الاسكندرية سبقوني الى دعوته اذ كانوا معه فى القطار الذى قدم فيه . ثم قال وهو يودعني « سأعود اليك بعد الظهر لحديث طويل بيني وبينك .

وحاولت بعد انصرافه أن أتوهم ماعسى يكون هذا الحديث فذهبت محاولتي سدى . وأوحيت الى المربية بعد أن تناولنا طعام الغداء أن تأخذ الطفلين الى حديقة النزهة وأن تعود بهما ساعة المغيب ليخلو الجو لصديقنا أثناء حديثه . وبعد قليل من خروجهم جاء صديقنا فألفاني وحدي فقال : « حسنا فعلت حتى يكون لى مطلق الحرية فيما جئت اليك بشأنه »

قلت : « كلي آذان صاغية بعد أن حاولت عبثا أن أعرف ماتريد مني . »

قال : « اذن فاسمعي . أنت تعلمين أني لم أر زوجك ولم يرني منذ انتقالك الى الاسكندرية . فقد اتهمني يومئذ أنني حرضتك

ضده ، وأعنتك عليه ، ولذلك قاطعنى وشــهر عند أصدقائنا بى •
واننى لفى منزلى أول من أمس اذ رأيته يدخل على محمر العينين ،
ممتقع الوجه ، متهالكا على نفسه وكأنه لم يذق طعم النوم منذ عدة
أيام • وقمت اليه مشفقا عليه راثيا لحاله فعانقته كما لم أعانقه منذ
ســنين ، ورجوته أن يجلس وأن يطامن من نفســه وأن يذكر لى
سبب همه وكربته • فمكث صامتا زمنا ثم قال : « معذرة ياصديقى
أن لجأت اليك بعد أن قاطعتك • لقد فكرت طويلا فيمن ألجأ اليه
لتفريج بلواى فلم أجــد ســـواك • فأعنى يرحمك الله ولا أذاقك
ما أذوق أنا الآن من مرارة قاتلة • لقــد ذهبت أسـتقبل زوجى
وطفلى بالاســكندرية ساعة عودهم من أوربا ، فلما لقيتهم رجوت
زوجى أن نعود جميعا الى القاهرة ، فكان جوابها أنه لم يبق الى حياتنا
المشتركة سبيل ، وأنها تريد منى أن أطلقها ، فان أبيت فلن أحمد
من بعد ابائى • ولست أدرى ما ذنبى عنــدها • لقد أحببتهــا ولا
أزال أحبها حب تقــديس بل حب عبادة • أحبها لنفسها وأحبهــا
لطفلينا • أحبها وأزداد اعجابا بها كلما رأيت غيرى يطرى ذكاءها
ورقتها وسحر حديثها • لم تأخذنى الغيرة يوما عليها لانى أؤمن
بشرفها وكبريائها كايمانى بالله وبشرفى وشرف مهنتى • وقد غاضبتنى
بعد أن استخلصت بمعونتك ميراث صديقتها • غاضبتنى وهى التى
كانت تحرضنى على ذلك وتدفعنى اليه • وأنت تعلم أنه لم يكن
بينى وبين صديقتها يوما ما يشيننى • وأقسم بالله وبشرفى وبشرفها
وبرأسى طفلينا أنه لم يكن بينى وبين هذه السيدة قط ريبة توجب
أن تغاضبنى زوجتى • فلما غاضبتنى صبرت وصــابرت مؤمنا بأن
الزمن ســيفعل فعله ، لان حبى اياها لايزال اليــوم كما كان يوم
تزوجنــا • مع ذلك أصرت على مغاضبتى ، كما تعلم ، وبعثت الى
ذلك الخطاب الذى أطلعتك عليــه ، ثم هجرت بيتهــا وذهبت الى
الاسكندرية • وعدت فصبرت وصابرت ولم أقصر قط فى حقها

أو حق ولدينا ، ودفعتها الى السفر فى هذا الصيف الاخير الى أوربا لعلها تعاود التفكير فى أمرنا وأمر ولدينا ، فكانت نتيجة هذا التفكير ماذكرت لك من اصرارها على الطلاق » .

وسكت زوجك برهة بعد ذلك استرد فيها هدوءه ، ثم تابع حديثه قائلا : « أنا لا أريد قط أن ألومها على شيء من ذلك كله . لا أريد أن ألومها على مغاضبتى ، ولا على ذهابها الى الاسكندرية ، ولا على طلبها الطلاق ، لكنى أريد أن أستغفرها ولا أزال أطمع فى عفوها . أريد أن أعترف لها فى غير موجب للاعتراف ، بأنى مذنب وبأنى هفوت ، بل أخطأت ، بل أثمت فى عنايتى بصديقتها وفيما تقول من أنى أعطف عليها ، أو أميل اليها . أريد ياصديقى أن أفرض هذا كله صحيحا ! ألسنا جميعا معرضين لأن نخطىء ؟ وهل يستطيع الناس أن يعيشوا وأن يتفاهموا اذا لم يغسل العفو بينهم حوبة الخطيئة ؟ ان المرأة لتخون زوجها حتى ليرتاب فى ولده منها ثم تطمع مع ذلك فى عفوه ومغفرته . ولو أن زوجتى تتهمنى بأن الامر بلغ بينى وبين صديقتها هذا المدى ، ولا أحسبها تبلغ من الريبة هذا المبلغ ، أفلا أستطيع مع ذلك أن أستغفرها . تستطيع أنت ياصديقى أن تذكر لها أننى أقسم بأننى لن أرى صديقتها من بعد قط اذا أعدنا حياتنا سيرتها الاولى . أمن المعقول أن تجزى هذا الحب الخالص لها بكل هذا المقت الذى تواجهنى به ؟ . وهل يبلغ من أمرها وهى الرزينة الحكيمة ، أن تنسى مايجر انفصالنا على ولدينا من ضياع يفسد كل حياتهما ؟ اذا لم ترد أن تسمع فى أمرى الى صوت الزوجة فلتسمع فى أمر ولدينا الى صوت الأم . اننى أدع بين يديك ياصديقى بقية رجاء فى أن تعيد الى أسرة بائسة قبسا من نور الأمل فى وجه الله . أفتقبل هذا الرجاء ؟

« وما كاد زوجك يتم كلامه حتى انخرط فى البكاء كأنه الطفل . وانقبض قلبى لبكائه وكادت الدمعة تنحدر من عينى رثاء له وشفقة

عليه • أنت تعلمين كم تعنيني سعادتك وسعادة طفليك ، وأستطيع أن أؤكد لك صادقا أنه لم يكن بين زوجك وصديقتك ما يريب • فان لم تصدقيه ولم تصـدقيني ، فهو بعـد الذى كان منه ، وبعد حديثـه هـذا معى ، أهل لعفوك وغفرانك • أفأنت مـع ذلك لاتغفرين ، ان لم يكن من أجله فمن أجل ولديك ؟ •• »

أنصت الى هذا الكلام وتأثرت به فأطرقت وأطلت الاطراق • وفى اطراقى ذكرت يوم قلت لزوجى أنه ممثل بارع ، وأنه عطيل وروميو معا • فلما طال بصديقنا انتظار كلمتى نبهنى بقوله : سمعت الآن ماجئتك فيه ، فمـاذا تقولين ؟ أم تريدين أن أنظرك الى غد حتى تفكرى فى الامر وتقليبه على شتى وجوهه •

قلت : «لا حاجة بى الى الانتظار ياصديقى • لقد قلبت هذا الامر وفكرت فيه ، شهورا ان لم أقل منذ سـنين • وقد عدت الى تقليبه أثناء سفرى الاخيرالى أوربا فازداد تصميمى على رأيى ثباتا وقوة • وأنت تعرف هذا الرأى • لست أخفيك أن ماذكرته لى الآن قد ترك أثره فى نفسى ، رغم اقتناعى بأن زوجى ممثل بارع • وقد يكون صحيحا ما رواه لك من أنه يحبنى ، وأنه لم يكن بينه وبين صديقتى ما يريب • ولكن الأمر فى هذا الموضوع لايتعلق بروايته وصحتها أو بطلانها ، انما يتعلق بما أحسه أنا • وأنا أرى هذه المرأة بينى وبينه كلما مرت بخاطرى صـورته • أراها بينى وبينه فى يقظتى وفى منامى • أراها بينى وبينـه لابسة ثيابهـا وعارية كيوم ولدتها أمهـا • أراها بينى وبينه تنظر اليه بعينيها السـاحرتين ، وتطوق عنقه بذراعيها العاريتين • أراها بينى وبينه حتى فى سرير نومى • أدع هذا الذى أقوله لك ماشئت • سمه تخريفا • سمه طائفا من الجنون تحكم فى بصرى وبصيرتى وفى أعصـابى • لكنه الواقع من أمرى • لقد أصبحت هذه الصورة لاتبارحنى ، وكأنما سرت مسرى الدم فى عروقى ، فتأثرت بها أعصابى وتأثر بها عقلى

الباطن ، فلم يبق لى فكاك منها • أما والامر ما ترى فاننى أقول لك فى شىء كثير من الاسف ان ماتطلب الى لم يبق اليه سبيل •

وحاول صديقنا أن يعاود الكلام فى الامر معى فقلت له : « لا تحاول المستحيل وأبلغ زوجى أنه ان أراد بنفسه وبى وبطفلينا الخير فليسرحنى سراحا جميلا ، وأنه ان فعل ذكرت له هذه المنة ماحييت ، ولن يكون لى عنده مطلب من المطالب » •

وغادرنى صديقنا عائدا الى القاهرة كاسف البال أسفا • فلما استدار الاسبوع عاد الى ولا يزال الاسف باديا عليه • فلما جلسنا نتحدث قال : « أشهد أن زوجك أكرم منك ألف مرة ، وأنه رجل مروءة لا حد لمروءته • لقد قصصت عليه مادار بيننا وذكرت له أننى رويت لك حديثه كلمة كلمة ، وصورت له اجابتك أدق تصوير ، فاغرورقت عيناه وقال : «أما وذلك شأنها فلا أرى الصبر ناجعا فى علاجها ، وليس لى الا أن أنزل على ارادتها وأن أدع لها بعد ذلك حرية الاختيار كاملة » • ثم انه رجانى أن أحضر صبح الغد لاجد المأذون عنده فيطلقك أمامى طلقة واحدة بائنة لايمكن معها ردك اليه بغير رضاك • وعدت اليه فى الموعد الذى ضربه فألفيت المأذون عنده فأتم الطلاق كما قال • ولما انصرف المأذون أعطانى قسيمة الطلاق لأوصلها اليك وقال : أبلغها أننى عند رأيها ما حييت • ان شاءت يوما أن تعود الى عصمتى فهذا البيت بيتها • وان أرادت أن تتزوج بغيرى فذلك شأنها ولن أقصر فى نفقة ولدينا ، كما تقدرها هى ، الا أن يقعدنى العجز عن أدائها •

ثم ان صديقنا سلمنى قسيمة الطلاق وقال : والآن فما رأيك ياسيدتى • ! فلم أملك نفسى بعد الذى سمعت منه وبعد أن أمسكت بقسيمة الطلاق فى يدى أن بكيت حتى علا بالبكاء صوتى • فلما عاودنى بعض هدوئى قلت : أشكرك • والآن عد أنت الى القاهرة•

فاذا حدثتك نفسك يوما أن تزورنا كنت قد رويت فى أمرى فأخبرك بما يستقر عليه رأيى .

وانصرف الرجل وهو يقول : « أرجو لك من الله التوفيق والسداد . »

خلوت بعد انصرافه الى نفسى فقرأت قسيمة الطلاق وأعدت قراءتها وأخذت أفكر فيما يكون بعد أن بلغت غايتى . على أننى سرعان ما سألت نفسى : أينا انتصر بهذا الطلاق ، أنا أم صديقتى ؟ لقد كنت أراها بينى وبين زوجى . وهأنذا الآن نحيت نفسى فأصبحت وحدها معه ، فى ثيابها أو عارية كيوم ولدتها أمها . ألا تعسا لها فاتنة الرجال ! نعم هى التى انتصرت . أما أنا فأصبحت وحيدة لا سند لى ، أعيش من نفقة هذين الولدين ومما اقتصدت . وهانت على عبرتى من جديد فأسلمت لعينى العنان . وخشيت أن يحضر طفلاى وأن يريانى على هذه الحال فدخلت غرفة نومى وأوصدت بابها . ودقت المربية الباب فناديتها من مضجعى : اننى متعبة ، وطلبت اليها أن تدعنى أستريح .

ولقد شعرت بنفسى متعبة مهدودة بالفعل ، ورأيت بعد قليل أننى عاجزة عن التفكير ، وكأن ذهنى خلا من كل مايشغله ، وان لم تطاوعنى أعصابى الى الهدوء الذى أبتغيه ، فتناولت مسكنا أسرع بى الى عالم النوم .

استيقظت صبح الغد وأنا أحسن حالا مما كنت . واستبعدت حين صحوت ما دار بينى وبين صديقنا من حديث منذ أسبوع ، وذكرت ما رواه على لسان مطلقى من أنه لم يحب صديقتى ولا يحب غيرى ، فخف على العبء الذى أثقلنى أمس ، حين تصورت أن هذه المرأة انتصرت على بطلاقى من زوجى ، وشعرت بأن هذا الرجل المسكين قد أصبح بعد تطليقه اياى فى عزلة تامة ، لايؤنسه أحد ، ولا يؤنسه ولداه وهما بالاسكندرية معى .

وخرجت من غرفتي ألقى الطفلين • فلما قبلتهما ورأيتهما فى صحتهما ونضارتهما ازددت هدوءا وطمأنينة ، وذكرت صديقات لى مات أزواجهن وهن فى ريعان شبابهن وتركوا لهن صبية ضعافا فكرسن حياتهن لأبنائهن ثم سعدن بهم اذ رأينهم يكبرون بعنايتهن ورعايتهن • أما وقد رزقنى الله هذين الصبيين الجميلين فأى سعادة غيرهما أبغى ! ان واجبى أن أكرس لهما حياتى وألا أفكر فى شيء سواهما لأراهما يكبران أمام ناظرى فيصبحان فتى وفتاة ملء العين ، ثم رجلا وامرأة يحملان عبء الحياة بأحسن وأسعد مما حملته •

وسكنت نفسى الى هذا الخاطر فضاعفت عنايتى بالصبيين وشغلت بادخالهما المدرسة وعاهدت نفسى على أن أنقطع لهما ولمعاونتهما فى دروسهما وأن أنسى كل شيء فيهما ، ففى ذلك هناءتى وحسن أداء واجبى فى الحياة • وانقضت أيام وأنا على هذه الحال ، لا أكاد أفكر فى أبيهما ، بل لا أكاد أفكر فى نفسى ، مؤمنة بأنهما أصبحا كل شيء فى حياتى ، وبأن ماسواهما لم تبق له أية صلة بى •

وكان لذلك أثره الحسن فى صحتى وطمأنينتى • أذكر اذ ذاك يوما جلست فيه الى شاطىء البحر أرقب أمواجه ، فمرت بخيالى صورة مطلقى وقد التقى بصديقى ووقفا يتحدثان • لم تزعجنى الصورة قط بل هززت كتفى وقلت فى نفسى : « ليس ذلك شأنى • فهذا الرجل لم يبق زوجى ولم يبق لى أن أحاسبه • لقد أصبح بطلاقى حرا كما أصبحت أنا بهذا الطلاق حرة ، وكما أستطيع ان شئت أن أتزوج وأن أختار السيرة التى أرضاها فهو كذلك حر فى أن يختار لون الحياة الذى يرضيه • وهذه المرأة حرة هى الاخرى • ان صح أن التقيا يوما فليفعلا مايشاءان • حسبى سعادة بالطفلين ، ولغيرى أن يبحث عن سعادته كما يحب ويهوى » •

وبعد أسبوعين رأيت صديقنا يدخل عندى ويسألنى بعد أن بادلنى التحية •• « أما فكرت من جديد فى استئناف حياتك من

مع زوجك . لقد لقيته فى المعادى منذ يومين فدعانى اليه وسألنى : ألك فى هذا الامر رأى . ولما قلت له أننى لم أرك منذ أعطيتك قسيمة الطلاق رجانى فى زيارتك والتحدث اليك فى الموضوع .
وأدهشنى هذا الكلام فقلت فى حدة : « وهل ترانى كنت أعبث يوم طلبت الطلاق . ذلك أمر لا رجعة فيه ولا محل للحديث عنه . »
قال : « الامر فى ذلك لك . وقد توقع هو أنك ستجيبين كما أجبت الآن . أما وقد صح تقديره فانه يستأذنك فى أن يرى ولديه ولا يشك لحظة فى أنك تأذنين » . وأجبت على الفور : « هذا حقه ولن أحرمه منه . لكن لى شرطا واحدا . ذلك ألا يرانى ولا أراه . فاذا فكر فى المجىء ليراهما فليخطرنى بموعد حضوره ، وعند ذلك أدع له البيت ليلقى طفليه فيه » . قال صديقنا ... « أنا أشكرك بلسانه . وسيحضر فى الاسبوع المقبل بأول قطار يغادر القاهرة يوم الجمعة ثم يعود اليها بآخر قطار فى اليوم نفسه . »
وانتقل صديقنا بعد ذلك بالحديث يسألنى ، وقد ذكرت له أننى لن أستأنف حياتى الزوجية مع مطلقى ، عما اعتزمت أن أفعل بعد انقضاء عدتى . قلت : « لاشىء . كرست حياتى لهذين الطفلين اللذين رزقنى الله . وأكبر ما أرجو أن يساعدنى على القيام بواجبهما على نحو يرضينى ويطمئن له قلبى . » قال صديقنا: « فليعاونك الله وليوفقك فيما تقصدين اليه » .

وفى يوم الجمعة الذى تلا هذا الحديث غادرت المنزل قبل موعد وصول قطار القاهرة الى الاسكندرية ، وقلت للمربية ساعة خروجى : اننى سأتناول غدائى فى الخارج ، وذكرت لها أن والد الطفلين سيحضر ليراهما فلتبق معهما فى البيت حين حضوره ، حتى تنقل الى عند عودتى مايدور بينه وبينهما من حديث . فلما عدت ساعة المغيب ذكرت لى أن الدكتور حضر بعد قليل من مغادرتى المنزل ، وأنه مالبث حين رأى ولديه أن قبلهما وعانقهما

طويلا وعيناه مغرورقتـان ، وأنه دعاهمـا ودعاها للتنزه ولتناول الغداء فى مطعم على شـاطىء البحر ، وأن الصبيين كانا سـعيدين بأبيهما كل السعادة ، وأنهم قضـوا جميعـا يوما من أسـعد الايام وأمتعها ، وأنه عاد معهم الى المنزل ، فلما حان موعد سـفره ودع الصبيين فى تقبيل وعناق تأثرت المربية لهما غاية التأثر ، ثم أعطاها ساعة خروجه هدية قيمة هى ثلاث ساعات ذهبية ، فلما سألته المربية عن الساعة الثالثة لمن تكون قال انها لأمهما ، ثم وعد أن يزورنا فى مثل موعده اليوم بعد أسبوعين . وقالت له بنتنا : ولم لاتزورنا كل أسبوع يا والدى . فأجابها بأنه يكون أسعد الناس بذلك اذا أذنت والدتك به .

وأخذت الساعات الثـلاث وقلبتها فى يدى فاذا هى هدية قيمـة بالفعل ، واذا الساعة التى خصنى بها أجملها وأقيمها . ولقد دهشت لهذا التصرف من جانبه . فمـاله ومالى بعد أن طلقنى نزولا على ارادتى ! أو لو كان يميل الى صديقتى ، أفما كانت أولى هى بهذه الهدية منى ؟. انها لم تنتصر اذن على ، والموقف لايزال فى يدى.

وابتسمت لهذا الخاطر . وجاء ولداى قبـل نومهمـا يقبـلاننى ويهديداننى مساء الخير . فلما قبلتهمـا وأذنت لهما بالانصراف الى حجرة نومهما قالت ابنتى : « لم لا تأذنين يا أماه لأبينا أن يزورنا كل أسبوع . انه ظريف ويحبنا . لقد قضينا معه سحابة هذا النهار أسعد مانكون . ولعل هدية الساعات الثلاث أعجبتك ». فقبلتها من جديد وقلت لها : « اذهبى الى مخدعك وسيكون لى فى الامر رأى »

وشعرت لساعتى بأنا لن نستطيع أن ننفصل حقا وهذان الطفلان بيننا . واذا أردت أن أنفصل عنه انفصالا حاسما فيجب أن ينسياه. لكنهما لايزالان فى حاجة اليه ، على الاقل لنفقتهما . وليس بمعقول أن أكلفه هذه النفقة وأن أحرمه رؤيتهما . ولست أشك فى أنه سينفق عليهما كل ما أطلب منه ولو أرهقـه ذلك من أمره عسرا .

وانقضى الأسبوعان وجاء الرجل من القاهرة يرى ولديه ، وقد تركت له البيت كما فعلت المرة الأولى • فلما عدت الى المنزل بعد انصرافه علمت أنه حمل الى الولدين من الهدايا ماجعلهما يتصايحان ساعة دخولى يعرضان على ماجاء به والدهما ، ويذكران كيف قضيا معه نهارا سعيدا • وأعطتنى المربية خطابا منه فتحته فاذا فيه تحويل على البنك ورسالة يذكر فيها أنه آثر أن يحول هذا المبلغ الكبير دفعة واحدة حتى لايبعث الى بتحويلات شهرية ، وأنه يرغب الى أن أحيطه متى نفد هذا المبلغ ليبعث الى بتحويل جديد •

وأثار تصرفه هذا حيرتى • فأنا أعلم من حاله الماليه مالا أشك معه فى أنه يستدين الكثير من هذه المبالغ التى يبعث بها الينا ، سواء تحويله اليوم ، أو تحويله حين سفرنا الى أوربا، أو تحويله الأول • هذا الى جانب ما ينفق لحياته الخاصة • أفلا يحملنى ذلك على التفكير من جديد فى الأمر حتى لا أشق عليه الى هذا الحد ، ولا أحمله ما لايطيق •

وجاء صديقنا بعد أسبوع ، فذكرت له ماصنع مطلقى ، ورجوته أن يبلغه أننى لا أريد ارهاقه ، وانى أفضل أن نتفق على مبلغ شهرى لنفقة الطفلين ، لأننى لا أقبل منه شيئا لنفسى وأنا مصممة على ألا أعود الى الحياة معه أبدا •

قال صديقنا « أولا تزالين تظنين أن له بصديقتك علاقة أو أن له اليها ميلا ، أو أن شيئا من ذلك كان ؟ •

قلت : « كلا • انى مطمئنة الآن كل الاطمئنان من هذه الناحية وان لم تعد تعنينى • فلو أنه تزوج صديقتى غدا لما اهتز لذلك منى عصب ولا طرفت لى بسببه عين • »

قال : « أما وقد زال ماكان قائما بنفسك من هذه الناحية ، فما

هذا التشبث السخيف بأن لاتعودى أنت ووالد ابنيك سيرتكما الأولى فتجمعى بذلك أسرة تشتتين أنت اليوم شملها وتبددين سعادتها وهناءها » •

لم أملك نفسى حين سمعت ذلك منه أن ثارت كبريائى • فقد أصاب كلامه عزتى بطعنة أهاجت كرامتى وبجرح أدمى نفسى فصحت به ••

ـ أو تحسبنى طفلة غريزة لاتعرف ماتريد! وهل تظننى حفلت يوما بصديقتى الى حد أثار غيرتى منها لعناية هذا الرجل بها ؟ لقد كان الأمر بينى وبين زوجى أعمق من هذا • واذا كنت قد حدثتك عنها وذكرت لك أننى أراها بينى وبينه فلأننى لم أرد ولن أريد أنأكشف عن مستور نفسى وحقيقة سرى • فأرجوك ياصديقى وألح عليك ألا تعود الى الكلام معى فيما ذكرت اليوم ، فلا طاقة لى بسماعه من أحد ، ولا طاقة لى بسماعه منك أنت خاصة • »

لست أدرى كيف أفلتت هذه الجملة الاخيرة من بين شفتى • فلقد خشيت بعد أن تلفظت بها أن يحملها صديقنا معنى بذاته ، فعدت الى هدوئى وقلت له : « اننى لواثقة بأنك أشد الناس حرصا على شعورى وأكثرهممعرفة بما تنطوىعليه نفسى ازاء هذا الرجل• فلو أن غيرك قال ما قلت أنت لهان على سماعه • أما وأنت تعرفنى حق المعرفة وتعلم أننى لا أصدر فى تصرفاتى عن طيش ولا عن نزق فقد أثارنى كلامك وجعلنى أظنك تناسيت مالا يجب أن تنساه » •

ورحنا بعد ذلك الى الحسنى وتناول كلامنا من الشئون مالا شأن له بى • فلما انصرف صديقنا حمدت ثورتى أن جعلت العود الى هذا الموضوع محالا •

وتوالت الاسابيع والشهور بعد ذلك وزادنى توالیها اقتناعا بأن المربية أقدر منى على العنـاية بالطفلين ومعاونتهما على اسـتذكار دروسهما • لذلك بدأت أشعر بخلو حياتى وبدأ الملال يعاودنى • كيف أملأ اذن أوقات فراغى • لا شيء يستنفد الوقت ما تستنفده القراءة • لذا أكببت أقرأ ما لم أكن قرأت من أمهـات الآداب الانجليزية والفرنسية والالمانية ، وما ترجم الى هـذه اللغات من أمهات الادب فى غيرها من الامم ، وأعيد ماكان موضع اعجابى مما قرأت من قبل • وكثيرا ماكنت آخـذ كتابى وأجلس الى شاطىء البحر وأسـتمع مقفلة العينين الى صريف أمواجـه المتكسرة على الشاطىء كما يستمع المغنى الىألحانالموسيقى قبل أن يبدأ أدواره• فاذا امتلأت نفسى من موسيقى هـذا البحر العظيم وحملنى موجة على أجنحة الخيال فتحت كتابى وأخذت أقرأ فأستغرق فى القراءة فتأخذنى روائعها عن كل ماحولى من ضـجة الحياة وأحس أننى اندمجت مع المؤلف ومع أفكاره ومع أبطاله ،وأصبحت فىجوه هو، وأصـبح الجو من حولى مسرحا لهـذه الأفكار ولهؤلاء الابطال لايعرف غيرها وغيرهم ولا يتحرك فيه شيء سواها وسواهم •

وطال بى ذلك زمنا استغرق أسـابيع بل شهورا • على أننى شعرت بعد هذا الزمن أننى فى حاجة الى أن أستجم وأستريح • وما كدت أقضى أياما فى راحتى واستـجمامى حتى بدأ الشـعور بالملال يعاودنى • فكرت أن لابد من شيء آخر غير القراءة أطرد به هذا الملال وما يجره من سآمة • ودار بخاطرى أن أستغنى عن المربية وأن أقوم أنا بدورها • لكننى أشفقت من هذه الأمانة وأبيت حملها بعد أن سبقت لى تجربتها واقتنعت بأن المربيـة أقدر منى على اجادتها • ماذا أصنع اذن لأملأ أوقات فراغى ؟

شغلت نفسى بما تشـغل به كثيرات من الامهات وقتهن فبـدأت

أطرز لاطفالى بعض ملابسهما • لكنى سرعان مابرمت بهذا العمل وألقيته جانبا • فهو يشغل اليدين ويترك الذهن فى حيرة فراغه ، وهو بعد ليس الانتاج الذى يليق بمثلى وقد تعودت أن أبتاع للطفلين هذا النوع من الملبس الجميل الذى لايكلف باهظ النفقة. فأى شيء أصنع يليق بى ويملأ أوقات فراغى •

بدأت أغبط هاتيك النسوة الفقيرات بائعات اللبن أو الخضر أو العاملات فى المزارع والمصانع أو فى المنازل ممن يستيقظن مع الفجر ليؤدين واجب الحياة ولا يشعرن بما أشعر به من ملال وسأم • وبدأت أغبط مربية أولادى اذ تنهض بعبء حياتها بتربيتهما وتعليمهما ، وتولانى الاسف ان لم أتم دراستى ليكون اتمامها فى الموقف الدقيق الذى أقفه اليوم وسيلتى لعمل مثمر يملأ فراغ وقتى • فلست أنا من طراز هاتيك النسوة أمثال صديقتى ممن يستطعن أن يقضين نهارهن وجانبا غير قليل من ليلهن فى التزين وفى فتنة الرجال استجداء لعطفهم واستظلالا بحمايتهم • أما وذلك شأنى فما عساى أصنع لاملأ أوقات فراغى •

شغلت بهذا الامر أيما شغل • وزادنى اشتغالا به ما أعلمه عن الناس وألسنتهم الحداد يسلقون بها امرأة مثلى تعيش منفردة مع طفلين فى حى ناء من أحياء الاسكندرية • ولئن كانت أحاديث الناس لاتعنينى ، اننى مع ذلك لجد حريصة على مكانتى وعلى سمعتى وعلى ألا يشمت الشامتون بى •

وجاء صديقنا يوما فألفانى فى هذه الحال القاتلة كاسفة البال ، فسألنى مابى •

قلت : لا شيء • قال : ان وجهك ينم عن شدة حيرتك وقلقك ، فهل جد مايزعجك ؟

قلت : كلا ، ولكنه الفراغ يقتلنى • لقد كنت قبل طلاقى أناصب زوجى الخصومة وأناضل أوهاما تقوم برأسى فكان لى من هذا النضال مايشغل وقتى كله • أما اليوم فلم يبق لى فى الحياة شاغل • ولست أطيق هذا الفراغ فهو يأخذ بخناقى • دعك مايتيحه للناس من فرصة الثرثرة على والتندر بى فذلك لايعنينى •

قال صديقنا : أما فكرت فى العود الى القاهرة تستأنفين فيها حياتك الماضية • ان لك بها لأصدقاء يسرهم أن يروحوا عنك ويذهبوا ملالك وسآمتك • ولو أنك عدت اليها لسرنى أن أكون فى مقدمة هؤلاء •

قلت : لم تعد هذه الحياة تروقنى • لقد اتخذتها يوما وسيلة لغاية هى أن أثير غيرة زوجى ليعود الى حظيرتى • أما أن أجعلها حياتى اليومية وأن أطلق بذلك ألسنة الناس فى ، فى غير موجب، فذلك حمق لا أرضاه •

قال صديقنا : لا أريد أن أحدثك من جديد فى استئناف حياتك الزوجية الاولى بعد الذى سمعته منك فى شأنها • فلم لا تتزوجين رجلا آخر تبنين معه بيتا جديدا وحياة جديدة ؟

فأطرقت طويلا ثم قلت : ذلك أمر لم أفكر بعد فيه • أنا بطبيعة الحال حرة فى أن أفعل ان شئت • لكنى •• لم أفكر فى الأمر •

والواقع أن هذه الفكرة كانت قد بدأت بالفعل تداعبنى ، وأننى كنت أفكر بالفعل فى صديقنا • لكن اعتراضات قوية ردتنى عن هذا التفكير ، أولها مادأبت صديقتى على اذاعته فى جميع أوساطى قبل زمن طويل من طلاقى من أنى أريد أن يطلقنى زوجى لأتزوج من صديقنا • فلو أن هذا الزواج تم اليوم لصدق الناس ماكانت تذيعه، ولقال الناس فى ما شاءت لهم أهواؤهم فصدقهم الامر الواقع •

وثانى هذه الاعتبارات وأهمها فى نظرى أنى أريد أن أنسى ولدى أباهما حتى يكون انفصالنا حاسما ، ولن يكون ذلك الا اذا تبناهما من أتزوجه فتسميا باسمه • وليس يسيرا أن يقبل رجل هذه التبعة أمام نفسه وأمام الناس •

ولما ذكرت لصديقنا أننى لم أفكر فى أمر الزواج بعد قال : لعلك تفكرين فيه ثم نعود الى تقليبه معا • وسأعود من القاهرة فى الاسبوع المقبل •

ماذا ترانى أقول له يوم يعود ؟ قضيت طيلة الأسبوع ألتمس جوابا لهذا السؤال ولم أكن قد اهتديت الى جواب حين عاد • فلما فاتحنى فى الموضوع قلت له : لقد فكرت فى الأمر فلم يهدنى تفكيرى الى رأى ، فهل لى أن ألتمس هذا الرأى عندك •

فمكث طويلا صامتا ثم قال : لم أكن أحسب الأمر دقيقا بهذا المقدار • فلم يعهد الناس أن تقول سيدة انها تريد أن تتزوج ، وانما عهدهم أن يخطب الرجل السيدة فتقبل أو تأبى •

قلت : أرأيت !• هأنتذا وضعت يدك على جوهر الامر ولبه • أما ولم يخطبنى حتى اليوم أحد الى نفسه ، فلا يجوز لى أن أفكر فيما أريد ومالا أريد •

وأطرق الرجل طويلا ثم رفع رأسه وقال : أصارحك بأننى لست راضيا عن هذه الحياة التى تحيينها ، سواء رضيت بها أنت أم برمت بها •• فأجيبينى بصراحة ، أترضيننى زوجا اذا أنا خطبتك الى نفسى •

قلت : وماعسى أن تقول صديقتى يومئذ ؟ •• اننى منعتك من زواجها وبذلت جهدى ليطلقنى زوجى حتى تتزوجنى •

قال : دعيك من صديقتك ومايمكن أن تقول • واذا كان هذا

كل اعتراضك فما أهونه • أنت اليوم امرأة حرة من عدة أشهر • فاذا تزوجت دل ذلك على أنك سيدة عاقلة ، وأنك تؤثرين الحياة الكريمة على هذه الحياة الماجنة التي تحياها صديقتك منذ سنين •

قلت : اذن فاسمع • انني أرحب بخطبتك وأشكرك عليها اذا قبلت لى شرطا لا أفكر في أن أتزوج من لايقبله • انني أريد أن أحسم كل صلة بيني وبين مطلقي ، ولا يكون ذلك مابقي هذان الطفلان منسوبين له ، فلابد أن يتبناهما من أتزوجه وأن يتسميا باسمه • فان قبلت أنت ذلك قبلت الزواج منك •

وجم الرجل وتولته الدهشة لهذا الذي طلبت اليه • وبعد أن فكر في الأمر مليا قال : لك ماتطلبين • فالأمر في ذلك أمرك أنت ، واذا وجه الناس فيه لوما فسيوجهونه اليك • على أنني أوثر ألا نعجل في ذلك ، وألا نعجل في اعلان زواجنا حتى لايعرفه مطلقك • فاذا انقضت على زواجنا بضعة أشهر انتقلت الى بيتي بالقاهرة ، ودبرنا أمر الطفلين في هذه الاثناء • عند ذلك أجبته : اذن فأنت وماتريد

ولم ينقض هذا المساء حتى كان قد أحضر المأذون فأطلعه على وثيقة الطلاق فعقد زواجنا • وانتهت بذلك حيرتي وقلقي اذ أصبحت في عصمة رجل أثق به وأطمئن اليه ، وله الى ذلك الفضل في أنه هو الذي عرض نفسه لينقذني من هذه الحيرة وهذا القلق ، رغم مايمكن أن يتمهه الناس به من أنه خان عهد الوفاء لصديقه وخفر ذمته وسلبه زوجه •

وعاد الرجل الغداة الى القاهرة وكأن شيئا لم يحدث • وأخذ يتردد علينا كل أسبوع متحاشيا يوم يجيء مطلقي يرى ولديه • وانقضت الأيام والأسابيع والاشهر بعد ذلك وقد سكنت نفسي

وهدأ بالى واطمأننت الى الحياة ولم يعد يشغلنى من أمرها الا أن ندبر كيف ننسب الطفلين الى زوجى • ولم يكن تدبير هذا الامر مستطاعا قبل أن يعلم مطلقى بزواجنا ، وقبل أن نقطع صلته على وجه حاسم بنا •

وبقيت أتناول من مطلقى ماقرره لنا من نفقة حتى عدت الى القاهرة ، وحتى علم بأننى تزوجت صديقنا • هنالك جن جنونه وأيقن أننى لم أفسد زواج صديقتى بصديقنا الا لأتزوجه أنا • فأنا اذن كنت أحب الرجل الذى تزوجته اليوم اذ كنت فى عصمته هو • وأنا لم أغاضبه ولم أناصبه العداوة الا لهذا السبب ، وأن صديقنا حرضنى على ذاك وأعاننى عليه ، كما حرضنى على هجر بيت الزوجية والفرار الى الاسكندرية • ولم يترك مطلقى وسطا من الأوساط التى يغشاها الا طعن فيها على صديقنا أشد الطعن ، ورماه بالخيانة والغدر ، وبكل منقصة تنكرها الرجولية وتأباها الكرامة •

ولم يقف أمره عند هذا الحد • انه يعلم تعلقى بولدينا وحبى لهما حب العبادة ، لا حب الام • لذا بعث الى من يخبرنى أننى لم أعد أصلح للقيام عليهما بعد أن تزوجت وأنه يطلب أن أسلمه اياهما بالحسنى ، والا قاضانى لضمهما اليه • وطلبت الى رسوله أن يبلغه أننى لا أزال أطمع منه فيما عودنيه من عطف ونبل ، وألا يحرم الولدين من جنان أمهما وقد تعوداه ، وأننى سأبعث بهما اليه يوما من كل أسبوع يقضيان سحابة نهارهما عنده • وتوسلت الى الرسول كى يقف مدافعا عنى عند مطلقى وقلت له : « بالله عليك ! أكان يرضيك أن أبقى بلا زوج فتكثر قالة الناس فى وتجرحنى بالباطل! لقد نذرت نفسى غداة طلاقى لهذين الطفلين أربيهما ثم لا أتزوج ماعاشا • لكننى رأيت نفسى بعد شهر عاجزة عن الوفاء بنذرى ،

معرضة لما تتعرض له امرأة فى مثل موقفى من سوء القالة واثم الظن . ولولا أن عرض صديقنا نفسه ليفتدينى مما كنت معرضة له لبقيت ينهشنى الناهشون ويدسون الى قلبى سمومهم حتى أموت كمدا . لكن هذا الرجل كان صديقا لمطلقى قبل أن أعرفه ، ثم كان مطلقى سبب التعارف بيننا وتوثيق صلتنا ، اذ قدمه لى على أنه أكثر أصدقائه وفاء ومروءة . هذا الرجل أدرك حرج مركزى فقدم نفسه منقذا لى فتشبثت باليد التى مدها الى ابقاء على سمعة طاهرة ماتعرضت يوما لكلمة سوء . أليس حقا على مطلقى أن يحمد هذا الصنيع ؟ أم يكون جزاء ولدى أن يحرما من حنان أمهما وأن يعيشا مع مربيتهما يتيمين ؟

« ناشدتك المروءة ياسيدى ألا مارجعت الى صاحبك وأقنعته بأن ولدينا عندى أعز من عينى ، بل أعز من حياتى ، وأننى سأبقى مدينة له بهذه الحياة لقاء تركهما فى أحضان عنايتى . أنا أم ياسيدى فلا تكن على فى حرمانى من حبة قلبى ، بل كن لى ولك شكرى وثنائى ، وادع الله معى أن يوفقك فيما أرفع اليك أكف الضراعة فيه » .

كانت نبرات صوتى أثناء هذا الحديث تصورماينبض به قلبى . وكنت فى ختامه قد رفعت كفاى المرتعشتين ضارعة الى رسول مطلقى ليكون عونى . فلما أتممت كلامى ألقيت رأسى بين ذراعى أخفى دموعى التى انهملت وفضحها بكائى .. ثم رفعت رأسى فاذا الرجل كله التأثر يكاد يبكى لبكائى . فلما استرجعنا بعض سكينتنا قال :

ــ ليتنى أستطيع فى الامر شيئا ياسيدتى . ولو أنك رأيت ثورة مطلقك لعذرتنى . ولو أننى عرفت قوة حجتك لما قبلت رسالته . صحيح أنه حذرنى من سحر حديثك . وحديثك ساحر لاريب..

ولست أدرى والامر ماأسمع وأرى كيف طابت نفسه بتطليقك . على أنه ذكر لى أنك لو كنت تزوجت شخصا غير هذا الذى خان عهده وأبعدك عنه لما ثار بك هذه الثورة . مع هذا سأكون رسولك إليه ، كما كنت رسوله اليك . وأرجو أن أوفق معه الى مايرضيك رغم مافى ثورته من عناد وعنف . »

انصرف هذا الرسول ولم يعد الى . وحسبت أنه وفق فى اقناع مطلقي بما أردت لأننى لم أسمع عن هذا الموضوع حديثا أسابيع متعاقبة . بل لقد بعث الى مطلقى بنفقة الطفلين بعد ذلك مما ثبت عندى الظن بأنه أجاب رغبتى . على أننى علمت أنه سافر بعد ذلك الى الاسكندرية لغير سبب أفهمه . ولم أعن نفسى بالتماس العلة لهذا السفر ، ولم أتتبع خطواته فيه ، ولم يدر بخاطرى أن له بحياتى هناك أية صـــلة . وكان من أثر سكوته الظاهر عنى أن استراح ضميرى اذ قدرت أن أمر الطفلين انتهى الى ماأريد ، وان اضطرنى ماحدث للتنازل عن مطالبة زوجى بأن يتبناهما حتى لايثور الأب من جديد لاهدار أبوته فيعود الى المطالبة بضمهما اليه .

وانني فى مخدعى ذات صباح بعد هذه الاسابيع اذ حمل الى الخادم اعلانا قال ان أحد المحضرين جاء به واستمضاه على أصله . وقرأت الأعلان فاذا هو من مطلقى يطلبنى به أمام المحكمة الشرعية لسماع الحكم بضم ولديه اليه ، لأننى تزوجت وأصبحت لاأؤتمن عليهما . عند ذلك طاش صوابى وخيل الى أن انتزاع الصبيين منى معناه انتزاع حياتى من بين جنبى ، ولعنت الساعة التى قبلت فيها أن أتزوج من صديقنا ، وحسبت أنى اذا انفصلت عنه بالطلاق خلت هذه العقدة واستبقيت ولدى فى أحضانى .. لكن ماذا يقول الناس يومئذ عنى . ويالشماتة صديقتى ان حدث مثل هذا الأمر . انها يومئذ لتدق الطبول وتقيم الافراح وتنادى بأن القدر

انتقم لها من مؤامرتي عليها . رباه ماذا أفعل وأي سبيل أسلك ؟! .

واني لفي حيرتي اذ أقبل صديقنا ـ زوجي ـ فناولته الاعلان فقرأه ثم رده الي ، وبعد هنيهة قال : « ياله من دنيء . أيحسب قاضيا يحكم بما يطلب ليقيم الطفلان في بيت لايرعاهما فيه أحد ؟! سأوكل عنك أبرع المحامين الشرعيين يسلقونه في المحكمة بألسنتهم الحداد ولا يدعون له أديما صحيحا حتى يمزقوه اربا اربا . وسيعلم يوم يحكم القضاء برفض دعواه ومضاعفة نفقة الطفلين أنه اختار أسوأ ميدان يمكن أن ينازلك فيه . . »

وبعد الظهر أخذ الاعلان وذهب به الى محام شرعي من أصدقائه وكله عني . ويومئذ أيقنت أني عدت مع مطلقي الى خصومة لاتنفع فيها مغاضبة ولا ملاينة ، لأنها انتقلت الى عناد عنيف بين زوجي القديم وزوجي الجديد . ولم يخطيء ظني . فقد شغل زوجي بهذه المسألة الى غير حد ، حتى لقد كان يذهب الى المحامي بعد الظهر من كل يوم ، ثم يجيء الي يقص مادار بينهما ، ويذكر أن المحامي واثق من كسب الدعوى لا محالة

مع هذا كانت المخاوف تساورني . أو لو قضى لمطلقي بضم ولديه فماذا عساي أفعل ؟ أأسلمهما له في يسر واذعان لأنني ان لم أفعل تسلمهما بقوة القانون ؟ لكن حياتي تصبح بعد ذلك جحيما لايطاق ، ويعلم الله بعد ذلك مايكون بيني وبين زوجي في حياتنا الحاضرة .

وبدأت أعصابي تضطرب لكثرة تفكيري في هذا الأمر ، وأدى ذلك بي الى صنع ماكنت أسخر منه حين يصنعه غيري . بدأت أزور الذين يقرأون الكف وينظرون في فنجان القهوة لعلهم يطمئنونني على مصير الولدين . وقيل لي ان شيخا من أولى البركة يستطيع بتعاويذه أن يكفل لي كسب قضيتي فذهبت اليه من غير أن

يعلم زوجى • وكنت كلما رأيت الطفلين أمامى بكيت كأنما أصبحا يتيمين • وكنت أختلف مع زوجى وأغاضبه لسبب ولغير سبب • وكان هو يدرك علة اضطرابى وما أنا فيه فلا يغضبه غضبى ، بل يبذل كل جهده ليهون على الامر ويرد الى الطمأنينة •

وتأجلت القضية غير مرة بطلب محامى ، ثم جاءت جلسة المرافعة فيها فأردت حضورها ، فألح على زوجى ألا أفعل مخافة أن تصدر منى كلمة من غير قصد تكون سببا فى ضياع حقنا • وترافع المحاميان فى الدعوى وقالا فى وفى زوجى وفى مطلقى ماقال مالك فى الخمر • وحجزت القضية بعد ذلك أسبوعا للحكم فازددت اضطرابا • لقد أفهمنى زوجى أن دعوى مطلقى سترفض فى الجلسة وفى وجهه ، فما هذا التأجيل !•

وقضيت الاسبوع كاسفة البال كثيرة التفكير • فلن يتغير شىء فى حياتى اذا رفضت المحكمة طلب مطلقى • أما اذا حكمت له به فالويل لى ! •

وجاء موعد النطق بالحكم فاذا هو يقضى بضم الولدين الى أبيهما• وقعت الواقعة اذن وأقر القضاء ماوجه الى والى زوجى من مطاعن• قال زوجى حين رأى جزعى وبكائى : « لاتجزعى فسنستأنف الحكم • وأمل المحامى فى الاستئناف كبير » • قلت :« وقدكان أمله كبيرا عندما تسلم الاعلان الاول •-وهانحن خسرنا القضية فى الجولة الاولى ، ولا أريد بحال أن نغامر بها أمام الاستئناف فنخسرها مرة أخرى • اننى أريد أن أرى مطلقى بنفسى وأنا واثقة من مروءته وطيبة قلبه »• قال : « الامر لك ،فاصنعى ماتشائين •لكن الاستئناف يجب أن يرفع بعد أن أصبحت أنا هدفا لمطاعن لايمكن أن أقبلها»•

وأعلننى مطلقى بالحكم ، وكان مشمولا بالنفاذ المعجل ، وقال فى الاعلان اننى ان لم أسلمه الطفلين لضمهما اليه فسيتخذ

إجراءات التنفيذ • قلت في نفسي : أصبح الامر يقتضي الحكمة وحسن الحيلة ! وهبني ذهبت اليه بنفسي فأبى أن يقابلني ، أو قابلني في جفاء وأصر على تنفيذ الحكم ! أليس خيرا أن أبعث اليه رسوله الذي خاطبني في أمر الولدين ، والذي تأثر بحديثي وكاد يبكي لبكائي ؟!

وبعثت الى هذا الرسول أرجوه مقابلتي • فلما حضر عندي قلت له : « لقد حسبت سفارتك عني أقنعت مطلقي بالعدول عن ضم ولديه ، وهاهو ذا قاضاني في أمرهما ، وحكم له القضاء بضمهما ورضيت بذلك كرامته • أفأطمع منك مرة أخرى في المرافعة عنده نيابة عني ؟ أرجوك أن تؤكد له أنني لم أكن أريد السير في مخاصمته ، وأن زوجي هو الذي اندفع فوكل محاميا عني لأن عريضة الدعوى مسته في كرامته وابائه ، وأن تذكر له أنني طوع ارادته في كل مايريد اذا هو ترك هذين الطفلين يكبران بعيني في رعايتي وحناني • انه يعلم أنه قاتلي لا محالة اذا انتزعهما مني ، فاذا قدر لي أن أعيش قضيت مابقي من أيامي شقية بائسة • فان أرضى ذلك مروءته ورحمته وماعودني طول حياتي معه من بر وعطف فذلك شأنه وذنبي في رقبته • وان غلبه ماأعرف من بره فترك لي الطفلين فأنا رهن اشارته • ان شاء أن يطلقني زوجي فله مايشاء وان أراد أن أهجر القاهرة الى أي مكان يختاره فأنا طوع ارادته • انني أقبل كل شيء مابقي الولدان في أحضان عنايتي وحناني • انني أم ياسيدي فارحموا أمومتي • ارحموا هذه العاطفة التي أودع الله تكويننا معشر الامهات وجعل منها نور أعيننا وسبب حياتنا • ارحموني فاني اليوم على حافة اليأس ، فان تفعلوا شكرتكم ، أو يكون قضاء الله بيني وبينكم » •

واني لأحدثه وعيناي تسحان بالدمع اذا الصبيان يدخلان علينا

ولا يكادان يريان ماأنا فيـه حتى يرتميـان على يبكيان وهما يقولان : « نحن فداؤك ياأماه » •وبكى الرسول لبكائنا• فلما هدأت سورتنا قال : « لك على أن أكون عند مطلقك رسول هذين الصبيين قبل أن أكون رسول أمهما • فاذا أحوج الامر فسأطلب اليه أن يدعوهما ليسألهما أيبقيان معك أو يعيشان معه ، والله يوفقنى لما يرضاه وترضينه ياسيدتى » •

وانصرف الرجل بعد أن شكرته فى توسل تنطق به دموعى أبلغ مما ينطق به لسانى • ولم يبطىء الرجل على غير ثلاثة أيام ثم عاد الى متهلل الوجه يقول : « بشراك ياسيدتى ! لقد نجحت سفارتى عنك كل النجاح » • ثم أخرج الرجل من جيبه ورقة دفعها الى وقال : « وهذا هو الحكم الذى صدر لمطلقك بضم ولديه اليـه وقد كتب عليه بخطه وتوقيعه بالتنازل عنه لمصلحتك وبقبوله ابقـاء الصبيين فى رعايتك • »

ولقد كدت أطير فرحا حين تناولت منه صورة الحكم وقرأت تنازل مطلقى عليها ، وكدت لولا الحياء أن أقبل الرسول • ثم اننى شكرته من أعماق قلبى وسألته : « وفيم كان انقطاعك عنى كل هذه الايام الثلاثة • أترى مطلقى لم يقتنع لأول ماحدثته»•وتردد الرجل وطلب منى اعفاءه من الجواب على سؤالى فزادنى ذلك شوقا لمعرفة ماكان والحاحا فى السؤال عنه ، فكان جوابه •• « لم يكن انقطاعى هذه الأيام الثلاثة لأن الدكتور أبى أو تردد منذ اليوم الاول • فقد ذكرت له رسالتك بكلماتها فذرفت عيناه الدمع وقال: « مسكينة هذه المرأة ! لولا غرورها وغيرتها لما جرت على نفسها وعلى وعلى ولدينا كل هذا البلاء • هى تعلم أننى أحببتها ولا أزال أحبها • لكنها لم تطق الى جانب محبتى اياها أى عاطفة من جانبى لغيرها ، ولا عاطفة الصداقة ، ولا عاطفـة المروءة • واننى ليعز

على أن تتألم وأن أكو ن أنا سبب ألمها . ولست أريد منها شيئا قط . لتبق مع زوجها الخائن وليمتعها الله بحياتها وحيـــاته . ولتحتفظ بالولدين فلن أحرمها منهما وأنا أعلم أنها من دونهما لن تطيق الحياة» . ومد مطلقك يده الى مكتبه يريد أن يخرج الحكم منه ليكتب عليه بالتنازل . وانه ليجر درج المكتب اذ دخلت علينا صديقتك ورأتني . واذ كانت قد سمعت حديثي اليه دفاعا عنك قبل أن يرفع الدعوى فقد أدركت أنني جئت اليه بسفارة منك . لذلك صاحت به وبي : «ماذا تفعلان!» . وقص عليها مطلقك مارويت له من حديثك فقالت : « ياللفاجرة ! . أفنسيت ماصنعته معك كل هذه السنين ؟ لقد غاضبتك رغم اكرامك اياها لغير شيء الا لغيرتها مني غيرة حمقاء . وقد فرت منك الى الاسكندرية . فلما أردتهـــا على أن ترجع اليك أبت منك هذه الكرامة . مع ذلك بالغت أنت في اكرامها وبعثت بها وبولديها الى أوربا . وأرادت المصادفة أن أكون واياها على باخرة واحدة . ولو أنك رأيتها اذ ذاك وكيف أدت بها الغيرة الى حديث السوء عني مع مسافرة فرنسية كانت معنا ونقلت الى أقوالها لأيقنت أنها أصيبت في عقلها . فقد أنكرت أنها صديقتي وذكرت لهذه الفرنسية أن أصدقائي يسمونني (الارملة الطروب) . فلما عادت لم تعترف لك بالفضل ، بل ألحت عليك في أن تطلقها . فلما طلقتها تزوجت هذا الوغد الذي خانك وخفر ذمة صـداقتك . أهي هـذه المرأة التي لازال حبها يسـيل دموعك وينيلها كل برك وعطفك ؟ . »

واستطرد الرسول بعد ذلك يقول : « هنالك رد مطلقك درج مكتبه وأقفله وقال : « بالله عليك يا أخي ألا ماتركتني أفكر في الأمر سحابة هذه الليلة . » فلما عدت اليه الغداة ألفيت صديقتك عنده . وقد أخذت لدخولي علينهما وظهر عليها بعض الارتبـــاك دليلا على أنها كانت تتكلم في موضوعنا . عنـد ذلك قلت موجهـا

الكلام اليها ، وكأنهـــا معى فى الحجرة وحـــدها .. « حنانيك ياسيدتى ورفقا بهذين الصغيرين ! انك أم وتقدرين حاجة الصغير الى حنان أمه ، اننى لا أخاطب الدكتور باسم مطلقته ، وانما أخاطبه باسم ولديه . باسم هذين العصفورين اللذين لايزالان فى حاجة الى دفء هذا الصدر وعطفه ، صدر الأم الحنون التى ترى فيهما روحها وحياتها . فكرى فى الأمر ياسيدتى من هذه الناحية وانسى المرأة التى تكون قد أساءتك . انسى غريمتك التى أثرت غيرتها وأثارت غيرتك واذكرى أبناءك أنت !أفتطيقين أن يحرموا من حنانك ثم تطمئنين عليهم . واسمحى لى بعبارة قد ترينها قاسية : أو لو خيرت لا قدر الله بين أن تفقدى جمالك هذا الفاتن أو تفقدى أبناءك فأى النكبتين تختارين ؟ أرجوك ياسيدتى أن تكونى مع الصغيرين لا عليهما فهمــا لم يسيئا اليــك ان كانت قد بدرت من أمهما اليك مساءة » . ثم اننى توجهت بالكلام الى مطلقك وقلت له: « وأنت ياصديقى ! أتسيغ رحمتك أم يسيغ عدلك أن يتحمل هذان الصغيران وزر صديقك وخيانته عهدك ! انك لن تستطيع أن تنقطع لهما وعملك يشغل نهارك وبعض ليلك . وليس لك أم تحنو عليهما حنو أمهما . وقد أنصفك القضاء وحكم لك . وهــــذه مطلقتك لاتطمـــع الا فى مروءتك وكرمك ونبلك . أفتـــردنى الى الصغيرين واليها خائبا ؟ حاشاك أن تفعل ! »

فنظرت الى صديقتك ملء عينيها الفاتنتين وقالت : « ماأرى الا أن حديث هذه المرأة سحرك كما سحر غيرك . وقد أدليت بحجتى وأدليت أنت بحجتك . فلننصرف بسلام ولنترك الامر لصاحبـه .

قال مطلقك : « فعد الى ياأخى غدا نتناول الغداء معا . وعندها أقول لك كلمتى الحاسمة . » وانصرفت وانصرفت صديقتك . فلما دخلت عليه فى موعد الطعام سلمنى صورة الحكم وعليها تنازله كما سلمتك اياها . فلما قرأتها وشكرته قال : « لا حيلة لى فى ذلك

ياصديقى ، فأنا لا أملك اغضابها وأنا لا أزال أحبها . وبذلك انتهى الكلام بيننا فى هذا الامر . »

فلما أتم الرسول حديثه قلت له : « اننى أكرر شكرى لك ياسيدى من أعماق قلبى . ولست أدرى كيف أستطيع أن أجزيك بما صنعت ، فالله يتولى جزاءك »

وودعت الرجل الى الباب حين انصرافه أكرر له عبارات الشكر فوقف قبل أن يتخطى الى الخارج وقال : « لاتشكرينى ياسيدتى، بل اشكرى مطلقك . اشكرى هذا الرجل ذا القلب الكبير الذى لايعرف الحقد ولا القسوة . ولو اعتقدت أنك تستطيعين لأشرت بأن تذهبى اليه بنفسك وتبذلى له خالص الشكر على سمو نفسه وعظيم مروءته . »

وفاض بى السرور حين رأيت نفسى وحيدة فى غرفتى فارتفع صوتى بالغناء . واننى لكذلك اذ دخل على زوجى فجأة وسألنى مالى ، فأعطيته صورة الحكم فقرأ التنازل الذى عليها ثم قال :« لم يبق اذن للاستئناف موضع ، ولم يعد فى مقـــدورى أن أنتقم من هذا الرجل الذى أساء الى بلسان محاميه شر اساءة .» قلت:لاعليك ياعزيزى . لقد كسبنا الدعوى من غير أن نستأنفها . والخاسراليوم هما المحاميان . فلم يبق لمحامينا أن يمزق أديم مطلقى ، ولم يبق لمحاميه أن يمزق أديمنا . فكفانا ماكان من ذلك أمام المحكمة الابتدائية . ولنحتفل اليوم بأن الولدين ظلا فى أحضاننا . فاليوم عندنا هو خير عيد مر بى فى حياتى .

وأسلمت نفسى بعد هذا اليوم الى فيض من الغبطة أعتاض به عن قسوة الايام التى مرت بى منـــذ بدأ الحديث فى فصل ولدى عنى . وكذلك خلا بالى وغمرتنى من الحياة نعمة أنستنى كل مامر

بى من متاعبها • وماأيسر ماينسى الانسان البأساء والضراء اذامسته نعمة لم يكن يتوقعها •

وأقبل الصبيان فأخذت أقبلهما وأعيد تقبيلهما كأنهما كانا فى سفر طويل ثم عادا اليوم منه ، أو كأنما كنت فقدتهما ثم لقيتهما • وشعر الصبيان رغم عبرات جادت بها عيني أنني فرحة مستبشرة فغمراني بقبلاتهما وأمسكا بيدى يعبثان بهما فى نشوة وطـــرب ويدعوانني بأعذب الأسماء التى تمر بخاطرهما • وكذلك عمت البيت كله نشوة لم تكن المربية أقلنا غبطة بها واشتراكا فيها •

ومرت الأيام وهذه الغبطة تملأ البيت بشرا وحبورا ، وأنا لا أفكر في شيء الا فيما غمرنا من نعمة الرضى ، وأحسب أن أيام الهموم قد ابتلعها اليم فى جوفه ، وأن المستقبل كله سيكون معطرا بشذا السعادة ، بعد أن بدأت أزاهيره تتفتح عن الأمل الباسم •

الفصل التاسع

لم يكن لى بد من أن أشكر مطلقى على ما أسدى الى من يد وطوق عنقى به من كريم مروءته ونبله • ولم أكن أستطيع أن أذهب اليه بنفسى وأنا فى عصمة صديقنا ، وأنا معرضة ان فعلت أن ألقى عنده صديقتى فأضطر للفرار من وجهها فلا يحمد الرجل أدبى وأنا لا أملك فى هذه الحال الا الفرار ، لهذا رأيت أن يكون ولدانا رسولى اليـه عنى وعن نفسيهما • فلمـا كان الموعد الذى يذهبان اليه فيه كل أسبوع علمت ابنتى ماتقول لأبيها وجعلتهـا تكرره حتى حفظته عن ظهر قلبها • فلما عاد الصبيان من عند أبيهما ذكرت لى ابنتى أن أباها بلغ منه التأثر غايته حين قبلت يده وقالت له : ان والدتى تشكر لك برك ومروءتك من أعمـاق قلبها » ، وأنه ازداد تأثرا حين قبلت هى وقبل أخوها يديه وقالا له معا : « ونحن كلانا نشكر حنانك وعطفك • » فقد أجلسهما عند ذلك الى جانبه وأوسعهما تقبيلا ولم يستطع وعبراته تنهمل من عينيه أن يقول كلمة واحدة

تعاقبت الأيام بعد ذلك وأنا فى غبطة بما ظفرت به من بقاء طفلى فى كنفى وتحت جناحى • فلقد كنت أراهما نهارى ، فاذا جاء موعد نومهما ذهبت الى غرفتهما أتحسسهما بيدى أريد أن أطمئن اطمئنانا ماديا الى أنهما بجانبى وتحت سقفى ، وكأنما كنت أخشى أن يختطفهما أثيم فيحرمنى متاع عيشى وموجب حياتى •

وفعل الزمن فعله فهدأت بمرور الاسابيع نفسى وعدت سابق سيرتى • لكن الزمن لايرضيه أن يبقى مطمئن فى طمأنينته ولا سعيد فى سعادته • فقد عاد الصبيان من عند أبيهما يوما فذكرا أنهما

رأيا هناك صديقتي ومعها كبرى بناتها ، وأنها نظرت اليهما وقالت توجه الكلام الى أبيهما :« ماشاء الله . لقد كبر الصبيان وترعرعا». لقد انتفض جسمي كله حين سمعت ماذكرا . أكان ذلك لأنني خشيت أن تحسدهما عيناها الجميلتان ، أم أن وجودها مع ابنتها عند مطلقي أثار نفسي وحرك ماكاد يندمل من شجوني؟ لست أدري. لكن عاطفة الشكر لمطلقي بدأت من هذه اللحظة تضطرب في نفسي ، وبدأت أشعر بأني لم أخلق لاكون يوما على وفاق معه .

وأخذ ذهني يفيق من السبات المسعد الذي كان قد استراح اليه ، وجعلني أستعيد ماضي حياتنا وآخر أحاديثه عني للرسول الذي كان سفيره الى وسفيري اليه .. ولقد وقفت عند كلمة قالها لهذا الرسول وقالها من قبل ذلك لي ، أنه لولا غروري وغيرتي لما جررت عليه وعلى نفسي وعلى ولدينا ماأصابنا من المتاعب ، وأنه مع ذلك لايزال يحبني ولن يحب غيري . وابتسمت حين استعدت هذه العبارة وخيل الى أنه لولا هذا الغرور وهذه الغيرة لما أحبني ولما ظل متشبثا بحبي رغم ماأذقته من أهوال . لكن ابتسامتي لم تلبث على شفتي غير لحظة ثم تلاشت ، لان طيف صديقتي تعرض أمامي وكأنها تقول : « لاتخدعي نفسك ، فما يدور بخاطرك الساعة ليس الا أثرا من آثار غرورك وغيرتك . » وأزعجني هذا الطائف ودفعني لان أتساءل : « اذا كان مطلقي لايزال يحبني وان لم أحبه فما تردد هذه المرأة عليه ، وما استماعه لها حتى كاد يتردد في اجابة مطلبي بقاء ولدي في كنفي ورعايتي » .

واضطربت في نفسي عاطفة الشكر لمطلقي حتى بلغ من اضطرابها أن عدت ألعن يوم تزوجنا ، وأسأل نفسي كيف استطعت حينذاك أن أحبه ، وكيف استطعت أن أعيش معه السنين التي عشناها جنبا الى جنب . ولم يكن قد جد مايحرك هذا الشعور عندي الا احساس

بأنه يخدعني حين يذكر أنه لايزال يحبني وان كنت لا أحبه • فلو كان مايقوله صحيحا لأقصى عنه صديقتي ولما سمح لها بزيارته منفردة أو مع ابنتها ، ولاسمح لها بأن تتدخل فى أخص شئونه • لعلى كنت ظالمة أو على الأقل كنت مبالغة فى ثورتى هذه برجل أحسن الى ، ولا يزال يظهر لى خالص الود باحسان معاملته ولديه • ولعلى كنت يومئذ لا أجد جوابا اذا سألنى سائل :« وماذا تقولين اذا تزوج مطلقك صديقتك كما تزوجت أنت صديقه ؟ وهلا يكون يومئذ قد جزاك أعدل جزاء ؟» بل لقد كان حقا أن أذكر أنا ذلك وان لم يسألنى عنه أحد • لكنى لم أفعل ، وبقى طيف صديقتى يتبدى الحين بعد الحين أمامى ليزيد ثورتى احتداما ، وليزيدنى حنقا على الرجل ومقتا له وغضبا منه •

على أننى لم أكن أستطيع أن أجاهر بثورتى هذه أو أبرز لها فى الخارج أثرا • وهل ترانى كنت أستطيع أن أحجب ولديه عنه اعلانا لغضبى ؟ انه لم يقصر قط فى حقهما ،فلو اننىفعلت لاتهمنى الناس جميعا بالجحود وانكار الجميل ، ولم يبق بينى وبينه غير الولدين • فلأكتم اذن حفيظتى فى قلبى حتى اذا حانت فرصة لاظهار هذه الحفيظة من غير أن يلومنى الناس لم أتركها وانتهزتها•

لقد كنت أعلم أنه عسير أن تحين هذه الفرصة • فلم يكن الرجل يقصر فى حق الولدين ولا فى نفقتهما ، وكانا كلما ذهبا اليه أغدق عليهما من فيض حنانه وبره مايجعلهما يعودان الى ولساناهما يلهجان بالثناء عليه ومحبته • فلا بد لى من أن أصبر • والصبر وحده يحسم الاحداث والنوب •

وتراخت الشهور يتلو بعضها بعضا وتكاد نفسى تضيق بها • واننى لكذلك اذ عاد ولدى يوما من عند أبيهما متجهمين وفى أعينهما أثر البكاء • قلت : «مابكما » قالا : «انأبانا مريض اشتدت به الحمى

ولم نستطع المكث معه الا قليلا ، ولم نستطع مغادرة بيته قبل الموعد الذى تعودنا أن نغادره فيه • » وخيل الى أن هذه فرصة سنحت لمنعهما من الذهاب اليه محافظة على صحتهما حتى لاتمتد اليهما العدوى منه • وجاء زوجى فذكرت له مامر بخاطرى فقال :«ليس هذا من حقك الا أن يمنع الطبيب دخولهما عنده • لقد أكرمك الرجل فلا تشقى عليه فى علته • وسأستفهم عن الطبيب الذى يعالجه حتى نستطيع تتبع أخباره • والله أرجو من كل قلبى أن يتم شفاءه • » وبدت على الدهشة لما قال فأردف « اننا ياعزيزتى عرضة كلنا للسقم وللعجـز وللموت • وليس يشمت بانســان فى هذه الحالات الا نذل وضيع • وقد كان مطلقك زوجك كما كان صديقى • واذا جاز لنا أن نخاصمه وهو فى صحته فأقل ماتوجبه المروءة علينا أن نتألم لحاله وهو فى علته وأن نرجو له الشفاء » •

وأطرقت لسماعه وتولانى العجب أن تصدر عنه هذه العبارات بعد الذى عرف من اتهام مطلقى اياه بخيانة العهد وخفر ذمة المروءة، وبعد أن كان حريصا على أن يستأنف الحكم الذى صدر لمصلحة مطلقى لينتقم لنفسه منه فى مرافعة محاميه

عند ذلك أيقنت أن فى بعض النفوس الانسانية عنصرا يسمو على الحقد ساعة عسرة الصديق ، وأن للصداقة قدسية لايكفر بها الا الجاحدون •

وأخبرنى زوجى الغداة أنه عرف الطبيب المعالج الذى يتولى العناية بمطلقى ، وأنه سأله عن حاله فقال له ان مابه من حمى لايمكن تبين نوعه قبل بضعة أيام وقبل التحليل ، ولما سأله أتجوز زيارته طلب اليه أن ينظره خمسة أيام ثم يبدى فى الأمر رأيا • وفى ختام الأيام الخمسة قال انه لايرى بأسا بالزيارة على ألا تطول • ونبهت المربية الى ذلك وقلت لها أنها ان استطاعت أن يبقى

الولدان لا يدخلان على أبيهما حتى يجيء الطبيب فيدخلان معه كان ذلك خيرا • ونفذت المربية ماذكرت ثم عادت مع الولدين لموعد الغداء فأخبرتني بأنها تأثرت أشد التأثر حين رأت مطلقي وقد هده المرض وأضنته الحمى •

وبعد أيام دق التليفون وأخبرني المليونير أنه يريد أن يراني • وجاءني في الموعد الذي ضربته له وأخبرني أن مطلقي دعاه الى سرير مرضه وطلب اليه أن يدفع الى نفقة الولدين ، وأضاف أنه يخشى على حياة الرجل من هذا المرض • فلما رآني المليونير صامتة قال : « ولست أدرى اذا أصابه المقدار كيف أقتضى ديني • لقد باع كل ما يملك جزءا بعد جزء ، وقد أصبح مستغرقا • ولولا مرضه ، ولولا أن ماطلب الى أن أدفعه اليوم يتعلق بنفقة طفلين بريئين ، لما قبلت أن أدفع عنه شيئا الا أن يجيئني بضامن ملىء يتضامن معه فى سداد ديونه »•وسكت بعد ذلك هنيهة ثم قال: « أوتقبلين ياسيدتى أن تضمنيه أو يضمنه زوجك ولك ماتشائين » •

فابتسمت ابتسامة ساخرة وقلت له : « ليتك لم تقبل ياسيدى دفع نفقة الطفلين اليوم لتأخذ مقابلها ضمان تضامن مع مطلقى • وأنا أعفيك من دفع هذه النفقة ان شئت » ••

قال الرجل : « لقد أسأت فهمى ياسيدتى •• انما أردت أن تتصل العلاقة بينى وبينك اذا حم القضاء فى هذا الرجل المريض » •

قلت : « شفاه الله ياسيدى ولا أحوجك أن تتصل هذه العلاقة • وما أحسب مرضه من الخطورة بما ترى » •

وانصرف الرجل بعد أن دفع نفقة الولدين ، كما أراد مطلقى • فلما جاء زوجى وأخبرته بما حدث وأظهرت العجب له ، وبخاصة بعد الذى كان يبديه المليونير من محبة لمطلقى واخلاص لصداقته، قال:

«لاتعجبي •• ان رجال المال هؤلاء لايخلصون لشيء غير المال ، ولا يؤمنون بشيء غيره •• هو دينهم وعبادتهم بعد أن بذلوا للحصول عليه مايأنف الرجل الكريم من بذله •• ولو أن مطلقك مات ، لاقدر الله ، لرأيت هذا الرجل يظهر أمامك وفي يده من الوثائق التي احتاط بها لنفسه مالا يدور بخاطرك ، وهو اذ طلب ضمانك أو ضماني انما أراد مزيدا من الاحتياط •• ولعله هو الذي اشترى ماكان يملك مطلقك أو أكثره ، هذا اذا لم يكن قد ارتهنه قبل بيعه ضمانا لديونه • وحسنا فعلت اذ رفضت ماطلبه منك حتى لايكون ترديده علينا من بعد مثار شبهة ، أيسر معانيها أننا مدينون له • وخير عندي أن يبيع الانسان بعض ملكه من أن يستدين من هذا الرجل »

لم يعنني أمر المليونير بعد أن رفضت طلبه • وانما عناني ماذكره من أن مطلقي باع مايملك جزءا بعد جزء • أترى اضطره لذلك ماأنفقه في أسفاري ، ولاصلاح هذا البيت الذي كنا نقيم به وتجديد أثاثه ، ولغير ذلك من مطالبي ؟ أم أنفقه مذ كان يعاون صديقتي لاستخلاص ميراثها وميراث أبنائها ؟ وأيا كان سبب انفاقه ، ألم يكن واجبا عليه أن يقدر لمستقبل ولديه حتى لايتركهما فقيرين عالة على غيرهما • ولكن لاعجب ! فهذا الرجل كما وصفه زوجي من سنين ، من طراز الاعيان الذين يبددون كل ثروتهم في سبيل التظاهر بأنهم من أهل الثراء ، وكل ماأكسبه اياه تعليمه العالي وما أكسبته اياه أسفاره وتجاربه ، لم يزد على طلاء ظاهر يستر الفلاح الكامن وراءه ، ثم لم يغير من طبعه شيئا • أو لو حم القضاء فيه فماذا يكون مصير هذين الصبيين ؟! أحسبني يومئذ في حل من أن أحمل زوجي على أن يتبناهما وأن ينتسبا اليه ، ثم لايكون لانسان أن يلومني على مافعلت وقد أردت خيرهما وكفالة مستقبلهما •

وعنيت بتتبع الانباء عن مطلقي وسير مرضه • وقد وثق زوجي صلته بالطبيب المعالج ، وكان يسأله كل يوم عن حال مريضه ، ثم

يحمل الى مايبلغه من الانباء • ولقد طال هذا المرض حتى مله المريض نفسه ، رغم تردد أصدقائه الكثيرين عليه وابدائهم أرق العواطف نحوه ودعائهم له بالشفاء والعافية • ولقد كانوا مخلصين فى دعائهم ، لان الرجل كان فى نظرهم مثال الطيبة والوداعة ودماثة الخلق ، ولان عطفهم اشتد عليه منذ طلقت منه ، اقتناعا من بعضهم بأننى كنت ظالمة له متجنية عليه ، ومن الآخرين بأنه كان سيء الحظ غير موفق فى زواجه •

وفكرت حين طال به المرض أن أحجب ولديه عنه ، محتجة بأنه يشتد تأثره حين يراهما فيسوء أثر ذلك فى صحته • لكن زوجى لم يرض ماأردت ، بحجة أن امتناع الولدين عن زيارة أبيهما يدخل فى روعه أن الطبيب هو الذى منعهما خوف العدوى من مرض فتاك ، وأن هذا الوهم اذا تمكن من نفسه فقد يقضى على حياته • وأهاب بى زوجى بعد أن ذكر لى حجته هذه ألا أحمل نفسى هذا الوزر لجسامته ، فاذا قضى الرجل نحبه ، لاقدر الله ، بقى ضميرى يؤنبنى مابقيت من أيام حياتى •

وقبلت حجة زوجى ونزلت على رأيه اكراما له ، لا خوفا على مطلقى • فان ماعرفته من أنه أصبح مستغرقا لايملك شيئا ، وأنه لن يترك لولدينا ميراثا قل أو كثر ، قد زاد حفيظتى عليه وغضبى منه • واننى لافكر يوما اذ استأذن على الرسول الذى كان سفير مطلقى الى وسفيرى اليه فى أمر الولدين وحضانتهما • وأذنت له • فلما حيانى وتناول القهوة قال : « جئت سفيرا مرة أخرى من قبل مطلقك • ماأشد جزعى على هذا الرجل النبيل ذى المروءة ، وما أعظم خوفى على حياته • انه يذبل يوما بعد يوم ويرى بعينيه أجله يدنو • وهو طبيب وهو لذلك أشد جزعا على نفسه لانه يعرف سير علته ، ويذكر فى ألم وحسرة أنه لابرء له منها • وهو يشكرك

من أعماق قلبه ويكرر هذا الشكر كلما بعثت له بالولدين يزورانه ويؤنسانه ، فهو يرى فيهما صورتك أنت مجتمعة الى صورته ، ويذكر كلما رآهما أسعد أيام حياته ، ويتولاه الاسى والحزن لانكما لم تستطيعا أن تعيشا في هذين الولدين ولهما • ولقد كنت أعجب ياسيدتى كلما ذكر لى أيام صحته وعافيته أنه لايزال يحبك ، وكنت أحسبه اذ ذاك يتغنى بحبكما الاول ويتشبث به لان قلبه لم يعرف حبا بعده • لكن هيامه بك اليوم ، وهو موشك أن يلقى ربه ، يدلنى على أنه كان صادقا ، وأن قلبه ظل حياته مليئا بك ولم يعرف غيرك • وهو قد أرسلنى اليوم اليك فى أمر لاأدرى كيف أصوره • انه يريد أن يراك ليستغفرك عن كل مامضى من ذنوبه ، طامعا فى عفوك واحسانك •

قلت فى دهشة : « يريد أن يرانى ! ••»

قال الرسول : « مهلا ياسيدتى ، فلا يأخذ منك العجب ، ولا تتولك الدهشة • ولو أنك رأيت هذا المريض ، المشرف على الموت ، كيف ينسى مرضه ، وكيف ينسى الموت كلما ذكرك ، وخيل اليه أنك زرته ، لما ترددت لحظة فى زيارته ، احسانا منك تبذلينه صدقة لوجه الله • فهذا الرجل لم يعد يعرف فى الحياة سواك ، ولم يعد يجرى على لسانه الا اسمك • أنت القبس الباقى له من نور الدنيا ، والامل المرجو عنده فى الحياة الآخرة • أنت حلمه فى يقظته وفى نومه • أنت مصدر راحته حين تنحدر به علته الى هاوية الفناء • انه حين يرى ولديكما يقول انه يحبهما لانهما ولداك أكثر مما يحبهما لانهما ولداه • انه يناديك باسمك مبتهلا مستغفرا ، كما ينادي المؤمن ربه في صلاته •• انه يهذى بحبك هذيان المجنون بليلى •• أولا يمس ذلك كله من قلبك أوتار رحمتك وبرك ! أولا تحسين ، وقد وصفت لك حاله ، أن من حق المروءة عليك ، لاأن تزوريه وكفى ، بل أن تلازميه حتى يلفظ نفسه الاخير » ••

اشتدت بى الدهشة وبقيت مشـدوهة لا أدرى ما أقول . فلمـا رأى الرسول حالى قال بعد برهة : « اننى عائد اليه الساعة ياسيدتى ولن أقول له أنى رأيتك . وسأعود اليك غدا فى مثل هذا الموعد . وأكبر رجائى ألا تخيبى أمل رجل أبقى على حبك حيـاته رغم يأسه منك وانفصاله عنك . قد تكون آخر سويعاته فى هـذه الدنيا حين يقع نظره عليك ، وحين يحاول أن يرفع اليك يديه مستغفرا من ذنوب يعلم الله براءته منها . سيقول لك أنه أخطأ ولم تخطئى ، وأن عليه كل الوزر فيما أصابك وأصـابه ولا وزر عليك أنت فى شىء قط . سيرفع اليك أكف الضراعة لتسامحيه فيسامحه ربه . ان لك قلبا ياسيدتى يعرف الرحمة وينسى الموجدة . فاستشيرى قلبك . والى غد فى مثل هذا الموعد لنذهب معا اليه » .

قال الرسول هذا الكلام واستأذن وانصرف . ولم أملك التفكير وأنا فيما أنا فيه من دهشة بلغت الذهول . وكيف ترانى أستطيع أن أفكر وهذا السيل الجارف من عواطف رجل تهدده المنون ينساب نحوى ويكاد يغرقنى . وخرجت الى حديقة المنزل أستنشق الهواء لعله يرد الى بعض سكينتى . مع هـذا بقيت عاجزة عن كل تفكير زمنا غير قليل . فلما أردت أن أفكر انتفض أمامى طيف صديقتى وكأنما تقول : هأنذا ، وانتفض الى جانبه شبح المليونير يطالب بديونه ، وأقبل ولداى فى هـــذه اللحظة فقبلتهما على عجل ثم أسرعت الى مخدعى مضطربة الذهن لا أرى ما أمامى .

وجاء زوجى وشاهد اضـطرابى فذكرت له ماجاء به الرســول وقصصت عليه حديثه . قال : « الامر لك ياعزيزتى ، ان شئت ذهبت غدا معـه ، أو شئت التمست لنفسك عذرا عن عدم اجابة مطلبه . ليس عندى ماأشير به فى موقف تملى فيه العاطفة ولا شأن للعقل به . ولو أننى وجهت الى مثل هذه الرسالة بوصفى صديق هذا الواقف

على أبواب الابدية لحرت فى أمرى ولترددت ماذا أصنع بعد الذى كان بيننا آخر الدهر من قطيعة وخصومة . لكنه أحسن اليك يوم ترك لك ولديك فأنت فى غير موقفي . وهو على كل حال لم يطلب الى أن أزوره فلا شيء يحملنى على أن أفكر فى الامر أو أعتزم فيه رأيا . فاصنعى أنت ماتشائين ولا اعتراض لى على أى قرار تتخذينه »

زاد هذا الحديث حيرتى . هبنى أبيت أن أذهب فبأى عذر أواجه الرسول ؟ أأقول أن قلبى لايطاوعنى أن أراه وقد ترك ولديه معدمين ينفق عليهما من يبعث الله الى قلبه الشفقة بهما ؟ أم أقول له ان مايهرف به ليس الا هذيان الحمى ، وأنه لو شفاه الله كما أرجو لأسف ان جرى اسمى على لسانه أثناء مرضه .. وان أنا قبلت رجاء الرسول وذهبت معه فماذا يكون موقفى من هذا الرجل المضطرب بين الحياة والموت ؟ ما الذى أستطيع أن أقوله له اذا هو خاطبنى باللهجة التى خاطبنى بها رسوله . لن أزيد على أننى سامحته ، ثم أضطر أن أرجوه كى يسامحنى فيما لعلى هفوت فيه . وهبه تأثر بلقائى ولفظ نفسه الاخير فى وجودى فأية مأساة عند ذلك أواجه ؟ .. »

وقضيت ليلى فى حيرة من أمرى ، وأرقت ولم يعرف النوم سبيلا الى جفنى . على أننى كنت كلما قلبت الامر ازددت اقتناعا بأنى لاقبل لى بالذهاب الى مطلقى ، ولا فائدة لمطلقى من ذهابى اليه . سيقدر الرسول حين أرفض الذهاب معه أنى لا قلب لى ، وسيرى أننى أسأت الى من أحسن الى . ولكن ذلك خير من أن أتعرض ويتعرض مطلقى لموقف لا طاقة لى به ، ولا جدوى له من ورائه .

وجاء الرسول الغداة لموعده ، فلما سلم على قال : لعل الله قد هدى قلبك الى خير تبذلينه لهذا المسكين . لقد رأيته بعد أن غادرتك أمس فكان أول مافاتحنى به أن سألنى ان كنت قد لقيتك وأديت

اليك رسالته • فلما أبلغته أن وقتى لم يتسع لما أراد انهملت عبراته وقال : « حتى أنت ياصديقى تتنكر لصداقتى حين ترانى على حافة القبر • ماضرك لو ذهبت اليها فرددت الى روحى بزيارتها أوبوعد منها أن تزورنى» • لست أكتمك ياسيدتى أننى أوشكت أن أفضى اليه بما حدث بينى وبينك أمس دفعا لاتهامه اياى أننى جحدت حق الصداقة • ولكننى وعدتك ألا أفعل حتى أعود اليك اليوم آملا أن تذهبى معى فتردى أنت روحه • أفترانى أطمع منك أن تكونى كريمة معه كما كان هو كريما ذا مروءة يوم خاطبته باسمك فى أمر ولديك ؟ •• »

قلت بعد هنيهة : أرجوك ياسيدى أن تمنحنى شيئا من صبرك ومن حلمك حتى أعرض عليك أمرى • لقد قضيت ليلة لم أذق فيها النوم أفكر فيما تطلب الى وأقلبه على كل وجوهه • ولم أنس منذ بدأت تفكيرى أننى مدينة بالشكر الخالص لسفارتك الناجحة عنى عند مطلقى فى شأن ولدى ، كما أنى مدينة له بالشكر على مروءته ونبله • ولهذا وددت لو استطعت أن أجيبك الى ماطلبت منى ان كان فى اجابته أى فائدة • أنت تطلب الى ياسيدى أنأزور مطلقى ليسمع منى أنى سامحته فيما لعله أخطأ معى فيهابانزوجيتنا• اذن فأبلغه عنى وهو لاشك مصدقك ، اننى سامحته من كل قلبى ، وأنى أطلب اليه كذلك أن يسامحنى وأن يغفر لى ، لعل الله يشملنا نحن الاثنين بعفوه ومغفرته • أقول ذلك صادقة مخلصة عن نفسى • أما ولدانا فأمرهما الى ربهما ولا أملك أنا من ذلك شيئا • انه ان اختاره الله اليه سيتركهما فقيرين الى عطف أجنبى يكفلهما ، أو يتبناهما • أترانى أستطيع أن أقول ذلك لمطلقى وهو فيما تقول موشك أن يلقى ربه ؟ وهل يرضيك أن أكتم ذلك فأبوء بائم الولدين فى غير ذنب ولا جريرة ؟ وهبنى ذهبت معك اليه ورضيت أن أكتم أمر الولدين ابقاء عليه واندفع هو يذكر أمامى ماقلت أنت

لى من أنه يحبنى ولا يحب غيرى ، أفأجيبه صادقة لكننى لا أحبك ، أم أجيبه كاذبة بأننى أحبه وأنه ملء سمعي وبصري ؟ انك تحدثنى باسم عواطفه التى تتحكم فيه ، فهل تريدنى أن أقف أمامه صلدة جامدة أسمع ولاأنطق ، أم تريدنى باسم الرحمة كاذبة مرائية ! •• ثم هبنى ذهبت معك اليه فكان ماتقول وقضى نحبه سعيدا بوجودى عنده فماذا يقول الناس عنى ؟ اننى أشقيته صحيحا وقتلته مريضا ! ذلك بعض مادار بخاطرى ياسيدى طول ليلى ، وأعفيك من سماع مابقى مما سواه • فهل ترانى أصبت الرأى ، أم ترى أن تشير على بما يخالفه ؟ ••

وظل الرجل صامتا كأننى لاأزال أتكلم ، وكأنه لايزال يسمع • فلما فطن الى سكوتى التفت الى وقال : يبدو لى ياسيدتى أنك اتخذت فى الأمر قرارا لا سبيل الى الرجوع فيه • فقد فرضت كل الفروض وأجبت عليها جوابا لايحتمل المناقشة • ولعلى لو قلت لمطلقك أنك سامحته وصفحت عنه فيما لعله فرط منه أرضاه ذلك وطمأنه • ولعله يزداد اطمئنانا حين أذكر له أنك تريدين أن يغفر لك كما غفرت له ، وأن يسامحك كما سامحته • ولكنى شد ماأخشى أن يبقى يعذبه ضميره اذا عرف أنك سامحته عن نفسك ، وأبيت أن تسامحيه عن ولديكما • أنا أفهم ماتقولين من أن أمرهما ليس لك ، وأنهما هما اللذان يملكان مسامحته يوم يكبران • وهو لاريب يفهم ذلك كما أفهمه • ولكنه يطمع فى ألا يكون قلبك غاضبا عليه من أجلهما • أفأستطيع أن أبلغه ذلك ؟ • فلو أننى فعلت لسهل ذلك على التماس العذر عن عدم ذهابك اليه • ولا أحسبك تأبين على ما أطلب من ذلك وأنت تعلمين أنه لم يبعثر ماله فى ترف لنفسه أو فى عبث مما يتلهى المسرفون به ، كما أنك تعلمين أنه لو استطاع أن يضاعف ثروته لما أقعده دون مضاعفتها من طريق شريف أى اعتبار • »

قلت : « عزيز على ياسيدى أن أرفض لك مطلبا فى مقدورى اجابته . ولو أننى كنت امرأة واسعة الثراء لأجبتك الى ماتريد ، ولجعلت لولدى من مالى مايغنيهما عن ميراث أبيهما . أما وليس لى هذا الثراء فلا بد أن يكفلهما غيرى . فكيف يرضى قلبى عن بقائهما عالة على الغير وقد ألفا منذ مولدهما حياة النعيم ! فان يكن أبوهما قد أضاع ماله مضطرا فان الله وحده هو الذى يغفر له . فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه . أما ان كان قد أضاع مايملك فى غير ضرورة فالله يتولى جزاءه ، ان شاء غفر له ، وان شاء لم يغفر . ذلك غاية ماأستطيع قوله ، ولعلك ترانى منصفة فيه كل الانصاف . »

لم يجد الرجل مايجيبنى به ، ولم يطمع فى اقناعى بتعديل قرارى فاستأذن وانصرف مشكورا .

ولست أدرى على أى وجه أبلغ حديثنا لمطلقى . ولكنى علمت من بعد أن هذا المريض المسكين حز فى نفسه أن أبيت زيارته ، وأن تراخت زيارة ولديه له ، وأن كان لايراهما حين يذهبان اليه الا لحظات لاتغنى ولا تروى ظمأ ظامىء .

مع ذلك استطال من بعد مرضه حتى رحمه شانئوه ، وحتى كان أحباؤه يتوجهون بالدعاء الى الله أن يريحه بالموت من عنائه . وفى الأيام الأخيرة من شهر نوفمبر من تلك السنة أبلغت أنه مات ، فترحمت عليه ، وقلت انا لله وانا اليه راجعون .

***

هدأت نفسى حينا بعد وفاة مطلقى ، وخيل الى أن الموت حسم مابينى وبينه الى الابد ، وأقام ستارا كثيفا حجب عنى ماضيا ذقت فيه غصصا وآلاما ، وتوهمت أن فى مقدورى أن أنسى هذا الماضى فلا يبقى له فى ذاكرتى ولا فى أى مظهر من مظاهر وجودى أثر .

وهل شيء كالنسيان ينقذنا مما نود أن نتخلص منه ، ويتيح لنا أن نكيف ماضينا على مانريد ، لننعم بما يحويه من خير وان قل ، ونجسم هذا الخير ونمجده ، ونمحو ما أصابنا فيه من بأساء وكأنها لم تكن،ونزيف بذلك لأنفسنا تاريخها كما تزيف الامم تاريخها؟!

وأول مادار بخاطرى ، لأجعل هذا الذى توهمت حقيقة واقعة ، ولأمحو من ذاكرة الوجود أننى كان لى زوج قبل زوجى الذى يحبنى اليوم من كل قلبه ، أن أنسب ولدى الى هذا الزوج الثانى وأمحو نسبتهما الى أبيهما الذى أنجبتهما منه . ولم يكن ذلك عسيرا والقانون يبيح تغيير الأسماء اذا اتخذت لهذا التغيير اجراءاته . ولكننى لم أكن لأقوم بتنفيذ ما أردت الا أن يوافق زوجى عليه وأن يعاوننى فى الاجراءات التى تحققه .

ولم يكن عسيرا على أن أقنعه وأن أزيل من نفسه شبهات أبدأها حين بدأت حديثى معه فى هذا الامر . فقد ذكرته بأنه قبل شرطى يوم خطبنى الى نفسه أن يتبنى الولدين حتى لاتبقى بينى وبين مطلقى أية صلة ، واننى كنت معتزمة يومئذ أن أنسبهما اليه لولا أن رفع مطلقى الدعوى يطلب فيها ضم الولدين اليه ، ولولا أن حكمت المحكمة له بما طلب ، فاضطرنى حكمها الى مصالحته على بقائهما فى رعايتى . لولا ذلك لما تردد زوجى فى تنفيذ شرط قبله. ولم يبد الرجل اعتراضا الا خشيته من قالة الناس فى وفساد ظنهم بى وسوء حديثهم عنى .

واتخذ المحامى الاجراءات وحكمت المحكمة بتبديل اسم الولدين وجعل نسبتهما الى زوجى ومحو اسم أبيهما وازالته عنهما. وقد اغتبطت يوم صدر هذا الحكم بقدر ما اغتبطت يوم قبل مطلقى أن يتنازل عن ضم الولدين اليه ليبقيا فى كنفى . فقد أيقنت أنى لن أسمع من بعد اسم هذا الرجل ولن أقرأه فى الشهادات التى

تبعث المدرسة بها الى عن امتحان الولدين ، ولن يبقى له فيما يتصل بى أى ذكر أو أثر .

وذكر لى زوجى بعد صدور الحكم بتسمية الولدين باسمه أنه يريد أن يوصى لهمـا بثلث ماله ، وأنه لو وجد فى القـانون حيلة لأوصى لهما بكل ماله . قلت له : « لاتعجل فهما ولداك ، والاب لايوصى لابنائه ، أطال الله بقاءك وبقائى حتى نراهما شابا وفتاة ملء العين ، وحتى تكفل لهما عنـايتك ورعايتك مسـتقبلا يرضيك » . ولقد كنت أعبر صادقة عما يدور بقلبى . فقد أكرم زوجى ولدى منذ تزوجنا اكرام الاب لبنيه ورعاهما رعايته فملك بحنانه عليهما كل قلبى وجعلنى أشعر بأن المثل القائل : رب أخ لك لم تلده أمك كان يجب أن يضاف اليه .. ورب أب لك لم تخالطه أمك .

وهل الأبوة والأمومة الا الحنان والعطف ! أذكر وأنا أكتب هذه العبارة تمثيلية شهدتها فى باريس تصور زوجة سامحها زوجها بعد أن أنجبت ولدا من خليلها . ونسب الولد بحكم القانون الى الزوج الذى أغدق عليه من يوم مولده كل عطفه وحنانه . وشب الولد وكبر وهو يؤمن بأن هذا الزوج أبوه . ثم أنه عثر يوما فى أوراق أمه بخطاب عرف منه سر مولده ، فثار فى عروقه دمه أن حمل هـذا الرجل الذى لم يكن أباه كل ما يحمل الأب من عبء لتنشئة أولاده ، وتطوع للجندية وندب كطلبه للسفر الى الهنـد الصينية فرارا من بيت ليس بيته . وعبثا حاول الرجل أن يقنعه بحماقة مايصنع ، وأن طيش لحظة طاف بأمه لايمحوعطفههوعشرين سنة أو تزيد . وسافر الرجل يودع الشاب على الباخرة التى تبحر به الى منفاه ويرجوه أن يعدل عن عزمه . وأبى الشـاب . فلما بدأت الباخرة تتحرك ووقف الرجل على رصـيف الثغر يودعه ويشير اليه بمنـديله الابيض صـاح الفتى : الى الملتقى ياوالدى .

وطفح قلب الرجل سرورا بكلمة والدى هذه مقتنعا بأن الشاب آمن برأيه فى اللحظة الأخيرة وأنه لم يقل هـذه الكلمـة بحكم العادة ولا بدافع المجاملة •

وهذا الرجل فى رأيى على حق • فما قيمة الابوة أو الأمومة العاقة الا أن يفرض القانون على هذا الاب أو على هـذه الام أداء الواجب للجيل الناشىء • فان لم يفعلا لم يكن أيهمـا حقيقـا باسم الاب أو الأم ، هـذا الاسم الكريم الذى يحمل فى طيـاته أكرم المعـانى وأنبلهـا • وقد حمل زوجى عبء الأبوة لولدى من يوم تزوجنا ، فلم أكن مبالغة ولا مغالية فى قولى له أنهما ولداه ، ولا فيما فعلت من نسبة اسميهما اليـه ، وان كان من الحق على اليوم ، وقد مرت السـنون على وفاة زوجى الاول ، أبيهمـا ، ألا أجحـد أنه الى أن وافته المنيـة لم يقصر فى واجبه ازاءهمـا ، وكان كله الحنان والعطف عليهما •

وتعاقبت السنون وقد وضـعت زوجى الاول من ذاكرتى ومن قلبى فى قبر سحيق أشد صمتا من القبر الذى يحوى رفاته ، فلم يكن اسـمه يجرى على لسـانى ، بل لم يكن يمر بخيالى • وتعود الولدان أن يخاطبـا زوجى مخـاطبة الولد لوالده ، وألا يذكرا أنهما كان لهما أب سواه ، وأن يقـدرا ما يحبوهما به من عطف وما يسبغه عليهما من حنان • ولقد أدهشنى منه وأثار اعجابى به انه لبس ثوب الأب فى سلطانه وفى حنانه ،وكأن محبته لى أدخلت الى قلبه من عواطف الأبوة ما احتواه قلبى من عواطف الأمومة، فكان ذلك مدعاة لانسـجام الحياة بيننا جميعا كما تنسـجم الحياة فى الأسرة الواحدة بين الوالدين والبنين •

وظل ذلك شأننا ، وظل الولدان يكبران بأعيننا وعنايتنا ، لاشىء يكدر صفونا ، أو يشوب سعادتنا ، ولا نطمع من الحياة فى خير مما

أعطتنا • لم أعد أفكر فى السـفر الى أوروبا أو الى الاقصر ولم تعد مغريات المجتمـع تجذبنى اليهـا ، بل أصبحت مملـكة البيت مملكتى ، والعناية بالبيت ومن فيه مصدر سرورى وسعادتى • وقد بلغنى أثناء هذه السنوات الهنيئة أن صـديقتى تزوجت فدعوت لها بالتوفيق ، ولم يتعرض طيفها لى ولم يثر جمالها ثائرتى • ومالى أنا ولها ، بل مالى أنا ولغيرى من الناس وقد ظفرت بما كنت أرجو من طمأنينة وسعادة ، وقد أنست الى زوجى وولدى وأنسوا الى، وقد أصبحت أدعو للناس جميعا بما حبانى الله به من فضله •

يقولون ان الامم السـعيدة لاتاريخ لها • ويبـدو لى أن الاسرة السعيدة لاتاريخ كذلك لها • انها تتخطى فى هون على متن السنين مألوف حياتها ، فلا تثير طلعة أحد ولا تدعو أحدا للكلام عنها أو للتندر بها ، وان غبطها الناس لما أفاء الله عليها من ستره ورعايته •

وتخطى ولدى الثانية والعشرين من سنى حياته • وانتى لجالسة يوما فى غرفة نومى اذ دخل على يبدو على سيماه اشـتغال البال • ولم أرد أن أسأله عما يشغله ، واثقة أنه لم يحضر هـذه السـاعة اعتبـاطا ، وانما جاء يحدثنى فى أمر يراه جليل الخطر • وللشباب عذرهم اذا اضـطربوا لما لا يوجب الاضـطراب ، فليست لهم من تجارب الحياة مناعة ترد عنهم شتات البال وتبلبل الفكر فى كل شأن جل أو صغر • وأمسك الشاب عن الكلام هنيهة بعد أن جلس الى جانبى وكأنه يدير الأمر فى رأسـه ليصـوره لى • على أنه ناء بالصمت بعد قليل فاندفع يقول :

ـ جئت أحدثك يا أماه فى أمر أجل من كل ماتتصورين خطرا • لقد أعجبتنى فتاة تعرفينها وتعرفين أهلها وأردت أن أخطبها الى نفسى • ورأيت أن أسألها أتوافقنى على أن نتزوج ، فقالت فى حياء وخفر ان الامر فى ذلك لوالديها • ولم أرد أن أفاتحك فى الأمر

قبل أن أطمئن الى رأى أمها • فأنا أعلم أن الأم اذا رضيت بعد أن رضيت ابنتها فقلما يرفض الأب ما رضيتاه • فلما ذهبت الى تلك الام الطيبة القلب وعرضت عليها الامر وقلت لها ان ابنتها تركت الحكم فى ذلك لأبويها قالت : اننى يابنى لا أعز عليك شيئا ، ولا أعز عليك ابنتى • لقد كان والدك عليه رحمة الله صديقنا وكان من خير الناس وأطيبهم قلبا وأكثرهم مروءة • لكنك يابنى محوت اسمه من اسمك ، وأبدلته باسم زوج أمك • ولم أكن أنا ولم يكن زوجى راضيين عن ذلك من يوم حدث • فذكرى أبيك أعز علينا من أن تمحى • وأسألك يابنى : اذا تزوجت ابنتى وأنجبت منها وسأل الناس ولدكما عن جده لأبيه فماذا يقول ؟ أيذكر أباك الحق أم يذكر زوج أمك • فان شئت يابنى أن أخاطب زوجى فيما تطلب فأعد قبل كل شىء اسمك كما كان • انتسب لأبيك لا لزوج أمك • فان فعلت فحبا وكرامة ، ولك على أن أحاول اقناع زوجى لتكون زوج ابنته • أما ان أبيت فعزيز على أن أبلغك اننا آسفون اذا لم نستطع أن نجيبك الى ماتطلب • ولا أريد منك الساعة جوابا بل ترو فى الامر واستشر فيه •

« كذلك قالت لى يا أماه ، وقد رأيتها على حق فجئت أعرض الأمر عليك قبل أن أتخذ فيه اجراء أو أخطو فيه خطوة • فأشيرى على • • »

بم أجيب ؟ ليس الامر الذى يعرضه على ولدى نزوة شباب ولا هو من ضآلة الشأن بما يثير ابتسامتى ، بل هو أجل خطرا بالفعل من كل ماتوقعت ، فلا بد لى من مواجهته بشىء من الحزم يرد عنى وعن أسرتنا كلها مايهددها فى صميم كيانها • لذلك لم أتردد فى أن قلت :

ـ وما لأم هذه الفتاة أن تتدخل فى أخص شئوننا وشئونك •

وهلا ترى من تدخلها اليوم أنك ان صاهرتها غدا فستظل مستبدة بك تحاول توجيهك فى الجليل والحقير من أمورك • لذلك أنصحك أن تعدل عن التفكير فى هذه الفتاة ، وأنا كفيلة بأن أجد لك خيرا منها يفرح بهـا قلبك ويفرح بها قلبى • هـذا ان كنت مصرا على الزواج وأنت لاتزال فى هـذه السن المبكرة • أما ان أردت الخير لنفسك فأجل تفكيرك فى اقامة أسرة قد تنوء اليوم بأعبائها ، حتى يعاونك عمل تنهض به ويدر عليك أخـلاف الرزق لتسـعد أنت بأسرتك وتسعد هذه الأسرة بك •

وأجابنى الفتى : ليس الامر الساعة أن أؤجل التفكير فى الزواج أو أعجل به ، وانما الامر فى هذا الاسم الذى أحمله بغيا بغير حق • ولقد خاطبت أختى فى أن نعود باسـمينا الى اسم أبينا الذى أنجبنا فوافقتنى على ذلك ولم يبد زوجها اعتراضا • هذا لب الموضوع فى حديثى لك اليوم • فان أنت وافقتنى ثم اعترضت على زواجى من هذه الفتاة لاسـباب تعرفينها فانى عنـد رأيك ، ولا أعصى أمرك • فهل ترين مايمنع عودتنا الى التسمى باسم أبينا ؟ اننا الآن راشدان أنا وأختى ونستطيع هذا الامر من تلقاء أنفسنا • لكنا لانقدم عليه حتى تكونى راضية عنه مطمئنة اليه •

قلت وأعصابى تضطرب وأكاد أرى أسرتنا تنهـار أمام عينى : أنظرنى الى غد أروى فى الأمر وأشير بالرأى فيه فاننى السـاعة متعبة وأشعر بالحاجة الى الراحة •

وقام الشـباب وفى نظراته معنى الدهشـة وقال : الى غد اذن يا أماه • وأرجو لك راحة الجسم وطمأنينة النفس •

ولم ألبث حين خرج أن رأيت الدنيا تدور من حولى ، وكأننى على زورق فى بحر لجى لا شاطىء له • أفأستطيع أن أفاتح زوجى فى شىء مما قاله ولدى ليرى كل ماأسداه لأخته وله ينقلب جحودا

وعقوقا ؟ وهل أستطيع أن أنكر على ولدى حقه فى التسمى ، ان شاء ، باسم أبيه ؟ وأى داع دعا هـــذه السيدة ، وهى من أكثر أصدقائنا اخلاصا لنا ، أن تثير هذا الامر وأن تقفنى هذا الموقف ؟ لست أعرف بينى وبينها حقـدا ولا غيرة ، فما كان أجـدرها أن تخاطبنى فى الامر قبل أن تفضى بما قالت الى ولدى ! وكيف ترانى أنقض اليوم ماأبرمته أمس فيظن زوجى أننى خدعته لغاية فى نفسى .

وتوارد طوفان من هذه الخواطر على ذهنى فشعرت بقلبى يخفق وأعصابى تزداد اضطرابا ، ثم أحسست برعشة كأنها الحمى . ولقد حمدت الله أن كان زوجى مدعوا للغداء ذلك اليوم ، ثم كانت عنده مشاغل تمسكه عن الحضور الى البيت حتى المساء . وقلت فى نفسى: لعلى أكون قد تدبرت الامر ووجدت حلا قبل موعد حضوره .

وأقبل المساء فاذا الحمى تلازمنى وتمسكنى فى سرير نومى . فلما جاء زوجى ورأى حالى أراد أن يدعو الطبيب فقلت له :دعنى الليلة فأنى أحسبها رعشة طارئة . فاذا أصبحنا ولم تنصرف عنى كان لدعوة الطبيب موضع ، ورجوته أن يقضى ليله فى غرفة أخرى . ولست أدرى بعد أن بقيت وحدى ماالذى أصابنى . أفنمت فعبث بى كابوس أزعجنى ، أم أنه هذيان الحمى الذى استبد بى ؟ فقد تبدى أمامى طيف مطلقى وهو ملتف فى أكفانه وأخذ يحملق فى وسمعته وكأنه يهتف بى : هأنذا ، سترينى الليلة وسترينى من بعد ، سترينى بينك وبين زوجك فى يقظتك وفى نومك . سترينى بينك وبينه فى ثيابى وعاريا كيوم ولدتنى أمى . سترينى بينك وبينه حتى فى سرير نومك . وسترينى حتى يعود ولداى الى التسمى باســمى . فان عادا تواريت لا عن رضى ، ولكن لأدع زوجك يتم قضاء الله فيكما والله أعدل الحاكمين .

واستيقظت جوف الليل مذعورة أصيح من هول مارأيت .

وأسرع الى زوجى من المخدع الذى كان فيه يسألنى مابى ، قلت والحمى تهزنى : « انه كابوس أزعجنى فلا تتركنى • وقضى الرجل بقية ليله على كنبة فى الغرفة • وبقيت مؤرقة حتى اذا نادى مؤذن الفجر ، غفوت فرأيت فى غفوتى كأن والدى يقول لى : « فيم تنزعجين ياابنتى • دعى الامر لولديك يقضيان فيه برأيهما ولا تحملى أنت تبعته • قولى ذلك لولدك اذا جاء اليوم اليك يريد مشورتك • ونبهيه الى أن الأمر أخطر بالنسبة له ولك من أن يقضى فيه بخفة ومن غير روية »

نمت بعد ذلك وطاب نومى ولم أستيقظ الا قرابة الظهيرة • واستيقظت وقد نزلت عنى الحمى وان بقيت منهوكة الجسم محطمة الأعصاب • وكان زوجى قد خرج لعمله فأتاح لى فرصة أتدبر فيها الأمر من جديد • ولم أجد خيرا من المشورة التى أسداها الى طيف أبى • لكنبي آثرت ألا أبت فى الامر قبل التحدث فيه مع زوجى • وجاء ولدى ورآنى ملازمة فراشى فأبت عليه بنوته أن يعيد الكلام على ويسألنى رأيى حتى أستعيد نشاطى • فلما جاء زوجى ودخل الى يسأل عن صحتى استبقيته عندى وذكرت له حديث ولدى ، وأن هذا الحديث هو الذى أركبنى الحمى وأزعجنى • فسكت طويلا ثم قال :

ـ هل نستطيع أن نمنعه أو نمنع أخته وقد بلغا رشدهما ولم يبق لى ولا لك عليهما سلطان ؟ فليفعلا مايشاءان فذلك حقهما ، ثم يكون لنا بعد ذلك فى الأمر رأى •

وجاء ولدى الغداة فألفانى على مقعدى الطويل فجلس عند قدمى وسألنى عن صحتى • وحمدت له الله على أن أعادالى العافية ثم قلت له : انك شاب عاقل تحسن وزن الأمور ، فلك أن تتصرف كما تشاء فيما حدثتنى عنه أول من أمس • ولا اعتراض لى على

ماتفعل . وكل الذى أريد أن تعلمه أننى يوم بدلت اسميكما انما أردت خيركما ومصلحتكما . عز على أن تشعرا كلما دخلتما هذا البيت أو خرجتما منه أنكما غريبان عنه ، وان يشعر زوجى كذلك مثل هذا الشعور ، فأردت أن أخلق فيه جو الأسرة بمعناه الكامل . وقد أقرنى زوجى على ما أردت وأعاننى فيه ، ثم ذهب الى أبعد من المعونة فأراد أن يوصى لكما بثلث ماله ، بل بكل ماله . وعارضت يومئذ ارادته حتى لايظن أبى قصدت الى منفعة مادية مما صنعت . ولا أراه اذا نفذت أنت عزمك وبدلت اسمك واسم أختك ألا يصر على تحرير وصيته تلك ، فهو رجل طيب القلب ، عاملكما منذ دخلتما بيته معاملة الأب لأبنائه ، بل اعتبركما ابنيه بالفعل وبذل لكما كل عطفه وحنانه . أما وقد بلغتما رشدكما وأصبح من حقكما أن تختارا البقاء على ما اخترت لكما أو تعدلا عنه لما كنتما عليه فلكما من ذلك ماتشاءان ، وأنت قبل أختك خير من يقدر مايترتب على تصرفه من آثار ونتائج . »

قال ولدى فى غير تردد : « أشكرك يا أماه من كل قلبى ، ولا تثريب لى عليك فيما فعلته ابان صغرى ، سواء فعلته غضبا من أبى أو التماسا لخيرى ومصلحتى . فان كانت الأولى فلاأحسب الموجدة باقية فى قلبك بعد كل هذه السنين على رجل يذكر عارفوه جميعا مروءته ويذكرون أنه أكرمك طول حياته بعد غضبك منه وانفصالك عنه . وان كانت الثانية فما كنت لأبيع اسم أبى بثمن وان عظم . فاسمه هو الدم الذى يجرى فى عروقى والحياة التى ينبض بها قلبى والنعمة التى يشع بها نور عينى . ولن ينسينى هذا الدم وهذه الحياة وهذه النعمة ما لزوجك الذى ندعوه اليوم أبانا من فضل علينا وبرنا وحنان ذقنا كل هذه السنين حلاوته . فلسنا يا أماه عاقين ونحن ابناك وابنا أبينا . واذا كنتما قد انفصلتما فى الحياة لأمر فذلك طارىء يحدث ثم ينسى . أما الاسم الذى حملناه يوم مولدنا فهو الذى يجب أن

يبقى علما على محبتكما وبركما • فالحياة محبة ، وماسوى المحبة هباء يذهب مع الريح ولا تبقى منه باقية •

تأثرت بهذا الذى سمعت من ولدى أبلغ التأثر فقبلته من أعماق قلبى وقلت له : « رعاك الله يابنى وهداك السداد والحكمة • ألا ترى أن تفضى لأبيك زوجى بهذا الذى ذكرت الساعة عنه • • » وأجاب : « بكل سرور ياأماه لولا أن أخشى تأويل ذلك بأننى أطمع فى وصيته • فاستأذنك فى اتخاذ الاجراءات لأستعيد اسم أبى لى ولاختى ، فاذا تم ذلك واستقر أمره جئت معها فأدينا لابينا واجب الشكر وعرفان الجميل • • »

وانصرف ولدى مستأذنا فى أن يدعنى أستريح • وأخذت أفكر فى هذا الحدث الجديد ومقدماته ونتائجه ، ولعنت الساعة التى علق فيها ولدى هذه الفتاة حتى ليريد أن يخطبها الى أهلها ، والساعة التى استشار فيها أمها وقد أدت مشورتها الى هذا الاضطراب الذى أعانيه اليوم ، وقد تؤدى الى اضطراب أوسع نطاقا تتأثر به صلتى بزوجى ، وينتهى الى تشتيت شملنا بعد اذ كان مجتمعا فى انسجام واتساق • ودخل على زوجى وهذه الافكار تتناوبنى وترتسم صورتها على محياى •• فلما رأى مايبدو من ذلك على قال : « لاتجسمى الأمر ياعزيزتى ولا تنزعجى له ، فهو واقع غدا ان لم يقع اليوم لأنه نزول على حكم الطبيعة •• فما كان الدم لينقلب ماء فى يوم من الأيام • وللوراثة حكم لاسبيل الى مغالبته • وقد أصبحت ابنتك فى عصمة رجل وأصبح ابنك قديرا على الكفاح فى الحياة فأغناهما ذلك عنا ، وأتاح لهما من الاستقلال فى التفكير مانزع عنهما سلطاننا ، وان استبقى لهما حبنا وعطفنا • » فشكرت له سمو عواطفه وقلت له : « لو أنك سمعت ماقاله ولدى عما يضمره لك من اكرام ومن اعتراف بفضلك وجميلك وتقدير لحنانك وبرك كل هذه السنين لسرك أن أثمرت

تربيتنا هذه الثمرة الصالحة . وقد ذكر لى أنه سيؤدى ماعليه لك من واجب الشكر بعد أن يعيد الى اسـمه واسم أخته اسم أبيهما ليكون الشكر خالصا بريئا من كل شائبة » .

وجم زوجى لسماع هذه الكلمات الأخيرة ثم قال : « فليلهمه الله السداد والحكمة » .

وعاد الرجل الى وجومه ، ثم انصرف عنى الى مكتبـه . فلما آذنت الشمس بالمغيب جاء الى يخبرنى أن أصدقاءه دعوه الى طعام العشـاء والى سـهرة قصـيرة بعده . وأيقنت حين غادر البيت أن حديث ولدى فعل فعله فى نفسه ، وأنه مضـطرب له اضـطرابى ، حائر فى أمره حيرتى ، مقدر أنه لايملك رده ، متألم من أجل ذلك له ، وأنه ابتكر هـذا العشاء وهـذه السـهرة حتى لاينكشف لى اضطرابه وألمه . وقد زاد هذا اليقين فى حيرتى واضطرابى ، وفى خشيتى من المستقبل القريب وما ينطوى عليه من نذر .

واذ جن الليـل وآن لى أن أسـكن الى مضجعى وأن أطفىء أنوار غرفتى ، شعرت بالرعشة من جـديد تهزنى وتراجعت عن سريرى فزعة مخافة أن أرى الطيف الملتف فى أكفانه ينـدس الى جانبى ليكون بينى وبين زوجى . عند ذلك همل الدمع من عينى وعدت حيث كنت على مقعـدى ورفعت أكف الضراعة الى الله أن يعفو عنى وأن يريح بالى . وأقمت على ذلك زمنا ذهبت بعده الى مرقدى أحاول النوم فلا يطاوعنى . وبعد منتصف الليل أحسست بزوجى يدخل الغرفة ولا يضىء نورها ويتمطى فى مكانه من السرير وأنا متناومة لا أبدى حراكا . فلما تبينت من صوت أنفاسه أنه نام أخذتنى الشفقة عليه لاضـطرابه وحيرته . فهو قد حاول أن يقيم أسرة تسـعد بها كهولته وشيخوخته ، وبذل فى سـبيل ذلك حر عواطفـه وماله ، وهاهو ذا يرى محاولته تنهـار من أسـاسها ولا

يستطيع شيئا لدعمها واستبقاء كيانها • وهأنذا شريكته فى محاولته أشاركه الحسرة لانهيارها ثم أنا بعد ذلك أشد منه حيرة ، أضطرب بينه وبين ولدى أحشائى ولا أقدر على منع كارثة تهددنى !

وبعد أسابيع جاءنى ولدى متهللا يذكر أن المحكمة حكمت باعادة اسم أبيه الى اسمه واسم أخته ، وأنه قد آن له أن يجىء معها الى زوجى يعترفان له بسابغ فضله ، وعظيم حنانه وبره •

قلت : « لقد كنت تخشى أن تفعل ذلك قبل حكم القضاء مخافة تأويله بأنكما تطمعان فى وصيته ، فهلا تخشى مثل هذا التأويل اليوم؟» وأجابنى : « كلا ! فالرجل لم يحرز وصيته بعد • فاذا هو حررها رغم مافعلنا كان ذلك اقرارا منه لعملنا واعلانا لابقائه على محبتنا والعطف علينا • وان لم يحرزها فذلك شأنه ، ولن ينقص احجامه عن تحريرها من اعترافنا بجميله وفضله • »

واستأذن الشاب فى الانصراف لبعض شأنه • فلما كان موعد الغداء حضر زوجى ثم رأيت ابنى وشقيقته يدخلان علينا وتقول ابنتى : « لقد جئنا نتناول الطعام معك يا أماه ومع عمنا » •ولاحظت لون زوجى يتغير لسماعه كلمة العم ممن تعودت شفتاه أن يدعوه أبى • وكأنما لاحظ ولدى مالاحظت فأسرع يقول : « نحن ياعماه ابناك • وقد جئنا اليك نعتذر عن العود باسمينا الى اسم أبينا • لم يكن ذلك منا انكارا لفضلك ولا تنكرا لجميلك • لكنى أعلم أنك كنت أوفى الاصدقاء لأبى ، فلما اختاره الله اليه تخذتنا وديعة عندك فأسبغت علينا مثل بره وحنانه ، وسميتنا باسمك حتى نشعر بأبوتك لنا وبنوتنا لك • فلما بلغنا أشدنا وآن أن ترد الوديعة أحسست بما فى ذلك من مشقة عليك لرقة عواطفك وفرط حنانك ، ولان مر السنين ربط بيننا وبينك بأوثق رابطة ، فاحتملت أنا العبء عنك ، مطمئنا الى أنك سترضى عن صنيعى لانك رجل أمين لا ترضى أن

تحتفظ بما استودعت ، وتحرص على رد الامانات الى أهلها . أما وقد ردت فقد جئت وشقيقتي الآن نضاعف لك الثناء والحمد على عنايتك بنا ، وجميل عطفك علينا ، وسمو أبوتك لنا ، طامعين كلانا في أن تقبل شكرنا لك وثناءنا عليك . والله يتولى جزاءك » .

انفرجت أسارير زوجي لهذا الكلام ، فانتقلنا بالحديث الى جو أكثر طمأنينة . بذلك استأنفنا حياتنا وأنا أرجو أن تعود سابق سيرتها . لكنني شعرت بأن حجابا قام بيني وبين زوجي ، وكأن هذا الاسم الذي استعاده ولداي ، اسم صاحب الطيف الملتف في أكفانه ، قد حال بيني وبينه حتى كاد يجعلني غريبة عنه ويجعله غريبا عني .

وجاءني ولدي بعد أيام يسألني رأيي في أمر الفتاة التي يريد أن يخطبها لنفسه . واستمهلته حتى أروى في الأمر كما قلت له ، وحتى أسأل زوجي لكيلا يزداد الحجاب كثافة بيني وبينه . فلما سألته قال انه لا اعتراض له على مصاهرة هذه الاسرة ، فهم أصدقاؤنا ومن طبقتنا ، لكنه أضاف : « لكنك توافقينني على أن هذا المسكن الذي نقيم به لا يتسع لأسرتين . وأنا أقترح أن يسكن ابنك وعروسه العمارة التي تقيم بها أخته حتى تسهل عليك زيارتهما كلما هفا لذلك قلبك » .

أحسست من هذه الكلمات الاخيرة أن الرجل لم يعد يطيق حياة ولدي معنا ، رغم مايبديه لي من مجاملة ولطف . فلما حدثني ولدي الغداة قلت له اني أوافق على الزواج ، وأقترح عليه أن يسكن العمارة التي تقيم بها أخته . وكذلك فعل . وجهزت العروس مسكنها جهازا حسنا وأخذت أتردد مع أمها عليه نعنى بنظامه وحسن تنسيقه .

وانتقل الشاب الى مسكنه الجديد . وكنت أزوره هو وأخته الحين

بعد الحين ، وكان زوجي يرافقني في هذه الزيارات أحيانا ، فيرى في كل مرة جديدا في أثاث ولدي يسره ويعجبه ، وان شعرت دائما بأنه يقوم بهذه الزيارات مبغي مجاملة لي ، لا بدافع من قلبه ووجدانه .

فلما اطمأن ولدي الى أنه أفاء على مسكنه آخر سمة له ، دعانا يوما لتناول الشاي عنده . وذهبنا عنده فاستقبلتنا أخته لان عروسه شعرت بوعكة لعلها من أثر الحمل ، فلما دخل زوجي الى غرفة الاستقبال رأى فيها صورة مكبرة لزوجي الاول أب الولدين ، فوقف يتأملها ووقفنا من حوله ، أناوولدي ، فنظر الينا والى الصورة وقال : « هذه هي الاسرة الاولى اجتمعت من جديد » .

وشعرت في نبرة صوته بأسى المنهزم الذي حاول أن يقاوم الطبيعة فلم تنجح محاولته ، وحاول أن يرث ماليس له بحق فلم ينل ما أراد . هنالك أيقنت أنني أصبحت فريسة بينه وبين الولدين يجذبني كل الى ناحيته ، واني لن يهدأ لذلك بالي ولن يطيب لي عيش بعد اليوم .

رباه !. ماذا أصنع لأنجو من موقف أنوء باحتماله ؟! انني لا قدرة لي على مغاضبة ولدي ، ولا قدرة لي على مغاضبة زوجي . فولداي هما ولداي وزوجي هو الذي افتداني من موقف لم يكن أحد لينقذني منه لو لم يمد هو الي يده . انني أضرع اليك ، أنا المرأة الضعيفة المؤمنة بقضائك وعدلك ، فهبني من لدنك رشدا وهيىء لي من رحمتك سندا أحتمي به من هول هذا الموقف .

ولم تكذب مخاوفي . فقد بدأ هذا الصراع الصامت بين زوجي وولدي يتجاذبني يمنة ويسرة ، وبدأت أشعر كأنني الكرة يتجاذبها المتنافسان وكل منهما في موقفه لايريم عنه . فكان ولداي يذكران أن اشتغالي براحة زوجي يشغلني عنهما ، وكان زوجي يتهكم بي

قائلا : ان لى العـذر أن طغت على أمومتى فشغلت عنـه • وزوجى وولداى لايبدى أى منهم للآخـر الا المودة والحسنى ، والقـلوب مطوية على التنازع على هذه المرأة المسكينة المغلوبةعلى أمرها ، لانها زوج تقر لزوجها بفضله ومروءته ونبله ، وأم تحب ولديهـا حب العبادة •

رباه •• ماذا أصنع ! عاودنى اذ ذاك رجع من تقوى صباى يوم كنت رضوان الجنة ، فأعددت فى بيتنا مصلى عنيت به كما كنت أعنى بمصلى المدرسة ، وأكببت على فروضى أصليها لأوقاتها • أستيقظ مع الفجر أصليه حاضرا قانتة الى ربى داعية اياه ، أستغفره وأتوب اليه ، وألبى داعى المؤذن كلما نادى « حى على الصلاة » فأهرع الى مصـلاى فأجد فى الصـلاة سـكينة نفسى وطمأنينة قلبى بانقطاعى الى ربى •

وذكرت يومئذ عمتى الحاجة وطرحتها البيضاء ، وكانت قد انتقلت منذ سنوات الى جوار الله ، فتخذت للصلاة طرحةبيضاءكطرحتها• واننى لأصلى الفجر يوما وأقرأ القنوت اذ هتف بى هاتف : «مالك لاتحجين بيت الله أداء لفرضه • انك ان تفعلى يغفر الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر ، وتبعدين بذلك عن صراع أنت وحدك فريسته وضحيته • »

ماأرحمك يارب وما أعظم فضلك •! لقد اطمأن قلبى لهذاالهاتف واعتزمت لساعتى أداء هذه الفريضة الخامسة من فرائض دينى • فلمـا جاء زوجى أفضيت له بعزمى فقـال : أنت وما تريدين • وأخبرت ولدى كذلك بأنى خارجة الى الحج ، وما كان لهما أن يصدانى عنه •

وبدأت أتجهز للحج وأعد له عدتى • ومن يوم بدأت هـذا التجهز شـعرت بالايمـان يطرد الهم من قلبى ويحل محله النـور

والطمأنينة ، وشعرت بزوجي وولدى يحوطونني بعناية سعدت بها من قبل ثم نسيتها من يوم حملق فى هـذا الطيف الملتف فى أكفانه وصاح بى مهددا ونذيرا •

ما ألذ حلاوة الايمان وما أعظم سعادة المؤمنين ! فمنذ نذرت الحج وشغلت بالتجهز له تقشعت من حولى كل سحابة داكنة • وأقبل على أهلى وأصحابى يهنئوننى بما اختار الله لى ويطلبون الى أن أدعو لهم بالخير وأنا عنـــد بيت الله المحرم • وجاءنى زوجي يوما يقـــول : « ناشدتك الله الا ما استغفرت لى ربى وأنت تلبين على عرفات للصفح عنى ان كنت قد أخطأت فى حق صديقى زوجك الأول » • وأخذ ولداى يسألاننى عما يكمـلان به جهـاز سفرى ، ويطلبان الى أن أباركهما وأن أدعو الله لهما • وسمت بى صـلواتى فى هذه الفترة فوق نوازع النفس كلها ، فهانت على الدنيا وما فيها ، وأيقنت حقـا أنها متاع الغرور •

واقترب موعد السفر وتلاحقت زيارات المهنئين والمودعين • فلما كانت ليلة البرزة وهفا بى النوم الى مرقدى ، رأيت أبى وأمى وهما فى ثياب الآخرة وكأنهما ملكان يرفرفان بأجنحة من نور فوق رأسى ، ويحمدان الله أن رضى عنى بما وهبنى من تمام الايمان بتقواى وبحجى ، ثم رأيت الطيف الملتف فى أكفانه يبدو وعلى ثغره ابتسامة ومحياه كله الضياء وهو يقول : « غفر الله لك وغفر لى • وسعت رحمته كل شىء ، انه هو رب التقوى ورب المغفرة » •

واستيقظت الفجر وصليته ، ثم اذا زوجي وولدى وطائفـة من أهلى يحيطون بى يقبلوننى وليس فى قلوبهم جميعا الا المحبة الخالصة • وركبوا جميعا معى قطار السكة الحديد الى السويس ، وظلوا جميعا معى على ظهر الباخرة المسـافرة الى جدة • فلما آن لها أن تبحر ودعونى وكلهم يرجون الله لى حجا مبرورا ، وذنبا مغفورا ، وأنا أرجو لهم جميعا من الله الهدى والرحمة •

الفصل العاشر (١)

أبحرت الباخرة بمن عليها من الحجاج قاصدة بيت الله الحرام . فلما حاذت رابغ أحرمنا جميعا . وفى بكرة الصبح من غدنا وصلنا الى جدة فنزلنا من الباخرة اليها ثم تخطيناها الى مكة وهناك طفنا بالكعبة الشريفة طواف القدوم فى انتظار يوم التروية الذى يسبق وقفة عرفات .

وكانت حالتى النفسية تمور فى هذه الأثناء مورا جاوز كل ماتصورت . لقد كنت قبيل سفرى أشعر حين صلواتى بأننى قريبة من ربى ، وأنه يسمع دعائى أكفر به عن ذنبى ليغفر لى ويرحمنى . فلما لبست الاحرام شعرت بأننى تجردت لله جل ثناؤه ، ودخلت واسع رحمته ، ولم يبق عندى شك ، وقد جئت بيته خالصة القصد فى التوجه اليه ، فى أنه غفر لى قبل أن أؤدى شعائر الحج ، لانه رب القلوب ، ولان الاعمال عنده بالنيات ، ولانى قصدت بابه الكريم قانتة تائبة عابدة مسلمة اليه وجهى ، آسفة على ما أسلفت من ذنوبى وأوزارى ، فهو لايرد من قصده من عباده ماخلصت نيته فى قصده .

وبينا أنا فى هذه الحال من الطمأنينة والغبطة اذ فوجئت بما أخرجنى منها . فقد وقفت يوما عند مدرسة من مدارس الحرم فسمعت أستاذا يحاضر الناس فى الحج ويقول : « ليس الحج شعائر ومناسك وكفى ، بل هو قبل كل شيء حساب النفس أمام بارئها عما قدمت فى حياتها ، وهل أدت للحياة واجبها بما يرضى الله ويرضى الضمير ، فلم يحملها غرورها على اجتراح الآثام ارضاء

---

(١) كتب هذا الفصل وما يليه بعد زمن طويل من كتابة الفصول السابقة

لاهوائها ، ولم يوسوس لها الشيطان بأن الحياة حق للحى وليست واجبا عليه لله ، وللناس ، ولنفسه • »

زلزل هذا الكلام نفسى وأخرجنى من بلهنيـة الطمأنينـة التى كانت تشتملنى وعاد بى الى ماضى حياتى أنشره أمام بصيرتى ليكون صحيفتى عند ربى ، وليكون ما أذرف من دمع التوبة عما فرط منى شفيعى اليه تعالت أسماؤه • صـدق الاستاذ • ليس الحج شـعائر ومناسك وكفى ، ولكنه حساب النفس واعترافها بذنوبها ، قبل أن تحاسب حين يتوفاها ربها ، يوم لاينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم •

كانت هذه المرحلة من مراحل نفسى أشق المراحل على وجدانى• لكننى صمدت لها واجتزتها باذعانى واسلامى ، وباقرارى بعجزى وضعفى ، وباعترافى الكامل بذنوبى وضراعتى الى الله أن يغفر لى بعد الذى بلوت فى حياتى من محن كانت الجزاء العدل عما كسبت نفسى • ولقد شعرت بعد اجتيازى هذه المرحلة برضا ملأ جوانحى وانتشر فى كل وجودى ، كما أضـاء أمام بصـيرتى نور يهدينى السبيل الى بارئى ، فحمدته جل شـأنه وازددت تواضعا لله وثنـاء عليه وتسليما بقضائه واسلاما لامره •

وانني لسعيدة بما أنا فيه من حال الرضا ، أصلى بالحرم الشريف كل فروضى ، وأطوف بالكعبة كل يوم ، اذ رأيت مالم أكن أتوقع • فقد صليت العشاء الآخرة ذات مساء ثم ذهبت الى مضجعى فرأيت فيما يرى النائم أننى هممت بأن أسعى بعد طوافى ، فقصدت الى باب الصفا لاخرج منه الى المسعى ، فاذا سيدة تقبل على تقبلنى وتعانقنى ، فرفعت اليها عينى لاتبينها • فلما رأيتها لم أملك نفسى من الدهشة • فتلك صديقتى •• نعم صديقتى التى اشتهرت بالخفة الى حدالطيش • وقلت لها والدهشة لاتزال تملكنى : «أنت هنا » • قالت : «نعم ، مع

زوجي . وقد رأيتك مقبلة على فشعرت ، ونحن في بيت الله ، بأنا أختان ان فرقت بيننا أهواء الدنيا في بلادنا ، فلا شيء يفرق بيننا في هذا البيت العتيق» . وزادني كلامها هذا دهشة ، فما عهدتها تنطق بمثل هذه الحكمة من قبل . وقبلتها كما قبلتني ، وأردت أن أستأذنها لأخرج فأسعى ، فأمسكت بيدي وقالت : سأسعى معك . وسعينا وكلتانا تدعو وتستغفر ربها وتتلو ما ألقى علينا أن نتلوه في رواحنا وجيئتنا بين الصفا والمروة . فلما أتممنا سعينا سألتني عن موعد طوافي الغداة وقالت : « سأكون الى جانبك نطوف معا كما سعينا اليوم معا » .

ثم رأيتني عدت الى مسكني ولم تنقص دهشتي ، ولا أكاد أصدق ما رأته عيني . فلما ذهبت صبح الغد للطواف ألفيت صديقتي في انتظاري . وتقدمت نحوي حين رأتني وقالت : ان لي معك حديثا قصيرا قبل أن نبدأ الطواف . لقد هتف بي الليلة هاتف تبينته طيف زوجك الاول استحلفني أن أقسم لك أمام هذا البيت المحرم أني ماكانت بيني وبينه قط ريبة ، وأني ما أحببته ولا أحبني ، وأنا لم تزد مودتنا على موجب الصداقة البريئة الطاهرة أملاها على واجب الاعتراف بجميله لما صنعه لي ولأولادي من استخلاص ميراثنا ، وأملتها عليه مروءته وشهامته . ثم انها جذبتني من يدي قبل أن أتمكن من أن أوكد لها اقتناعي بصحة قولها . فلما كنا قبالة الحجر الاسود أقسمت هذا اليمين ثلاثا ثم قالت .. والآن سامحيني ياصديقتي ليغفر الله لك ولي . وأجبتها : بل سامحيني أنت فيما كان من سوء ظني بك ، وافساد زواجك بمن تزوجته أنا . وأقسم لك كما أقسمت لي أمام هذا البيت أنني يوم أفسدت هذا الزواج لم أكن أفكر في التزوج من صديقنا رغم ماأذعت أنت من ذلك . قالت فسامحيني في هذه كذلك فانما كنت أدافع عن نفسي وعن شرفي . وسامحتني وسامحتها وأقسمنا على أن نعود لصداقتنا الاولى ، ثم طفنا

حول الكعبة أداء لواجبنا ، وتوكيدا لقسمنا ، وافترقنا وكلتانا تحمد الله أن طهر قلبينا وغسل برحمته ماغسل من ذنوبنا وتدعو الله لبنيها ولذويها أن يكلأهم برحمته وعنايته .

واستيقظت لصلاة الفجر وأنا أسائل نفسي عن سر ما رأيت في نومي . ثم ذهبت بعد أن أسفر الصبح التمس الاستاذ الذي يحاضر الناس في الحج فقصصت عليه حالي ، وكيف اطمأنت نفسي وبلغت من الرضا غاية ما أطمع فيه ، ورغبت اليه أن يفسر لي ماطاف بي وأنا مستغرقة في نومي ، فقال : « انه من الوضوح ياسيدتي بما لايحتاج الى تفسير . فمن أنعم الله عليه فبلغ مثلك حال الرضا

يجب أن يطهر قلبه وأن يطهر عقله الباطن من كل موجدة على أي انسان ، وأن يغفر للناس خطاياهم كما يطمع في أن يغفر الله له خطاياه . ولا يزال قلبك واجدا على هذه السيدة ، ولابد لك ان شئت لحال الرضا أن تدوم أن تطردي هذه الموجدة من قلبك ، ومن ذاكرتك ، ليكون تجردك لله خالصا صادقا مصدره حب الناس جميعا ، والمغفرة لكل مخطىء ، والاستغفار عن كل خطيئة . ومن أتم الله ذلك له دام له الرضا في الدنيا وفي الآخرة . »

وتخطيت فناء الحرم والدمعة تنحدر من عيني ، ووقفت في مقام ابراهيم ورفعت يدي الى السماء وهتف قلبي : « ماأكرمك ربي ! أجديرة أنا بكل هذه العناية ؟ أم أن أعظم الناس ذنوبا أدناهم الى عفوك وبرك . رب اني لأشعر في أعماق روحي بأن قلبي لايزال في حاجة الى أن يتطهر ليكون خليقا بأن يسمو الى حضرتك ويشرف بالمثول في مقامك الكريم . »

وطال وقوفي وابتهالي الى الله ودعائي اياه أن يهبني القدرة حتى يتطهر قلبي ووجداني ليدوم لي رضاه عني . فلما أتممت ابتهالي جلست مع الجالسين في مقام ابراهيم حتى اذا سكن روعي وهدأت

نفسي وعاودتني طمأنينتي قمت فصليت ثم طفت بالكعبة ثم انتحيت جانبا قريبا من باب الصفا . هنا لك ذكرت ما رأيت في نومي فقمت فسعيت بين الصفا والمروة وتلوت ما ألقى على أن أتلوه وأنا أسعى . وسمعت المؤذن ينادي لصلاة الظهر وأنا في آخر أشواط السعي ، فدخلت الحرم من جديد فصليت وراء الامام ثم انصرفت الى مسكني .

وشعرت حين خلوت الى نفسي بأنني انتقلت الى حال جديدة من حالات نفسي . فلا بد لي ان أردت أن يديم الله ما أنعم به على من حال الرضا ، أن أمحو كل موجدة من قلبي وأن أحب الناس جميعا ، وأن تكون محبة كل ماخلق الله شعاري ليشرح الله لي صدري ، ويرفع عني وزري ، فتطمئن نفسي وأرجع الى ربي راضية مرضية ... أتراني أستطيع أن أفعل ؟ ذلك ماابتهلت فيه الى الله ليهبني القدرة عليه . والله سميع مجيب .

فلما كان المساء وصليت العشاء الآخرة نشرت صحيفتي أمام بصيرتي راجية أن يمحو الله منها كل شائبة من وزر أو شبهة من هوى . وقرأت في هذه الصحيفة أول ماقرأت ماكرره لي زوجي الأول من أن الغيرة والغرور هما مصدر علتي وسبب ماأرهقته وأرهقت نفسي وولدي به من متاعب وبلاء . وسرعان ماتيقنت انه رحمة الله عليه كان ثاقب النظر ، وأن غيرتي وغروري جسما أنانيتي فصرت لاأرى غير نفسي ، وأفرغت كل ما في نفسي من حب على هذه النفس الامارة بالسوء . ولولا أمومتي وحبي ولدي وهما بعض نفسي لأنكرت الحب وأنكرت كل مايتصل بالحب من عواطف . فأنانيتي هي التي دفعتني للغيرة من صديقتي لأنني لست جميلة جمالها ، ولست فاتنة فتنتها . وأنانيتي هي التي دفعتني للاغترار بنفسي والايمان بذكائي وسحر حديثي ، وايثار من يؤمنون بهذا الذكاء وهذا السحر ، فيدفعهم ايمانهم الى الاعجاب بهما وانكار

ماسواهما . وأنانيتي هي التي جعلتني كذلك أسيرة نفسي فأذلتني لها وضربت حولي نطاقا من سجنها وحالت دون تبادلي مع الناس جميعا أكرم العواطف . فلو أنني محوت بفضل من الله أنانيتي ، أو تغلبت على الأقل عليها ، لحطمت جدران سجني ولخرجت من عزلتي ولأحببت كل ماحولي ومن حولي ولتطهر بذلك قلبي ودامت على نعمة الرضا من ربي .

وجاهدت منذ ذلك اليوم نفسي ، فلم أكن أرى في الحرم امرأة تبدو عليها مظاهر الهم والألم الا سكبت فيها من روحي مايزيل همها وألمها ، سواء على عرفتها أم لم أعرفها ، ولم أكن أسمع أنة مريض أو مكلوم القلب حتى أخف لشفاء مرضه ، أو لشفاء قلبه . ولم أكن أشعر بأنانيتي تتحرك فيما أستبطن من أعماق وجودي حتى أقطب جبيني لها وأردها الى أعماق سجنها . بذلك صرت أفرح لأفراح الناس ممن حولي ، وأتألم لآلامهم ، ولذلك رجوت أن يشفيني الله من علتي وأن يقبل بفضله خالص توبتي .

وجاء موعد الحج فقضينا مناسكه . صعدنا الى عرفات نلبي داعي ربنا ، ونشهد بوحدانيته لاشريك له ، وأن الحمد والنعمة والملك له تعالت أسماؤه . وهناك ابتهلت اليه ودعوته لكل من رغب الى أن أدعو الله ليبارك عليه وليهديه ويغفر له ويرحمه . وكان أحر دعائي لولدي أن ينجيهما الله من شر نفسيهما ، ومن الوقوع في مثل آثامي ، والى والدي أن يجزيهما الله بما أحسنا الى ، والى زوجي أن يبلغه الله مراتب الرضا ، والى الطيف الملتف في أكفانه زوجي الأول ، أن يثيبه الله وأن يسكنه الجنة جزاء عفوه عني رغم ماأسأت اليه . ودعوت الله كذلك الى الأقربين من أهلي وذوي رحمي كل باسمه ، والى الناس جميعا أن يرفع الله عنهم مقته وغضبه وأن يهديهم سواء السبيل .

وآن لنا بعد أن طفنا طواف الوداع وسعينا سعيه أن نذهب الى مدينة الرسول عليه السلام ، وأنا أرجو أن أظل فى رحابها ، حتى يقبضنى الله اليه بها ، وأن أدفن فى ترابها •

لاقدرة لى على تصوير شعورى حين أهلت المدينةوطالعتناأعاليها ونحن منها على مدى النظر • لقد كانت عمتى تحدثنى بعدحجها أنهم لما شارفوا المدينة رأوا النور يتلألأ فوق القبة الخضراء من قباب المسجد النبوى • أما أنا فلم تر عينى حين شارفت المدينة الا مايراه من يقبل على أية مدينة فى العالم • وكنت كلما اقتربنا منها ووضحت معالمها وتبينا قبابها تمنيت لو كانت أدق نظاما وأحسن عمارة • وكذلك كان شعورى منذ دخلتها ، ولا يزال هذا الشعور آخذا بنفسى الى اليوم ، ولا أزال أدعو الله فى صلواتى أن يهيىء لها من يحسن عمارتها ومن ينهض بكل مرافقها الى مستوى الحضارة فى أرقى صوره •

لم تر عينى حين شارفت المدينة نورا يتلألأ فوق القبة الخضراء، لكننى أحسست بقلبى يملؤه النور أول ماعلمت أننا نقترب من قبر الرسول الكريم ،وقبل أن تطالعنا قباب مسجده • وانتشر النور من قلبى فى كيانى كله ، وأعاد الى ذاكرتى كل صفحة من حياة النبى العربى قرأتها قبل حجى • ولعل هذا النور الذى أضاء روحى وانتشر فى كل وجودى كان ينتقل من قلب عمتى وأمثالها الى أبصارهم فيرونه متلألئا فوق القبة الخضراء ولا تخالج نفوسهم أثارة ريب فى أنه منبعث من قبر الرسول الكريم الكائن تحتها • والايمان ينير البصائر كما ينير القلوب ، فترى الابصار بفيض من قوة هذا الايمان مالا نرى ، وتقص صادقة مالا ريب عندها فى أنها رأته رؤية مادية كما رأت القبة الخضراء نفسها •

ودخلنا المدينة وأزلت عنى غبار السفر وقصدت لتوى الى مسجد

الرسول فصليت فى الروضة النبوية الشريفة صلاة القدوم • ثم انني زرت الحجرة النبوية الشريفة ووقفت قبالة قبره صلى الله عليه وسلم أسأله الشفاعة يوم الدين • وما لبثت حين بدأت أدعو ربى ليقبل شفاعة رسوله فى أن انهملت عبرتى وخفق قلبى وانعقد لسانى كأنى فى حضرة ملك عظيم ، بل كأنى فى حضرة أعظم الملوك وأجلهم قدرا وأوسعهم سلطانا ، وأن يكن سلطانه سلطان بر ورحمة ، لا سلطان جبروت ونقمة • ولم أستطع وتلك حالى أن أغادر مكانى ، فتشبثت بأعواد الحجرة حتى دفعنى الزائرون والزائرات عنها ليلثموها تبركا بها • هنا لك جلست قبالتها وأطلت التحديق فيها وقلبى مأخوذ عن كل شيء الا عنها ونظرى ثابت نحوها لايتحول يمنة ولا يسرة • فلما انحلت عقدة لسانى أخذت أدعو من أعماق قلبى رسول البر والرحمة والتوبة والمغفرة أن يديم الله ما أنعم به على من حال الرضا ، وأن يفتح قلبى لمحبة الناس جميعا ، ولمحبة أمثالى الذين أسرفوا فى حياتهم على أنفسهم ، وأن يسعنا جميعا فى رحابه ، وأن يتقبل توبة التائبين وأن يدخلهم فسيح رحمته •

واتخذت لى مكانا فى الروضة الشريفة أصلى فيه كل يوم فرائضى الخمس ، وأدعو الله مخلصة أن يقبل توبتى ، وأتلو فيه من سيرة الرسول ماأتخذ منه الأسوة الحسنة ، مع اقرارى بعجزى عن السمو الى ذياك المقام وقد أدبه ربه فأحسن تأديبه •

وشعرت بقلبى يزداد كل يوم طمأنينة وبنفسى تزداد كل يوم هدى ، فدفعنى ذلك الى التفكير فى المقام بالمدينة أجاور الرسول الكريم مابقى من أيامى • لكنى تركت بالقاهرة زوجا أحسن الى وولدين يشتاقهما قلبى ، وتحن الى نظرة منهما نفسى • ولئن استطعت أن أدعو الولدين لاراهما بالمدينة ولو مرة فى كل عام ، فليس من حقى أن أقيم بها الا أن يأذن لى زوجى • لذلك كتبت

اليه كتابا رقيقا أشرح له فيه مامر من أحوالى وأشكر لله ماأنعم به على ، وأستأذنه فى المقام مجاورة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يختارنى ربى ، وأقمت أنتظر الجواب على خطابى . ولدهشتى وفرحتى جاءنى بعد قليل كتاب زوجى ينبئنى بأنه قادم الى ومعه ابنتى ، وأن ابنى كان يود أن يحضر لولا أن أمسكته مصالحنا فى مصر ليرعاها .

ولم يطل انتظارى مقدمهم . فبعد أيام من تناولى كتاب زوجى تسلمت برقية بأنهم أبحروا من السويس الى ينبع فى طريقهم الى المدينة . أتراني أنتظرهم حتى يحضروا الى ، أم أخف للقائهم بينبع ، كان الجواب على هذا السؤال مدار نزاع حامى الوطيس بين روحى وقلبى . قلبى يحركه الشوق اليهم فيدفعنى دفعا عنيفا لأذهب الى ينبع . وروحى تحدثنى بوحى من عقلى أنهم سيبلغون المدينة مساء اليوم الذى تستقبلهم ينبع فى صباحه ، وليس يشق على أن أنتظرهم هذه الساعات فلا يخلو مكانى أثناءها فى الروضة النبوية ، ولا أشغل خلالها بشيء عما أخذت به نفسى من عبادة ربى . وغلبت روحى آخر الامر قلبى فأذعنت مؤمنة بأن غلبها كان بقضاء من الله وقدر ، وبقيت بالمدينة أنتظر القادمين العزيزين من غير أن أنقطع عن أداء ما لله على من حق .

واستقبلتهما وأنا فى ثيابى الناصعة البياض . وحيانى زوجى فى شوق واكرام وتمنى لى حجا مبرورا ، وقابلت تحيته بمثلها فى تواضع واحترام . أما ابنتى فاندفعت الى تقبلنى وتعانقنى وتضمنى الى صدرها فأشعر فى هذه الضمة البنوية الصادرة من أعماق قلبها وكأنها تريد أن تعود بضعة منى كيوم كنت أحملها فى أحشائى ، فيزداد قلبى وقلبها امتزاجا ، وأحس بأننا روح واحد فى جسدين . فلما فرغنا من تحياتنا وقبلاتنا وعناقنا وذكرت لهم أنى دعوت الله

لهم ولاهلنا جميعا سألت ابنتي : وكيف أخوك ؟ قالت : بخير ياأماه وهو يسأل متى تعودين الى القاهرة • ولمحت زوجي فاذا هذا السؤال مرتسم على وجهه ، واذا هوينتظر أن يسمع جوابي عليه • قلت : ذلك ماسنتحدث فيه بعد أن تقيما معي أياما•وبعد برهة صمت قال زوجي : أولا يجب علينا أن نذهب الى الحرم نؤدى لصاحبه عليه الصلاة والسلام تحية القدوم • قلت ذلك لكما ، وسأرافقكما• لكن الواجب عليكما أن تقرءا سيرته لتقــدرا شرف مثولكما في حضرته حق قدره • وهذه السيرة عندى يستطيع أيكما أن يقرأها اذا قام الليل الا قليلا • فاذا هو زار الحرم بعد ذلك ووقف أمام الحجرةالشريفة استنار قلبه بنور صاحبهـا وعرف كيف يجتمع الحق والخير والايثار وانكار الذات وسائر المعانى الرفيعة فى نفس واحدة هى ملاك المعانى السامية كلها ، وهى القدوة خير قدوةلمن شاء أن يتبع خطاها ويسير فى أثرها •

وقرأ زوجي وقرأت ابنتي السيرة وأخذا يصحبانني كل يوم الى مسجد صاحبها ، ويجلسان معى فى الروضة يصليان ويتعبدان • على انني شعرت بعد أيام أنهما يحسبانني أبالغ فى تقواى ، فلم أعر حسبانهما هذا بالا ، لانني أدركت مما رأيت منهما أن أمرا خاصا يشغلهما •وخلا الى زوجي يوما بين صلاتى العصر والمغرب اذ كانت ابنتي فى الحرم فسألني : والآن هل أستطيع أن أعلم متى اعتزمت العود الى القاهرة ؟ فقلت : أو تذكر لى أنت ماحدث بين ابنتي وزوجها ؟ فأجابني وقد علته الدهشة : وكيف علمت ؟ وهل كتب اليك أحد من مصر بما حدث • قلت : كلا ، ولكنه احساس خامر قلبي وشهد به عندى ماكانت تنم عنــه أســاريركما كلما جاء ذكره في حديثي معكما • قال مبتسما بدء حديثه ، بادية عليه سيما الاسف حين استطرد فيــه : « لايزال ذكاؤك لماحا رغم تقواك • وكنت أحسب أن الذكاء والتقوى لايجتمعان • أما وقد اجتمعافلن

أستطيع أن أخفى عنك شيئا ، والامر يحتاج فى معالجته الى حكمتك وبصيرتك • ان ابنتك وزوجها يكثر اختلافهما حتى لاضيق أحيانا بهما حين يحتكمان الى فأحاول اصلاح ذات بينهما • وقداستطعت الى عهد قريب أن أتغلب على منازعاتهما وأن أردهما الى حمى الصلح والسلام • ثم استفحل خلافهما فى الفترة الاخيرة حتى خشيت انفصالهما وكدت أيأس من امكان تفاهمهما • وأنالكذلك اذاجاءنى كتابك تستأذنينى فى البقاء بالمدينة هنا • وقد انتهزت فرصة تناوله واتخذت منه حجة للكلام فى غير مايشتد جدلهما حوله ، ثم رأيت حين قررت المجىء اليك أن تصحبنى ابنتك راجيا أن يبعث بعدها شوق كل من الزوجين الى صاحبه فينسيهما الشوق خلافهما • هذه قصتهما وقصتى معهما ، ولن يستطيع أحد ماتستطيعين أنت علاجا لحال تعصى على أمرها وأخشى أن يفلت من يدى زمامها •

قلت : فلنستعن بالله فيما تعصى عليك •• فاذا جاءت ابنتى خاطبتها آملة أن أردها الى صوابها ، لترد هى زوجها الى صوابه •

وذهبنا الى الحرم وصلينا المغرب والعشاء وراء الامام ، ثم عدنا وعادت ابنتى معنا •

فلما تناولنا طعامنا ، واستقر بنا المجلس قلت لها : لقد دار بظنى أنك على خلاف مع زوجك اذ كنت أراك وعمك تنقبض أساريركما كلما جرى اسمه على لسانى • وقد سألت عمك عن ذلك فأخبرنى أنكما بلغ من أمركما أن خشى انفصالكما ، وأن كاد ييأس من اصلاح ذات بينكما ، ففيم تختلفان ؟ • قالت وهى تحبس دمعة ترقرقت فى عينيها : « لقد أصبحت حياتنا لاتطاق يا أماه • ان زوجى يريد أن يستأثر بكل شىء داخل المنزل ، على حين لاأسأله أنا شيئا فيما خرج عن دائرة المنزل • انه يريد أن يكون السيد المطاع ، وأن تكون كلمته أمرا لا أناقشه فيه • فاذا أردت أن أبدى له ملاحظة عن

لون ثيابه أو زيه قال : مالك أنت وذاك . هى ثيابى أنا ، متناسيا أن مايوجه الى ثيابه من نقد موجه الى ذوقى وحسن عنايتى . وهو يريد مع ذلك أن يكو نصاحب الرأى فى ثيابى . فى لونها وقماشها وتفصيلها . وأنت ياأماه تعرفين أن الرجال لايعلمون شيئا عن ثياب النساء . فالنساء يغيرن أزياءهن والرجال معجبون دائما بكل مايصنعن . حسب المرأة أن تملق غرور الرجل فتسأله رأيه فى ثوبها ليبدى غاية الاعجاب بالثوب وبها . هذا وان أوهمت المرأة زوجها بأنها تستشيره قبل أن تختار القماش وطراز الثوب . وقد بلغ من أمر زوجى معى حين ثرت باستبداده أن قال يوما : « اننى لا أريد أن تصيرى الى ما صارت اليه أمك . عند ذلك رأيت أن الكأس قد طفحت ، وأنه وقد تخطانى اليك اليوم ، فانه سيتخطاك الى أبى غدا . واذا لم تقم الحياة بين الزوجين على تبادل الاحترام فلا خير فيها . فالحب الذى يتجاوز الاحترام لايكفى وحده لاتصال الحياة بين الزوجين . »

شعرت بأن ابنتى ذكرت اشارة زوجها الى مصيرى لتثير حماستى . لكننى كنت أشد حرصا على مصيرها هى . لذلك سارعت فأجبتها : « لاتحسبى رجلا يستطيع أن يستبد بامرأة الا أن يكون وحشا كاسرا ، أو تكون المرأة عنيفة فقدت كل معانى الانوثة ، أو مغرورة عبثت بها أنانيتها فلم يبق لزوجها الا أن يفرض وجوده عليها » .

قالت ابنتى : « فأشيرى على يا أماه . أنت تعلمين أننى أحب زوجى وأنه يحبنى . لكننى أرى أن مشاركته لى فى الصغير والجليل من الشئون فقدان ثقة بى . ولشد ما أخشى أن أبادله عدم الثقة فيكون لذلك من سوء الاثر فى حياتنا ماأريد جهد طاقتى تجنبه » .

قلت : « فاسمعى ياصغيرتى . لاتطلبى الى زوجك أن يثق بك ثقة عمياء ، وهو لن يطلب اليك مثل هذه الثقة به . أنتما شريكان فى

كل شيء ، ومن حق الشريك أن يحاسب شريكه • لقد خبرت هذا الامر وبلوت من مره علقما • فثقة أبيك العمياء بى هى التى أضلتنى ، وسبقه اياى الى رغباتى هو الذى جر عليك وعلى أخيك أبلغ الضرر • فهو لم يكن يراجعنى أو يصدنى عن شيء ولو كنت معرضة للخطأ فيه • حسبه منى أنه كان يحبنى وكنت أول سنى زواجنا أحبه ، وانني لم أكن أسأله عن شيء فى عمله لأننى لم أكن أعرف ألف الطب ولا باءه • وكان ذلك دافعي يومئذ لأرغب اليه في الانتقال من الطب الى السلك السياسى ، ليكون سلطانى أفسح مدى • لكنه أبى وأصر على ابائه • عند ذلك بدأ حبى اياه يضطرب في نفسي • والحب اذا اضطرب فمصيره الى الاحتضار والموت • وما قيمة حب لا مظهر له الا أن يقول الرجل للمرأة ، أو تقول هى له : اننى أحبك ، وألا يلتقيا الا لانجاب ذريتهما ، وألا يحاول كل منهما أن يكمل نقص صاحبه ليسمو به الى مايقربه من الكمال • ولو أن أباك راجعنى بدء زوجيتنا فيما يخشى أن أتعرض للخطأ فيه وردنى برفق لايعرف العنف الذى كنت أراجعه به بعد أن فتر حبى له ، لما بلغت الامور بيننا الى ماتعلمين من انفصالنا • فلا تبالغى ياصغيرتى اذ تتحدثين عن حرص زوجك على الاستئثار بشئونك ، بل تسامحا وتشاورا وتشاركا فى كل ماتستطيعان فيه تسامحا أو مشورة أو اشتراكا ينتقل ذلك بحبكما من القلب الى الروح • ولا حب كالحب بالروح بقاء ودواما •

أحسنت ابنتي الانصات الى حديثى • فلما فرغت منه قالت وعلى ثغرها ابتسامة تشوبها السخرية : سامحينى يا أماه اذا قلت انك لم تعرفى الرجال بعد رغم خبرتك الطويلة • انهم لايكفيهم أن يستأثروا بأجسامنا ، فهم يريدون ان يستأثروا بقلوبنا وعقولنا وأذواقنا وكل شيء فى وجودنا • انهم لاحد لأنانيتهم • وهم أشد حرصا على ان يستأثروا بكل ذلك من المرأة ما كانوا أشد لها حبا ،

وحرصهم يتجاوز كل حد اذا بلغ حبهم العبادة • فاذا لم تصدهم المرأة عن غيهم فى الاستئثار المطلق بها فنى أمامهم وجودها وأصبحت أمة رق لهم • وهذا مالا أرضاه ولن أرضاه مخافة الغد وما أخشاه من مذلتى فيه •

وابتسمت كما ابتسمت وقلت : أنت على حق ياصغيرتى • أنا لم أعرف الرجال بعد كما عرفتهم أنت • ولكنما عرفت أن الرجل ضعيف عنيف ، وأن المرأة ضعيفة قادرة • فالرجل اذا استثير جابه الخطر ولو كان فى مجابهة الخطر حتفه ، وجابهه مضطرب الروية زائغ البصر ، غير مؤمن بسلاح غير سلاح العنف • أما المرأة فالعنف ألد أعدائها . هى حمامة السلام ، فاذا نصبت نفسها للقتال فويل لها وويل للسلام • وقدرة المرأة فى ذكاء أنوثتها • هذه الانوثة الذكية هى السلاح الحاسم الذى تستطيع به كل شيء ، وتستطيع به أن تملك عقل الرجل وقلبه وروحه وكل حواسه • والانوثة الذكية تأنف العنف فى كل مظاهره ، لانها تدرك ما للرفق والمحبة من سلطان قاهر يعنو له العنف ويتلاشى أمامه • بالرفق والمحبة تجعل المرأة هزيمتها نصرا واذعانها أكبر من النصر ، فعالجى ياصغيرتى زوجك بذكاء أنوثتك وأنا كفيلة لك بأنه سيكون طوع ارادتك فى كل ماتطلبين •

قالت ابنتى فى استسلام مصطنع : « سأحاول يا أماه • ولعلى أجد فى حياتك درسا لى ، وان كنت أخشى أن تغلبنى كبريائى يوما فلا أبلغ مايشتد حرصى اليوم عليه » •

وقاطعتها فى عنف قائلة : « تعسا لباطل الكبرياء الذى ينفث فينا سموم الغرور • انه هو الذى يهزمنا ويذلنا حين يكون النصر فى قبضة يدنا • لا شيء يا ابنتى خير من التواضع مالم ينزل بصاحبه الى هوان المذلة • واننى لأدعو لك من كل قلبى أن تبلغ أنوثتك من الذكاء مايفتح لك بالتواضع أبواب السعادة والهناء » •

قالت : ومتى تحضرين الى القاهرة يا أماه لتسددى من خطاى ماأخشى أن يتعثر • ألا تعودين مع عمى ومعى •

وأجبتها : « ذلك ماسأحدث عمك فيه • فأنا لاأستطيع أن أبقى هنا أو أعود الى هناك بغير اذنه • وسأكشف له عن مكنون صدرى ولا مرد بعد ذلك لحكمه •

وأدركت ابنتى من عبارتى أننى أريد أن أخلو الى عمها أحدثه فانسحبت متلطفة وقالت : أنا ذاهبة الى مخدعى فلتمسيا بخير • ورددنا تحيتها بمثلها •

فلما خلونا قال زوجتى : « أخشى أن يكون حوارك مع ابنتك قد أجهدك وجعلك فى حاجة الى الراحة • فان شئت تحدثنا عن عودك الى القاهرة بعد صلاة الفجر • »

وأجبته : « الامر على عكس ماتظن • فقد أيقظ هذا الحوار كل حواسى وأطار كل خاطر للنوم من رأسى • فان لم تكن أنت بحاجة الى الراحة فانى مفضية اليك بذات نفسى • أما ان آثرت أن تستريح فأنا وما تريد » •

وآثر هو أن يستريح فنمت بجواره وألصقت جسمى بجسمه وشعرت بالدفء يسرى منه الى كل وجودى ويبعث الى قلبى من الطمأنينة ماسكن من يقظة أعصابى وهفا بى الى النوم • واستيقظت مع الفجر وأيقظته وصليت مؤتمة به • فلما فرغنا من صلاتنا ومن دعائنا قال :

— ألا ترين أنك تظلميننى اذا بقيت هنا وتركتنى أعود الى القاهرة أعانى الوحدة وآلامها • اننى أدرك بعد الايام التى أقمتها بالمدينة حلاوة هذه الحياة التى تحيينها ، تقضين معظم نهارك وطرفا من الليل فى الحرم على مقربة من الرسول الكريم • وكم تمنيت لو

استطعت أن أجاوره كما تجاورينه • لكنك تعلمين أن مصالحنا بمصر تحول بيني وبين هذه الامنية العزيزة •• ولك على ان أردت أن تحجي كل عام وأن تزوري أن أعاونك على ذلك ، وأن أصحبك فيه كلما استطعت الى صحبتك سبيلا » •

قلت وقد ازداد قلبي رقة لهذا الرجل المحسن الكريم : « عزيز على أن أدعك تعاني الوحدة في مصر وأنت أنت الذى أنقذتني منها• وكم نازعتني نفسي الى العود معك • ولو أننا تحدثنا في هذا الامر يوم مقدمك الى هنا لهفت نفسي الى ماتريد • فقد كنت أشعر يومئذ انى بلغت من تطهير قلبي الى مايديم على حال الرضا التي أكرمني الله بها • لكن الايام التي قضيتها معي هنا أرهفت حسي نحوك وجعلتني أشعر لك في أعماق قلبي بما لم أشعر من قبل بمثل بأسه وسلطانه • نعم ! انى أحبك الآن حب امرأة لرجل • فجسمي يهواك كما يحبك قلبي ، وأخشى أن ينسيني هذا الحب وهذا الهوى محبة غيرك ممن خلق الله ، وما خلق الله • فان حدث ذلك ، وشد ماأخشى أن يحدث ، زالت عني حال الرضاوعدت أعاني من حساب الضمير عن ماضي حياتي ما أنوء به • قد يكون هذا الحب العنيف من نزغ الشيطان • وقد يكون اختبارا يريد به ربي أن يبلوني وأن يشهدني على ضعف نفسي وباطل غروري اذ أظن أنني سموت الى مرتبة رضاه وروحي لاتزال تتجاذبها الأهواء ويختلط فيها الخبيث بالطيب • فهل لى أن أرجوك ، وأنت الزوج المحسن الكريم ، أن تدعني هنا أتابع مابدأته من تطهير قلبي حتى أطمئن الى نقائه • ولعلك ان عدت للزيارة في شهر رجب ألفيتني في طاعة الله وطاعتك سباقة الى مرضاتك • »

كنت أنظر اليه وأنا أخاطبه بعينين ملئتا عطفا ومحبة ، ثم كنت أراه مع ذلك مشدوها كأنما أخاطبه بلغة غير مفهومة • وقد ظل

بعد أن فرغت من حديثى تعلوه الدهشـــة وكأنما يريد أن يتبين ما أريد فلا يسـعفه ذكاؤه • وبعـد برهة سـاد فيها بيننا الصمت قال :

ـ أصـدقك أننى لم أفهم كل ماقلتــه •• لـكنك ذكرت أنك أصبحت تحبيننى الآن حب امرأة لرجل • أو أفهم من ذلك أنك لم تكونى تحبيننى قبل أن تحضرى الى المدينة ؟! وسارعت فأجبت : « لاتبالغ ياعزيزى ولا تحمل ماقلته معنى لايحتمل • انما قلت أننى أحببتك منذ جئت الى هنا حبا لم أشعر من قبل بمثل بأسه وسلطانه • ولا أخالك تريدنى على أن أقص عليك قصة عاطفتى نحوك من قبل فأنت تعرفها ، وتعرف ماكان من حديث بعضهم عنها • وكل الذى أرغب اليك فيه ألا تأخذك النشوة بحبى اياك اليوم ، وأن تدعو الله معى أن يديم على هذا الحب سلطانه من غير أن يحبسنى فى سجنه ، وأن يدع قلبى مفتوحا لحب كل ما خـلق ومن خلق حتى يدوم لى عفوه عنى فأبقى فى حال الرضا التى أنعم بها على • »

لم يدعنى الرجل أستطرد فى الحديث بل قال :

ـ بل أريد أن تقصى على قصة عاطفتك نحوى فذلك أدنى لفهمى وأحب الى نفسى •

قلت : أتراك راجعت شبابك يوم كنت تريد أن تتزوج صديقتى •• ولكن لابأس بأن أجيبك الى مايرضيك • أنت تعلم أننى عرفتك أول ماعرفتك الصديق الوفى لزوجى الاول ، كما كنت الصديق الوفى لصديقتى • كنت يومئذ أستريح الى مجلسك ، وآنس بحديثك، وأغتبط بحسن اصغائك الى حديثى ، فكنت اذا جئت الينا سررت بلقيــاك ، وحرصت على استبقائك عندى أطول زمن ممكن • فلما أشركت زوجى الاول معك فى معـاونة صديقتى على اسـتخلاص

ميراثها لم أجد بذلك أول الامر بأسا . لكنكما بالغتما من بعد فى عنايتكما بهذا الامر مبالغة أثارت نفسى بكما ، وأقنعتنى بأن جمال صديقتى ، لا الوفاء لاولادها أو لذكرى زوجها ، هو الذى يدفعكما الى هده المبالغة . ولقد كدت ، لمبالغه زوجى الاول ولكثرة تردده على صديقتى ، أحملك أنت التبعة لانك شجعته على هذه المعاونة ودفعته اليها . فلما أردت أن تتزوج صديقتى عرضت لى فرصة نادرة للانتقام منك ومنها فأفسدت هذا الزواج . ومرضت أنت بعد ذلك واستبد بك المرض فتولانى الندم على ما فعلت وبدأت عواطفى نحوك تحرك قلبى . وازدادت هذه العواطف حين أكدت لى غير مرة أنك لن تتزوجها ، وحين انقطعت كل صلة بينك وبينها ، على حين بقى زوجى متصلا بها . وبدأ العطف اذ ذاك يشوبه الود وان لم ينقلب حبا ، لاننا وقفنا معا صفا واحدا . تنكر أنت على صديقتى التى قاطعتنى وأذاعت أننى أفسدت زواجها منك لأتزوجك ، ولا أحب أنا زوجى لانه أبقى على ود صديقتى التى قاطعتنى وطعنت على . وتضاعف ودى لك بعد أن هدك المرض بسبب فعلتى ، وانك واسيتنى فى محنة احتضار حبى لزوجى مواساة استراح لها قلبى فأعترف بجميلك وأقر فى أعماقه بعظيم فضلك . وازددت أنا اقرارا بهذا الفضل حين حاولت أنت غير مرة أن تعيد الصفاء بينى وبين زوجى وفاء منك لصداقته ، مع يقينك اذ ذاك بأنك تحاول المستحيل . من يومئذ وقفت الى جانبى فخففت عنى عبء عزلتى بعد أن انتقلت الى الاسكندرية ، ثم انك أقنعت زوجى فطلقنى فضاعف ذلك ودى لك . فلما رأيتنى أضطرب فى حياتى الجديدة كما تضطرب الخشبة الضئيلة ألقى بها فى لج البحر المتلاطم مددت يدك الى فأنقذتنى وتزوجتنى غير عابىء باثم الظن وقالة السوء . يومئذ غمرنى فضلك فأصفيتك كل قلبى فلم يبق بلك من شريك فيه غير ولدى . وزاد ملكك هذا القلب حين اعتبرتهما ولديك .

وبقينا من بعد ذلك السنين وأنا فى رحاب فضلك ، منسوبة أنا وولدى اليك ، نعيش فى ظل عطفك وسابغ برك . فلما ارتد ولداى فتسميا باسم أبيهما تصارع فى قلبى حبى اياك وحبى اياهما ، ففرعت الى البلد الامين لائذة بربى لاجئة الى حماه . وأقمت فى هذه الارض المقدسة ، أدعو الله وأتوب اليه وأستغفره حتى اطمأن قلبى الى أنه غفر لى وعفا عنى ومحا بفضل منه ماسلف من ذنوبى . عند ذلك شعرت بأن قلبى وروحى عاودهما شبابهما وانفتحت لهما صفحة جديدة مبرأة من الذنوب . فلما جئت أنت الى هنا أحسست بهذا الشباب ينتقل من قلبى الى حواسى ، بل الى دمى وأعصابى ، وأن ما أصفيتك من ودى اعترافا بفضلك وجميلك انقلب حبا جارفا . حب امرأة لرجل ، بل عشق فتاة لشاب . عند ذلك أيقنت أن هذا الحب لم يكن وليد يومه ، وأنه لم يكن حبا من أول نظرة كما يقولون ، بل نشأ منذ عهد بعيد نطفة ثم مضغة ثم علقة ثم جعل ينمو حتى بلغ اليوم فتوة شبابه . ولقد كنت أسمع ولا أصدق أن حب الكهولة أعنف الحب ، وهأنذا اليوم وقعت فى براثنه بعد أن عشش فى قلبى وأفرخ ، وبعد أن حملته فى قلبى كل هذه السنين كما تحمل المرأة طفلها فى أحشائها تسعة أشهر ، فاذا وضعته نسيت كل شيء بل نسيت حياتها من أجل وليدها . وأكرر الآن أننى أخشى أن يبلغ من طغيان هذا الحب على أن يحبسنى فى سجنه ، وأن ينسينى محبة ما خلق الله ومن خلق . ولذا أعود فأرجوك باسم هذا الحب أن تدعنى هنا أتابع مابدأت من تطهير قلبى حتى يسع الى جانب حبك حب خلق الله ، لانه وسيلتنا الى محبة الله ودوام عفوه وعطفه . فان أذنت ولا أخالك الا آذنا ، أسديت لى يدا تنفعنى وتنفعك عند ربى . فاذا عدت بعد ذلك يوما الى القاهرة عدت بريئة مطهرة ، وكنت النفس المطمئنة التى تطمع فى أن يدخلها الله فى عباده وأن يدخلها جنته .

كان زوجي يسمع قصتي مستريحا لها راضيا عنها ، وتزداد أساريره انفراجا كلما أمعنت فيها . فلما فرغت منها ، هز رأسه وكأنما تولاه العجب وقال :

ـ لشد ماتختلف الصور لتنتهي من بعد الى التقاء بل الى امتزاج. فقصتي معك تختلف عن قصتك معي كل الاختلاف ، والقصتان تنتهيان مع ذلك الى امتزاج قلبينا أشد الامتزاج . لقد أحببتك أنا من أول نظرة ، يوم قدمني زوجك الاول اليك على أنني صديقه الوفي . وقد تمنيت يومئذ لو لم تكوني زوجه لأتزوجك . ولعلك تذكرين أنك أنت التي طلبت الى أن أعنى بميراث صديقتك وأبنائها، فاعتبر قلبي طلبك أمرا لامفر من نفاذه . ولا تنسى أنني استشرتك في الاستعانة بزوجك فأذنت لي ، بل ألححت عليه في معاونتي . وأتاح لي ذلك فرصة الاكثار من التردد عليك وارضاء قلبي وروحي بجاذبيتك وسحر حديثك . وكان ذلك يلهب حبي ويضاعف الصراع بينه وبين الوفاء لصديق ائتمنني على بيته وشرفه . عند ذلك فكرت في التزوج من صديقتك وأنا أعلم الناس بخفتها ونزقها لأجد في جمالها وفي حواسها بعض مايسكن شغفي بك وحبي اياك . فلما أفسدت أنت هذا الزواج آمن قلبي بأنك تحبينني كما أحبك . لهذا عاد الصراع بين الحب والوفاء للصداقة أعنف مما كان . لكنني كتمت مافي نفسي ابقاء على شرفك وشرفي، وحاولت جهدي أن أعيد الحياة لحبك المحتضر ، مكتفيا من حبي اياك بالنظر اليك والمتاع بسحر حديثك . فلما ذهب جهدي عبثا وطلقت من زوجك لم أرد أن أفاتحك بحبي حتى لايصدق ماأذاعته صديقتك من أنك أردت الطلاق لتتزوجي مني . لكنني رأيتك بعد ذلك ريشة في مهب الريح فمددت يدي اليك ارضاء لحب تأجج في صدري كل هذه السنين ، فتزوجنا . يومئذ اطمأن قلبي ولم يعنني من بعد أن يقول مطلقك انني خنت عهد صداقته . فالله يعلم وأنت

تعلمين كم وفيت له وكم قاسيت في سبيل هذا الوفاء • ولهذا أمتعنا الله سني زواجنا بالسعادة والنعمة • وكذلك امتزج قلبانا بعد أن بقيا متجاذبين على طريق الحياة السنين الطوال ••

وسكت الرجل بعد ذلك هنيهة ثم قال :

ـ على أنني يزداد ياعزيزتي عجبي حين تذكرين أنك لم تشعري بأس الحب وسلطانه ماتشعرين اليوم ، ثم تريدين مع ذلك أن نفترق • أصدقك القول أنني لم أفهم هذا التصوف الذي تلبسين اليوم لباسه • وكنت أحسب أن سلطان الحب الذي حدثتني عنه سيدفعك الى مصاحبتي والعود معي الى دفء عشنا الجميل بالقاهرة •

قلت وفي صوتي نبرة التوسل والاستجداء •

ـ أنت تعلم أنك ان أمرتني أن أعود معك فلن أعصى لك أمرا ، واني لن أقيم هنا الا باذن منك تبذله عن رضا وطيب نفس • وانما أضرع اليك أن تدعني هنا في جوار الرسول الى رجب المقبل حتى يطهر قلبي ويتقبل مني ربي وتصدق عنده توبتي فلا تشوب نفسي بعد ذلك شائبة من وزر أو هوى • ولك على عهد الله وميثاقه ان أنت رغبت الى خلال هذه الاشهر الستة أن أعود الى القاهرة ، ولو بعد أيام من وصولك اليها ، فستجدني حاضرة عندك ايمانا مني بأن قلبك هو الذي دعاني •

وبعد هنيهة أضفت : والآن أطلب الى هذا القلب الكبير أن يأذن ببقائي • ذلك رجاء أتوسل اليك في ضراعة أن تقبله ، والامر بعد الله لك جزاء حبك واحسانك وبرك •

كان زوجي مطرقا وأنا أتكلم • فلما فرغت من حديثي رفع الى رأسه وقد ارتسمت معاني الطيبة والحب على محياه وقال :

ـ ماكنت لأحول بينك وبين ماتطمعين فيه من مغفرة بارئك

وعفوه • فأنت وما تريدين • أقيمي الى جوار الرسـول الكريم ماطاب لك المقام ، ولا تنسى الدعاء لى أن يغفر الله ذنوبى • أقيمي راضية عنى مرضية منى • وأرجو الله أن يجمعنا هنا فى زيارة رجب وأن تطيب نفسك يومئذ بالعود معى الى أرض الوطن طاهرة مطهرة •

عقدت غبطتى بكرم عواطفه لسانى ، فلم أجد الالفاظ التى تكفى للثناء عليه ، فقمت اليه فقبلته قبلة شكر ومحبة ، ثم قلت له : فليتول الله جزاء اكرامك اياى واحسانك لى • »

وانتقلنا بالحديث الى مألوف القول • ثم اننى بعثت بالخادم فدعت ابنتى فتناولت فطورها معنا ، فلما فرغت منه سألت : أوتعودين معنا يا أماه • وأجبتها : قد أذن لى عمك يا ابنتى فى المقام هنا الى زيارة رجب على أن أخف بالعودة الى القاهرة ساعة يدعونى اليها • وان لسانى ليعجز عن شكره على جميل صنيعه • أما وقد علمت منه أنكما تعودان الى مصر على الباخرة التى تبحر من ينبع بعد غد فانى أرجو لكما السلامة ، وأحملك الى أخيك قبلات شـوقى ومحبتى • وكم أتمنى لو أتيح له أن يحضر الى هنـا لأراه كمـا رأيتك ، وأروى برؤيته شوقى الظامىء لضمه الى صدرى • وهو لا ريب أحكم من أن يحتاج الامر بينى وبينه الى حوار كالذى دار بينى وبينك •

وابتسمت الشابة وقالت : ان طيبة قلبه وكرم خلقه وشدة حبه لزوجه يغنيه عن مثل هذا الحوار •

«ولقد فكرت هذه الليلة طويلا فيما أسديت لى ياأماه من نصائح فرأيتك على حق • أهو عقلى الذى هدانى الى تبين هذا الحق ، أم هو وحى هذه المدينة المنورة ، أم أنهما تآزرا على هدايتى ؟! أيا كان الأمر فانى شاكرة لك من أعماق قلبى مستغفرة عما لعله فرط منى أثناء حديثى •

وقبلتها وقلت : ان الهدى يا ابنتى هدى الله • أمتعك الله بالسعادة والهناء •

وفى الغد تأهب زوجى وابنتى للسفر الى ينبع فصحبتهما اليها ، وودعتهما حين أبحرت الباخرة ، وعدت فى رفقة الى المدينة وتخذت مكانى من الروضــة وحمدت الله أن هــدى ابنتى الى الحق وهدى زوجى ليدعنى فى جوار الرسول الكريم •

الفصل الحادى عشر

عدتالى المدينة والى مكانى من الروضة فى المسجد النبوى وقلبى مفعم غبطة أن أتاح الله لى فرصة كاملة لتطهير روحى من كل شائبة • ورآنى خادم المسجد أعود وحدى الى مكانى بعد أن كان زوجى وابنتى يصحبانني اليه فتلطف فى السؤال عنهما • فلما علم أنهما عادا الى مصر ، وأنهما سيحضران الى المدينة فى زيارة رجب دعا لهما بالخير وأثنى عليهما أجمل الثناء ، وتمنى لهما زيارة فى رجب موفقة • وكذلك عدت الى مألوف سيرتى قبل مجيئهما من مصر ولا أشك فى أن الله قد رضى عنى ، وأن بقائى بالمدينة باذن بذله زوجى طيب النفس بذله خير مظهر لهذا الرضا •

وأقمت الايام والاسابيع والشهور من يومئذ أمعن فى تطهير نفسى وقلبى ، واطمئن الى من بمصر من رسالاتهم الى ، وأدعو لهم وللناس جميعا بالخير • وان شهر رجب ليقترب ، وان نفسى لتهفو لرؤية الاعزة ولصحبتهم فى زيارة مدينة الرسول ومسجده وآثاره، اذ تناولت من ولدى برقية نصها : « صحة عمى توجب حضورك فورا » • ولشد ما أزعجتنى هذه البرقية وجعلتنى أضرب أخماسا لأسداس أحاول أن أحدس ماأصاب زوجى • لقد كان فى كمال صحته يوم كان هنا ، ويوم ودعته بينبع • ترى أصابته نوبة من تلك النوبات التى تخشى مغبتها فدفعت ولدى ليبعث الى يدعونى الى القاهرة ؟ فأنا أعرف ولدى وأعلم أنه لايزعجنى هذا الازعاج لطارىء لاتخشى عواقبه • لابد اذن من السفر على أول باخرة تبحر من ينبع •

وتجهزت للسفر وتخذت له كل عدته ، وذهبت الى ينبع

وأبحرت منها الى مصر • وكان زوج ابنتى فى انتظارى بالسويس •
فلما رأيته سألته فى لهفة عن أنباء عمه • وحاول الشاب أن يطمئننى •
لكن محاولته لم تزل مخاوفى ، لان سؤالى جعله فى حيرة اضطرب
لها هنيهة قبل أن يتكلم ، ثم لم تكن عبارته حين تكلم عبارة الواثق
بنفسه • وقلت له : « لاتخف عنى شيئا يابنى • اننى سأرى الرجل
بعد ساعات ان كان لايزال على قيد الحياة،فأصدقنى ولا تزد بمحاولتك
اضطراب نفسى » • وكان جوابه : « لقد أصابته يا أماه نوبة قلبية
شديدة هى التى دفعتنا لاستدعائك على عجل • وكانت صحته قد
بدأت تتحسن حتى لقد عاتبنا أمس على ازعاجك • لكنه استيقظ
فجر اليوم متعبا فدعونا له الطبيب قبل أن تطلع الشمس • ولم
أستطع البقاء لأعرف رأى الطبيب مخافة ألا أدرك الباخرة أول
وصولها • وكلنا ندعو الله من أعماق قلوبنا أن يمن عليه بالشفاء
وأن يرد اليه العافية •

وأطرقت لما سمعت ورفعت رأسى أدعو الله من أعماق قلبى ألا
يسيئنى فى هذا الرجل الطيب الذى أحسن الى وأنقذنى ، ثم أحسن
الى سنوات طوالا بعد زواجنا ، ثم أحسن الى مرة ثالثة فأذن لى فى
مجاورة الرسول الكريم •

وأقلتنا السيارة تنهب طريق الصحراء الى القاهرة • فلما دخلت
غرفة المريض العزيز وأنا فى ثوب الاحرام الناصع البياض ، نظر
الى بعينين ملأهما الدمع نظرة شوق ويأس • وأقبلت عليه فقبلت
جبينه ويده وأنا أرتجف لشدة ما أصاب قلبى من الخفقان • فلما
هدأ روعى بعض الشىء أمسكت بيده وقلت : « شفاك الله ياحبيبى
وعافاك • انها دعوة يهتف بها قلبى مذ عرفت وأنا بالمدينة بعض
ما أصابك ، وظل يهتف بها فى كل صلواتى وخلواتى وساعات
قنوتى وتهجدى • وأرجو أن يسمع الله لى ، انه سميع الدعاء » •
فنظر الى بعينين ملئتا يأسا وقال فى همس : « شكرا لك ياحبيبتى •

لكنى أحس دنو الأجل . نعم . انها النهاية . فاستغفرى لى ربك هنا ، واستغفريه حين تعودين الى المدينة تجاورين رسول الله الاكرم » . وسكت بعد ذلك برهة ثم قال فى صوت خافت لايكاد يبين : « وداعا وحمدا لله أن رأيتك قبل أن ألقاه لتستغفريه لى . فأنت ولية الله الصالحة » .

قلت : « بل أنا ياحبيبى المذنبة التائبة . فليغفر الله لك ولى . وليرحمك ويرحمنى . انه رب التقوى ورب المغفرة » .

وأسبل الرجل عينيه . أتراه ودع الدنيا ؟ أتراني حضرت من المدينة الى القاهرة لأراه هذه اللحظة القصيرة ؟ أتراه ودعنى حقا وداع الابد ؟!

عاد الى قلبى خفقاته ، وعادت الى جسمى رجفته ، ولم أشعر ويده لاتزال فى يدى أأثلجها الموت أم أنها لايزال فيها دفء الحياة ! واننى لفى هذه الحال من الحيرة والاضطراب اذ دخل الطبيب الذى عاده وأنا لاأزال بالسويس . فلما رآنى استأذننى وأخذ يد زوجى من يدى ثم وضع أذنه على قلب الرجل ثم قال : البقية فى حياتك ياسيدتى . وانصرف .

رباه ماذا أصنع ! هذا قضاؤك لا مرد له . أأصيح كما تصيح النساء ؟ أأخلع ثياب احرامى لألبس السواد ؟ خنقتنى العبرة وهوى قلبى الى قرار سحيق وحبس صوتى فلم أجد الى الصياح سبيلا . ولقى الطبيب ابنتى صاعدة الى الغرفة التى أنا بها فأسر اليها النبأ الفاجع فدخلت على والدمع يملأ عينيها وقبلتنى وفى نبرات صوتها حزن لم تعرفه يوم مات أبوها . وأقبل ولدى ومعه زوجه وزوج ابنتى واجتمعنا كلنا حول هذا الميت المسجى فى فراشه وأنا لاتنفرج شفتاى عن كلمة ، وان هملت عيناى بالدمع الهتون . وجاء جيراننا يشاركوننا مصابنا فتلقيناهم فى حجرة أخرى .

وخرج ولدى وزوج ابنتى يعـدان لدفن الميت . وذهبت ابنتى وزوج ولدى فلبستا السواد وعادتا . أما أنا فبقيت فى لباس احرامى لان وجيعة قلبى لم تكن بحاجة للباس يعبر عنها ، بل كانت تعبر عن نفسها بأبلغ مما يعبر عنها أى مظهر .

وأى وجيعة لقلب امرأة فى كهولتها أقسى من أن ترى حبهاالذى إكتمل وملأ دمها وأعصابها كما ملأ قلبها يتحطم على صخرة الموت فلا يبقى له فى متاع الحياة أمل أو رجاء .

ودفن زوجى عليه رحمـة الله قبيل المغيب من يوم وفاته . فلمـا ذهبت الى مرقدى بعد أن صليت العشاء الآخرة ذكرت ، ويالهول ماذكرت ، ذكرت يوم رجانى رسول زوجى الاول أن أذهب اليه وهو فى ساعات احتضاره ليسمع منى باذنه أننى سامحته فأبيت . ألا كم كنت قاسية يومئذ ! أو يغفر لى ربى هذه القسوة ؟ وغفوت فاذا الطيف الملتف فى أكفانه ، طيف زوجى الاول ، يتبدى لى قائلا : لا عليك مما صنعت يومئذ . لقد سامحتك كما سامحتنى . فليغفر الله لك ولى . فنامى هادئة مطمئنة .

واستيقظت الصباح بعد غفوة غفوتها بعد صـلاة الفجر . فلمـا تقدم النهـار انتقلت الى بهو الاسـتقبال أتلقى العزاء ممن جئن مواسيات ، فاذا بينهن صديقتى . فلما مال ميزان النهـار وانصرف الناس بقيت هى حتى خلت الى . عند ذلك قالت : « جئتك ياصديقتى معزية فى زوجك الذى اختاره الله اليه أمس ، وفى زوجك الاول ، ولاقسم لك أننى ماكان بينى وبين أيهما الا المودة البريئة الطاهرة أملاها على اعترافى بجميلهما فى استخلاص ميراثى وميراث أبنائى ، وأملاها عليهما شهامتهما ومروءتهما . أما وأنت اليوم وليـة الله الصالحة التى جاورت رسوله الكريم فقد جئت اليك مسـتغفرة عما فرط منى فى حقك ، راجية أن تسامحينى ليغفر الله لى . »

وذكرت لحديثها ما رأيت فى نومى وأنا بمكة حين سعينا معا ، وطفنا معا ، وأقسمنا أن نعود صديقتين كما كنا ، فقصصت عليها رؤياى تلك وتفسير الاستاذ الذى يحاضر الناس فى الحج مغزاها، وكيف أنى طهرت نفسى من كل موجدة عليها ، فعدنا صديقتين كما كنا ، ثم قلت لها : « وأنا ياصديقتى لست ولية الله الصالحة كما تذكرين ، وكما ذكر زوجى أمس وهو فى احتضاره • انما أنا المذنبة التائبة التى ترجو عفو ربها ومغفرته ذنوبها • »

وقامت صديقتى فقبلتنى قبلة شعرت بها صاعدة من أعماق قلبها وقالت : « شكرا لك • والحمد لله أن عدنا صديقتين كما كنا • وانى لشاكرة من كل قلبى أن أكون من جديدصديقةلولية اللّهالصالحة»• وقلت من جديد : « بل للمذنبة التائبة • ولعلنا نلتقى ياصديقتى عما قريب فى بيت الله فنطوف معا ونسعى معا لتصبح رؤياى حقا ، ولتزورى معى مدينة الرسول الكريم وتتبركى بمسجده والصلاة فى روضته • »

وقبلتنى صديقتى من أعماق قلبها قبلة أخرى وقالت : فليسمع الله منك وليهىء لى بفضله حج بيته وزيارة نبيه ورسوله • »

وودعتنى وودعتها وقد امتلأ قلبى حبا لها وعطفا عليها وبرا بها • فلما عدت الى مجلسى بعد انصرافها رفعت كفى أشكر الله على تطهير قلبى وروحى ووجدانى •

وانقضت أيام العزاء • فلما كنا عشية الجمعة الذى تلا الوفاة أوصيت بشراء قدر كبير من الورود وأغصان الشجر ومما يوزع على الفقراء فى المقابر من الطعام • وفى صباح الجمعة صحبنى ولدى وابنتى وزوجاهما الى قبر المتوفى ، وهناك قمنا بمراسم تحيته والدعاء أن يرحمه الله ويغفر له ، ووضعت نصف ما معنا من الورد وأغصان الشجر على قبره ، ووزعت على الفقراء الذين أحاطوا بنا ساعة

خرجنا من عنده نصف ما معنا من طعام ، ثم قلت لولدى : هيا بنا الى قبر أبيكما ، فأقبل ابنى وابنتى يقبلاننى فى لهفة وقد ملأ الدمع أعينهما • وبلغنا مقام القبر ودخلناه وحيينا صاحبه ودعونا الله أن يغفر له ويرحمه • ووضعت الورود وأغصان الشجر على قبره ، ووزعت مابقى معى من طعام على الفقراء • وقبيل خروجنا لم أملك عبرتى ، فقد ذكرت الطيف الملتف فى أكفانه يوم هتف بى أن الله غفر له ولى ، وقلت مناجية ربى : « رب ما أعدلك وما أرحمك وما أعظم فضلك • رب لقد بلوتنى حتى طهر قلبى • رب فاعف عنى ، وسعت رحمتك كل شىء » •

ومن المقابر عدنا الى بيت ولدى • فلما دخلنا بهو الاستقبال وواجهتنى فى صدره صورة زوجى الاول شعرت لمرآها بصدمة لم أكن قط أتوقعها بعد أن كنت منذ قليل على قبره وأديت له واجبه • فقد أثارت هذه الصورة أمام بصرى منظره الكامل فى حياته ، كما رأيت عينيه تنظران الى وكأنما تريدان أن تخترقا شغاف قلبى الى دخيلة ضميرى لتريا فيه الدافع الصحيح لذهابى الى قبره وقيامى بما قمت به عنده • اذ ذاك رأيتنى أضطرب فى موقفى وشعرت بالرعشة تسرى فى جسمى وخيل الى أن ماضى حياتنا يرتسم كاملا أمام بصيرتى • ولم يغننى ماذكرت من صفح هذا الرجل الكريم عنى ، بل تضاءلت نفسى أمام هذه الذكرى ، وبدا لى أن أوهامى تخدعنى وأننى لم أبلغ بعد من طهر القلب والضمير ماحسبت أن الله أكرمنى به وأفاء على من أجله حال الرضا •

وعدت فى المساء الى بيت الزوج الذى أصفيته حبى الى آخر نسمة من حياته ، وتخذت من أصغر حجرة فيه مصلى أخلو بها الى نفسى ساعات وحدتى وأحاسب فيها نفسى بعد صلواتى • وكانت كثيرات من صديقاتى يزرننى يسرين عنى بعض ما أمضنى من عميق شجنى • وكن جميعا يجئن لابسات السواد المألوف فى مصر ، فرأيت

ناصع البياض الذى ألبسه غير متفق مع مظهرهن ، فلبست السواد مثلهن ، وان استبقيت طرحتى البيضاء لصلواتى ، ولأذكر بها أيام سكينة النفس وطمأنينة الضمير • وكان ولدي وابنتي يقضيان معي أوقات فراغهما حتى لاتثقلني الوحدة بهمومها فتزيد اضطراب نفسى ووجيعة قلبى •

وبدا لى بعد زمن أن أعود الى المدينة المنورة لعل فى حياتها ما يخفف عني ويهون على مصابى • لكنى خشيت أن يبلغ ماكان يعاودنى من تخاذل النفس واضطراب الأعصاب مبلغ الخطر على حياتى وأنا فى وحدتى وغربتى • وقد استشرت الطبيب فأقر مخاوفى وأشار بضرورة تريثى ، فأثرت أن أبقى حتى تهدأ ثائرتى وتثوب الى سكينتى ، فاذا ذهبت بعد ذلك الى المدينة استطعت أن أؤدى لله حقه ، وأن أرجو عفوه ومغفرته •

وأقمت فى بيت زوجي أستقبل زائراتى وأستريح الى صحبة ابنى وابنتي • فاذا لم يبق بالمنزل جليس ذهبت الى حجرة خلوتى أؤدى فرائضى وألتمس عون الله فى محنتى • وكنت أحسب أن مر الزمن كفيل بشفاء نفسى من الاضطراب الذى كان يعتادنى • لكنى شعرت بعد لأى بأن نفسى تزداد اضطرابا ، وبأن الارق يتولانى ، وبأن الهواجس تعصف بفؤادى • ثم أننى مالبثت أن استبد بى الفزع حين شعرت بأن صلاتى وخشوعى وتهجدى وقنوتى لم تبق خالصة من الشوائب • فقد جعل زوجى الذى أصفيته كل حبى تبدى لى ذكراه فتنهمل من مآقى عبرات سخينة ، وأذكر ما قلت له حين زارنى بالمدينة من أننى أصبحت أحبه حب امرأة لرجل ، وأحبه بحواسى وبدمى وبأعصابى ، فيزداد دمعى هملانا على حب ملك على كل وجودى ثم أتى عليه الموت حين بلغ عنفوانه ، وقبل أن أستمتع بثمراته •

ولم تكن هذه الذكرى المريرة بعض أحلامى وكفى ، بل كانت غصة يقظتى ، وكانت تساورنى وأنا فى صلاتى • وقد حاولت مغالبتها بالفزع الى ربى كى ينقذنى منها فاذا هى تزداد تمكنا من نفسى وورودا الى خاطرى ، وتبلغ من ذلك أن تخرجنى من صلاتى فأستغفر ربى ثم أعود الى الصلاة فلا يلبث شيطان الذكرى أن يثير أشجانى ويفسد من جديد صلاتى •

ذكرت وأنا فى هذا المضطرب النفسى ماكنت قطعته لزوجى من عهد أن أعود معه الى مصر بعد زيارة رجب لنستمتع بهذا الحب الذى استوفى كماله ، وكيف اضطررت الى العودة قبل هذا الموعد بأيام لأشهد احتضاره ولأودعه الوداع الاخير • ترى لو أن الله قد غفر لى حقا وكانت الرؤى التى رأيتها شاهدة بهذه المغفرة صادقة ، أفكان الله يمتحننى هذا الامتحان القاسى الذى لايصبر عليه قلب انسان ، أم أن تلك الرؤى كانت من أفانين الخيال ، وأن هذا المصاب الذى حل بى كان بعض الجزاء الذى ادخره القدر لى عن ماضى حياتى ؟ •

وكنت أزداد كل يوم شعورا بالوحدة والعزلة ، وبأننى لم يبق لى فى هذا العالم صديق أو أنيس بعد أن فقدت هذا الصديق الانيس والزوج الحبيب • ولم يدر بخلدى فى هذه الساعات التى كوت لواعج الحزن فيها شغاف قلبى أن الله وهبنى ابناوابنةيؤنسان وحدتى ويضمدان جراح قلبى ، بل كدت أنسى هذين الولدين اللذين أراهما كل يوم ، وأنسى أنهما بضعة منى وأنهما امتداد حياتى •

وكذلك كان شعورى بالفاجعة يزداد عنفا على الأيام حتى لقد كنت فى كثير من الاحيان أقضى الليل مسهدة محزونة ، فاذا أوشك الليل أن يولى ، غفوت وطالت غفوتى فلم أستيقظ لصلاة الفجر ، ثم لم يسعفنى أن أستغفر عما فرط منى ، لأننى كنت لا أكاد أتم استغفارى حتى أعود الى بثى وحزنى ، وأندب ماقضى عليه الموت

من حبى ، وأعود على نفسى باللائمـــة أن لم أعد مع زوجى من المدينة المنورة الى مصر يوم دعانى للعودة معه ، لأمتع هذا الحب بما يشفى غلته خلال الاشهر الخمسة التى عشتها بعيدة عن هــذا الحبيب • ومن يدرى ؟ فلعلى لو صحبته يومئذ وعدت معه لما دهمه الموت مستعجلا ، ولكنت قد بعثت اليه من حيويتى وحياتى ماأطال فى حياته وحفظه لى •

وكانت تقواى تعاودنى فأحاول التغلب على هذه الحال ، فكنت أمرغ وجهى فى التراب لعل روحى تطهر بتعذيب جسمى،وكنت أصوم الايام المتعاقبة راجية أن يعيد الى الصوم طمأنينة النفس ، وكنت أهرع الى البؤســـاء والمساكين الذين يقفون على أبــواب المساجد أستجديهم كلمة عطف لعل الله يغفر لى ، ثم كنت بعد كل ماأصنع من ذلك أشعر بنزغ الشيطان وكأنما يقول : « وماذا أفدت من تقواك ومن صلواتك وقنوتك وعبادتك الا أن قضيت على الرجل الذى كان يحبــك حب العبادة ! عودى الى صــوابك وفكرى لغدك أكثر مما تفكرين فى أمسك • ولعــل الحظ الذى أتاح لك من أنقذك من وخدتك يوم طلقك زوجك الاول يمـــد اليك يده مرة أخرى ويهيىء لك من ينقذك من شــجنك ، ومن هموم كهولتك • »

ولقد سخرت من نفسى حين نزغ الشيطان لى ونظرت معذلك الى وجهى فى المرآة فرأيتنى ولا تزال فى عينى جاذبية شبابى ، وان خطت الكهولة على جبينى بعض سطورها•وسرعان ماستعذت بالله من الشيطان ونزغه ، وهتفت به جل شأنه ضارعة اليــه أن ينقذنى من شر نفسى وأن يهدينى سواء السبيل •

واننى لتساورنى هذه الهواجس وتعبث بى هذه الهموم اذ جاء الى ولدى ذات صباح مقطب الجبين يذكر لى أن أخته تركت بيت

زوجها وجاءت الى بيته تقيم به ، وأنه حاول أن يعيد الصفاء بين الزوجين فلم تفلح محاولته ، وأن هذه لم تكن أول مرة اشـــتد الخلاف فيها بينهما ، وأنه يلجأ الى لأتدبر الامر بحكمتى بعد أن تولاه اليـــأس منه ، وبعد أن خشى أن يؤدى الى نتائج لاتحمد عاقبتها •

وتولتنى الدهشة لما سمعت • فقد كنت مقتنعة الى يومئذ بأن مادار من حديث بينى وبين ابنتى حين زارتنى مع عمها بالمدينة قد ردها الى صوابها ، وأن ماقلته لها عن ذكاء الأنوثة وسلطانه القاهر قد مكنها من التغلب على نزواتها ونزوات زوجها • وكان مصدر اقتناعى هذا أن ماكان يرد لى من خطابات خلال الاشهر الخمسة التى كنت فيها بعيدة عنهم لم يرد فيه شىء يزعزع هذا الاقتناع ، بل كانت كلها تتحدث عن هنـــاءتهم وسعادتهم فى انتظار عودتى اليهم • أفجد بعد عودتى الى مصر جديد أثار منازعات الزوجين؟ وهل يحدث مثل ذلك ونحن نعالج همنا ونحاول أن نداوى مصابنا؟

وأطرقت برهة أفكر فى الامر وكيف أتدبره • وفجأة انحدرت من عينى دمعة لخاطر مر بخيالى • أو لم تكفنى وفاة زوجى عقابا لى على ما سلف من أوزارى ، أم يريد القدر أن يضاعف عقوبتى فى شخص ابنتى ؟ أين اذن ماكان من توبتى واستغفارى ؟ لست أنا اذن ولية الله الصالحة • بل لست اذن المذنبة التائبـــة ، فها هى ذى توبتى لم تقبل ، وهأنذا أواجه من قسوة القدر مالاقبل لى به، ولا طاقة لى باحتماله •

وبصر بى ولدى والدمعة تنحدر من عينى فزايل جبينه قطوبه وأقبل على يواسينى ويخفف الهم عنى • ورفعت عينى اليه ونظرت الى وجهه فاذا الطيبة بكامل معناها مرتسمة على أساريره ، طيبة أبيه زوجى الأول ، واذا هو يقول لى : لاتجزعى ياأماه •سأبذل

لراحة أختي كل ماأستطيع بذله • واذا لم يكن الى مصالحتها مع زوجها من سبيل فسأحمل عبء حياتها لتعيش كريمة ماحييت وما استطعت الى ذلك سبيلا • »

وقبلته وقد ازداد تأثرى لمشابهته أباه فى طينته ، كمشابهته اياه فى ملامحه • ألا كم جنيت عليه وعلى أخته بانفصالى عن أبيهما بعد أن بذل فى سبيل رضاى كل مايستطيع انسان بذله • وبعد هنيهة قلت له : « عد الى منزلك وسألحقك به عما قريب • »

وانصرف الشاب وذهبت أنا الى خلوتى أصلى بها ركعتين لعل الله يهدينى الرشاد فى أمر ابنتى • وما كدت أتم صلاتى حتى امتلأت عيناى بالدمع مرة أخرى ، اذ خيل الى أن شواظا من جهنم قد سلط على ضميرى يعذبه ، وأن هذا الشواظ قد صور فى شخص ابنتى ، واننى لن يهدأ لى بعد اليوم بال ولن تطمئن لى نفس لاننى عذبت أباها ، فحق على أن أوفى جزاء ما قدمت يداى فأتعذب لعذابها ، وأتألم لالمها • وعبثا حاولت أن أطرد هذا الهاجس الذى استبد بى زمنا لم أدر أطال أم قصر • ولولا أننى خشيت أن يطول على ولدى غيابى لامسكنى هذا الهاجس فلم أستطع من خلوتى حراكا • لهذا قمت وارتديت ملابس خروجى وذهبت الى منزل ولدى •

ودخلت على أهله فألفيت زوج ولدى تحدث ابنتى فى رفق تحاول اقناعها بالعود الى زوجها • وجلست اليهم وسألت ابنتى ماأغضبها • قالت وفى نبرة صوتها حدة لم آلفها يوم تحدثت اليها وأنا بالمدينة المنورة لأعيد الصفاء بينها وبين زوجها : « لم يبق ياأماه فى قوس صبرى منزع ، ولم يبق من انفصالى عن زوجى مفر • لقد كنت أشكو من قبل تدخله فى أخص شئونى • وقد استطعت بفضل نصائحك أن أتغلب على ذلك بتمليق غروره تارة وبالتظاهر بموافقته أخرى • أما اليوم فالامر مختلف • لقد تمكنت

الغيرة من نفسه على نحو يشبه الجنون . وهو لايغار من رجل بذاته، بل يغار من كل رجل يتجه الى نظره . وان له لصديقا يزورنا بين الحين والحين ويجاملني بالثناء على ثوبي ، أو يبدي الاعجاب بحسن حديثي . فاذا انصرف رأيت زوجي انقلب شيطانا يحاسبني على كل كلمة قالها صديقه . وقلت له حين تكرر ذلك منه : « اذا جاء صاحبك هذا الى هنا فلا تدعني لألقاه حتى لاتثور غيرتك » . وكان جوابه : « وماذا تريدينه أن يقول عني ؟ أتريدين أن يتهمني بالتأخر . . لكن واجبك ألا تتزيني زينة تثير اعجابه ولا تتحدثي حديثا يستدعي طول انصاته » . وأجبته الى ماأراد ، فلما جاء صديقه يوما ودعاني هو الى مجلسهما ذهبت اليه في ثياب أشبه ما تكون بثياب المنزل ، ولم أزد في الحديث على أن أجيب بايجاز عماأسأل عنه . ولم يزد صديقه أثناء ذلك على أن جاملني بكلمات من مألوف القول . ومع ذلك اشتد زوجي في تأنيبي على اهمال ثوبي ، ثم اتهمني بأني أردت بثوبي وبحديثي المقتضب أن أثير عجب صديقه بدل أن أثير اعجابه . وليس هذا يا أماه الا مثلا مما يدور بيننا كل يوم . أترين حياة كهذه يمكن أن تطاق ؟ أوليس انفصالنا خيرا من الصبر عليها أو انتظار ما هو شر منها ! .

دار بخاطري وأنا أسمع حديث ابنتي أن القدر ينتقم في شخصها من مثل غيرتي حين كنت ألوم أباها على العناية بصديقتي . أفقدر لهذه المسكينة أن ترث كل حظي ، وأن تعاني في حياتها ماعانيت في حياتي ؟ أفحق أن الآباء يأكلون الحصرم والابناء يضرسون ؟ وهل تجمع هذه العبارة القديمة في ألفاظها القليلة ، قوانين الوراثة التي تحدثنا الكتب الحديثة عنها ؟ مهما يكن من أمر فمن واجبي اليوم أن أعالج ماحدث بين ابنتي وزوجها ، فان نجحت فذلك ماأرجو ، وان لم أنجح فمن حسن حظ ابنتي أنها لم تنجب بعد ،

فهى لذلك غير معرضة فى مستقبل حيــاتها لما تعرضت وأتعرض له من تبعات تثقل الضمير وتبعث الى النفس الاسى والشجن •

أتمت ابنتى كلامها فقلت : أريد قبل أن أحكم لك أو عليك أن أسمع كلام زوجك لاكون أدنى الى العدل بينكما • فدعينــا أنت الآن واذهب يابنى فأدع زوج أختك الى هنا وقل له اننى أريدأن أتحدث اليه • ولم يبطىء ولدى فى العود مع زوج أختــه ، فهما يسكنان عمارة واحدة •وحيانيالشاب تحية حسنة وان بدا الجد على وجهه • فلما اطمأن به المجلس قلت له : أنت يابنى شــــاب حصيف عاقل ، وابنتى فى عصمتك ، فأنت الذى تعصمها منخطئها اذا أخطأت ، وأنت الذى تعصمها من الغير اذا حاول الغيرأنيسىء اليها ، وأنت كذلك الذى تعصمها من غضبك اذا بلغ هذا الغضب أن يعرضكما لسوء • فكيف ـ وذلك مكانك منها ـ يبلغ النفــور بينكما مبلغا لم يستطع زوجى عليه رحمة الله فى وقت من الاوقات أن يتغلب عليه ، ولم يستطع ولدى أخيرا أن يصلح منه ؟ انى ألجــأ يابنى الى حكمتك وحسن رأيك ، فان تكن زوجك مخطئة عاونتك عليها ورددتها الى صوابها •

أمسك الشاب برهة عن الكلام وكأنه يريد أن يبحث فىذاكرته عنتهمةيلصقها بزوجه • وأحسبهلم يجد شيئا معينا يذكره ،فاندفع يقول : اسمعى ياأماه ! يجب أن تعلمى أننى رجل شديد الغيرة • وفى ابنتك جاذبية شديدة أحببتها من أجلها لاول مارأيتها ، ولا أزال أحبها من أجلها أشد الحب وأعنفه • لكن هذهالجاذبيةتجعل غيرى من الرجال يحاولون التقرب منهــا ، بل التمسح بها • أنا أعلم أنها لا ذنب لها فى ذلك ، فجاذبيتها بعض خلقها • لكن هذا التقرب يثير غيرتى الى أبعد حد ، ويدعو الى مايقع بينى وبينها من خلاف • وقد خيل اليها أنانفصالنا بالطلاق هو الدواءلماأشكومنه• وأنت تقدرين أن ذلك أسخف الرأى ، وأنه وهم باطل • فحبى

اياها سبب غيرتى عليها • ولولا هذا الحب العنيف لهان على أن أنفصل عنها • فهل لديك لهذا الموقف الشاذ دواء ؟

وسارعت الى اجابته بقولى : نعم يابنى • الدواء الناجع أن تنجبا أطفالا تشغل أنت وتشغل أمهم بهم ، فيقسم حبك بينها وبينهم وتخف بذلك غيرتك عليها ، وتتجه جاذبيتها اليهم فتقل عناية الرجال بالتقرب اليها •

ونظر الى الشاب فى دهشة وكأنما خيل اليه أنى أمزح معه أو أسخر منه وقال : « هذا اقتراح مفيد لعلاج طويل الأجل • وهو كذلك اذا افترضنا أن انجاب الاطفال رهن مشيئتنا • انما أريد دواء سريع المفعول للتغلب على الموقف الذى نقفه اليوم • ومحال أن يكون الانفصال بالطلاق هو هذا الدواء • فانا أحب زوجتى ولن أتيح لغيرى فرصة الاستيلاء عليها برد حريتها اليها• وأنت ياأماه سيدة مجربة تعرفين مالانعرف ، وتستطيعين أن تصفى الدواء السريع المفعول ، فنحن فى أشد الحاجة اليوم اليه •»

قلت : « هذا الدواء فى يدك ياولدى • وابنتى طوع بنانك اذا عالجتها وعالجت نفسك به • ذلك أن تجعل الحكم فى غيرتك لعقلك لا لهواك • ولو أنك فعلت لأدركت أنك تبالغ فى لوم زوجك على ذنب تعترف أنت بأنها لم تجنه ، ثم لأدركت أن القدر وهبك سعادة تريد أنت أن تدس اليها السم بدل أن تستمتع بها صافية سلسبيلا • أنت تلوم زوجك بل تؤنبها بل تعاقبها لان الرجال يملقونها أو ينظرون اليها مفتونين بجاذبية أسبغها عليها بارئها ، وأنت مع ذلك تعلم أن هذه الجاذبية فى ملكك أنت • أنت وحدك الذى تستمتع بها نهارك وليلك، فى يقظتك وفى أحلام نومك ،وأن نصيب غيرك منها لايزيد على غبطتهم اياك أو حسدهم لك عليها• أنت كمن يملك قصرا منيفا يقف عنده من يمرون به ويتمنون أن

يكون لهم مثله ، وهم لا يملكون الى ذلك الوسيلة . أفتلوم أنت هذا القصر وتحاول هدمه ؟ أم تزداد اعتزازا به وحمدا لله على أن جعله لك ؟ هذا الا أن تتهم زوجك فى وفائها أو فى عفافها ، وذلك ماأعيذك وأعيذها بالله منه . فان يكن ذلك ورددت الامر الى حكم عقلك ولم ترخ فيه العنان لهواك استرحت وأرحت زوجك وهيأت خير مكان للسعادة من بيتك . هذا دوائى الذى أقترحه أملته على تجربة قاسية أود ألا تعصف بحبكما تجربة مثلها » .

وأطرق زوج ابنتى هنيهة ثم قال : « ان منطقك دقيق ياأماه . وسأحاول جهدى أن أغالب غيرتى . لكنى بحاجة الى معاونة زوجى فى هذه المحاولة » .

قلت : « فعد الى يابنى ساعة الشاى ، واننى لعظيمة الرجاء أن تعود الحياة الزوجية بينكما مصدر هناء وسعادة . »

ودعوت ابنتى بعد انصرافه وطالعتها بكل مادار بينى وبين زوجها وأعدت عليها ماذكرته لها حين زارتنى بالمدينة عن ذكاء الأنوثة وسلطانها . قالت : « أؤكد لك ياأماه أنى أجهدت هذا الذكاء وابتكرت لزوجى من حيله ماكدت أضيق ذرعا به . ألم أقل لك ونحن بالمدينة أن الرجل اذا بلغ حبه المرأة حد العبادة لم يكفه أن يملك منها قلبها وعقلها وذوقها وكل شىء فى وجودها ، وأن غيرته عليها تشوبها عند ذلك وحشية تخرج بالرجل عن منطق العقل وعن منطق القلب الى حال أقرب ماتكون الى الجنون؟ فكيف ترينني قادرة على معاونة زوجى كى يتغلب على جنون حبه ؟ » .

قلت : « هبى ياابنتى هذه الحال مرضا ، أو ليس واجبا على الزوجة أن تسهر على زوجها اذا مرض حتى يشفى ؟ وقد وصفت أنا الدواء واقتنع بفائدته اذا أنت عاونته بذكاء أنوثتك على الاستفادة منه . فحاولى مرة أخرى لعل هذه المحاولة تكون موفقة . فاذا

جاء ساعة الشاى فعودى معه الى بيتك كأن لم يكن بينكما شيء .
وسأدعو لكما الله من كل قلبى أن يهديكما ويوفق بينكما » .

وكذلك كان . جاء زوجها ساعة الشاى وتحادثنا كأن لم يكن شيء ثم عادا بعد الشاى الى مسكنهما وعدت أنا الى بيت زوجى فأويت فيه الى خلوتى ودعوت الله من كل قلبى أن يرزق ابنتى أطفالا تسعد ويسعد زوجها بهم ويشغلونهما عن منازعاتهما بما يبعثون الى حياتهما من روح الأبوة والأمومة ومن عواطف الحنان والمحبة والرحمة . وتفتح قلبى أثر هذا الدعاء ورجوت الله مخلصة أن يحققه، ففيه لى كذلك عزاء وسلوى اذ يعود الاطفال بنا معشر الجدات الى أيام طفولتنا وشبابنا ويبعثون الى حياتنا من براءة طفولتهم ماينبت على أغصان كهولتنا التى كادت تجف وتذوى أوراقا جديدة تبتعث حيويتنا الى نشاط كادت تنساه ، وكادت لذلك تنظر الى المستقبل بعين زايلها كل أمل أو رجاء ، لان المستقبل يصبح فى نظرها المنحدر الذى يهوى بنا الى الفناء .

والحق أننى لم أكن أمزح مع زوج ابنتى ولا كنت أسخر منه حين قلت له انه ان أنجب هو وزوجه أطفالا شغل هو بهم عن غيرته ، وشغلت هى بهم عن تمليق الرجال جاذبيتها ، وظل ذلك دأبهما سنوات عدة حتى يكبر الاطفال . وفى هذه السنوات يصبح هو أقل غيرة ، وتشغل زوجه عن نفسها بأبنائها ، وتتغير حياة الاسرة كلها تغيرا أرجو أن يفيء عليها الرضا والطمأنينة .

وانتقلت من حجرة خلوتى الى غرفة نومى . فلما دخلت سريرى وأطفأت الانوار ذكرتنى غيرة زوج ابنتى بما كان من غيرتى أيام شبابى ، وما كان لهذه الغيرة من أثر فى حياتى ، وما أدت اليه من انفصالى بالطلاق عن زوجى ، وأن طفولة ولدينا لم تمنع يومئذ الانفصال ولم تشغلنى عن هذه الغيرة . على أننى دفعت

ما أثارته هذه الذكرى من مخاوفى بأن غيرة المرأة ليست كغيرة الرجل • حسب الرجل من المرأة أن يؤمن بوفائها له ومحافظتها على عهده ليطمئن قلبه ، وليستريح الى أن مجاملة الرجال لامرأته بالثناء عليها ، بل بتمليق مزاياها ومواهبها ، لا أثر لهما فى وفائها واخلاصها له ولأسرتهما • أما غيرة المرأة فمرجعها الى أن الرجال لا وفاء لهم الا ماندر ، لان تعدد النساء فى طبعهم ، ولان عدم وفائهم لايدخل على أسرتهم من ليس منها • فمن حق المرأة أن تكون دائمة اليقظة دفاعا عن نفسها ، ولها عذرها ان دفعتها الغيرة الى مثل مادفعتنى اليه ، مع ما فى ذلك من مضرة بها وبأبنائها • وأقنعتنى هذه الحجة بأن ابنتى ليست معرضة لمثل مصيرى ما وفت هى لزوجها ، فاطمأننت لهذا المنطق وذهبت بى الطمأنينة الى عالم النوم •

تنصف شهر شعبان فأديت لزوجى واجبه ، فذهبت الى قبره ووضعت عليه الورود وأغصان الشجر وتلا قارىء القرآن هناك ماتيسر منه ووزعت الطعام على الفقراء وعدت الى بيتى ولا يزال أثر البكاء فى عينى • وفى الايام الباقية من هذا الشهر أخذت أعد لسهرة رمضان وأفكر فى نظام حياتى بعد نهايته •

وكان هذا التفكير فى سهرة رمضان جديدا على • فلم يعتد زوجى ــ ولا أعتاد زوجى الاول قبله ــ احياء هذه السهرة • ولا اخالنى كنت أفكر فى احيائها لولا ماعاودنى من تقوى صباى مما دفعنى بعد ذلك للحج وللمقام بالمدينة ، ولولا وفاة زوجى وفاة حزت فى كبدى • فلما بدأ رمضان ، وأخذت القارئة التى اخترتها ترتل القرآن بصوتها الرخيم ، شعرت لسماعه بطمأنينة النفس الى قضاء الله وقدره ، وازددت يقينا بمغفرة الله للتائب الذى صدقت توبته وانابته ، وان أيقنت كذلك بأن التوبة الصادقة

تقتضى صاحبها التكفير عن خطاياه بصدق الندم عليها ، والايمان بأن ما أصابه وما يصيبه من جرائها ليس الا الجزاء العدل عنها جزاء يجب أن نتقبله شاكرين •

وقضيت رمضان فى العبادة والتهجد • أقوم الليل ، فاذا تناولت طعام السحر وصليت الفجر أويت الى مضجعى لاستيقظ لصلاة الظهر أو للجمع بين الظهر والعصر ، وقبيل المغرب تجىء القارئة تتلو ماتيسر من القرآن • فاذا غابت الشمس صليت ثم أفطرت ثم صليت العشاء وبدأت السهرة فجاءنى بعض صديقاتى وزارنى أبنائى وأقمنا نستمع للقرآن ونتداول الحديث حتى اذا انصرفوا قبيل موعد السحر أقمت أتحدث مع القارئة حتى نتناول طعام السحر معا ، ثم ذهبت الى حجرة خلوتى وأقمت بها حتى أصلى الفجر لأذهب بعد الصلاة الى مضجعى •

وانقضى رمضان وأديت فى فترة العيد واجباته لزوجى ولزوجى الاول ، فذهبت الى قبريهما ومعى أولادى ، وهناك قمنا بالمراسم المألوفة فى هذه المواسم •

وأخذت أفكر فى المستقبل القريب وما أصنع فيه • ذلك أننى جال بخاطرى غير مرة أثناء رمضان أن أحج البيت وأهب حجى لزوجى لعل الله يغفر له ، وأن أحج العام الذى يليه وأهب حجى لزوجى الاول عسى الله أن يرحمه • واننى لكذلك اذ تناولت مع البريد رسالة فضضتها فتولتنى الدهشة وأخذ منى العجب • فهى مكتوبة بالالمانية • ونظرت فى التوقيع فاذا هى من زوج السفير الالمانى الذى عرفت منذ أكثر من عشرين سنة ، والتى اعتزت يوما بمركزها وجنسيتها فنال ذلك من كبريائى ومن قوميتى ، فأتقنت الالمانية وقرأت أمهات أدبها حتى لاتزعم أنها خير منى فى المجتمع مكانا • وابتسمت لهذه الذكرى ، ذكرى الشباب وكبريائه

وغروره ، وتلوت الرسالة فاذا صاحبتها تذكر سابق معرفتنا ، وأنها جاءت الى القاهرة اثر وفاة زوجها تتسلى عن شجنها بذكريات سعيدة نعمت بها فى عاصمة مصر مع ذلك الزوج الذى كان يحبها من كل قلبه ، وتطلب الى أن نلتقى فى الموعد الذى أحدده لنجدد بالتقائنا عهدا تنافسنا فيه ثم تصافينا ولم يطرأ بعد ذلك على صفائنا مايشوبه .

وابتسمت بعد أن فرغت من تلاوة الرسالة . فقد أثارت أمام خاطرى عهد الشباب ونضارته ، ورسمت أمام كهولتى تلك المرأة الشابة الجذابة الساحرة الحديث التى كنتها ، والتى أثارت اعجاب المعجبين وتمليق المملقين ، وذكرتنى لغة الخطاب بذلك الألمانى الذى عرفت فى الاقصر ، والذى زارنى بعد ذلك فى القاهرة ، بعد أن بلغ اعجابه بى أن قال انه يرانى على الارض كما يرى الله فى السماء . ألا ماأجمل الشباب وبراءة غروره . ما أجمل تلك الايام التى يشعر الانسان فيها بأنه محور الوجود ، وأن كل مافى الكون يتجه بنظره نحوه ويتحدث اليه ، بل ماأجمل أخطاء الشباب وخطاياه وأوزاره ! انها مصدر سعادتنا فى شبابنا ، والتكفير عنها والتوبة منها مصدر نعيمنا فى كهولتنا . ترى لو أن الشباب لم يندفع مع غروره الى الخطأ والى الخطيئة فهل تكون الكهولة وهل تكون الشيخوخة الا فراغا ثقيلا لا معنى له الا أنه غرفة انتظار للأجل المحتوم .

ترى كيف حال هذه السيدة الالمانية زوج السفير الذى سبقها الى العالم الآخر ؟ ألا تزال فيها بقية من ذلك الجمال الذى كانت تتيه به ، وتلك الكبرياء القومية التى كانت تدفعها الى التعالى على الناس ؟! .. ومالى أسأل نفسى عن ذلك وحسبى – لأراه رأى العين – أن أضرب لها موعدا كما طلبت فى كتابها . وعندئذ يصبح

الخبر خبرا ، اذ أراها وأتحدث اليها وأذكر معها عهدا سعدت به ثم شقيت ، ونعمت به ثم استغفرت الله عنه •

وكتبت اليها أدعوها لتناول الشاى معى فى يوم قريب عينته • وجاءت لموعدى فكدت أنكرها لاول ما رأيتها • لقد ابيض شعرها وتجعد وجهها ، وأطفأ منظارها الازرق بريق عينيها ، وأثقلت سمنتها جسمها ، وبدت وكأنها تكبرنى بأكثر من عشرين سنة • وحمدت الله حين رأيتها لما أنعم به على ثم أخذت أحدثها عن سالف أيامنا وفتوة شبابنا ، فتنهدت ثم قالت : «وارحمتاه لذلك العهدالسعيد ! لم أكن أصدق ماقيل من أن مصرية فى عهد الفراعنة كتبت على قبر ولدها : « من انتهك حرمة هذا القبر فليكن آخر من يموت ممن يحبهم » ، وكنت أحسب أن الحياة لذاتها أحب الينا من كل من نحب • لكنى رأيت أمى وأبى واخوتى وأعز صديقاتى وأصدقائى يتهاوون الى قبورهم كما تهوى ريح الخريف بورق الشجر الى الارض ، فكنت أشعر لكل صدمة بجانب من نياط قلبى ينقطع ، وبنفسى تساقط أنفسا ، وبحيويتى يغيض معينها وكأنما يذهب جزء منها مع كل واحد منهم الى مثواه الاخير • فلما مات زوجى العام الماضى كانت الضربة القاضية ، حتى لقد شعرت بأن حياتى كلها تذبل وتذوى ، وأننى أصبحت كالشجرة التى سقط عنها كل ورقها ، وانحدر منها ماء حياتها ، فهى تجف وتجف لتسقط مع أول ريح تعصف بها • وقد جمعت كل قوتى لأقاوم أحزانى ومصائبى ، وجئت الى هنا ألتمس فى الذكريات السعيدة الماضية مايزيد فى هذه القوة لأتمكن من مغالبة الحياة والتغلب على همومها • أترانى أنجح فيما قصدت اليه ؟ أم أن لعنة هذه المصرية القديمة ستحل بى بعد موت أحبتى وسيكون مابقى من حياتى بعدهم أنشودة بؤس وشجن •

قلت : « لاتذهب نفسك حسرات على الماضين ياصديقتى ، وليكن لك فى ايمانك بالله وعفوه ومغفرته لك ولهم ماتتسلين به عن همك وشجنك • »

قالت : « ليتنى عرفت الايمان ياصديقتى فى شبابى لألجأ اليه اليوم ! أما ولم أعرفه اذ ذاك فاننى أخجل من نفسى أن أستعيره اليوم لأجعل منه وسيلة سلواى وعزائى • ولو فعلت فمنذا أخدع ؟ أأخدع رب السماوات،والمؤمنون يذكرون أنه يعلم السر وأخفى ! أم أخدع نفسى وأتخذ من هذه العارية علالة أعالج بها سقم حياتى كما يخدع الطفل باللعبة يقدمها اليه أهله ليتسلى بها عن مرضه أو عن ألمه » •

لم أدر بم أجيبها فصمت برهة جالت بخاطرى أثناءها حكمة لقاسم أمين : « أتعس البرية انسان ضاع ايمانه يدس الموت بسمه فى حياته فيفسد عليه لذتها وينغص عليه شهوتها » • ودعانى تذكر هذه الكلمة للعدول بالحديث الى أمور لاتثير نفسها ، فسألتها كيف تريد أن تقضى اقامتها فى مصر • وأجابتنى أنها تريد أن تقضى ستة أسابيع بأسوان ، وأنها كانت تود لو نصطحب فى هذه الرحلة • واعتذرت بأن عاداتنا القومية لاتجيز لحزينة مثلى أن تغادر المدينة التى تقيم بها الا أن تذهب لأداء فريضة دينية • عند ذلك سألتنى عن ولدى وما صارا اليه فذكرت لها أنهما تزوجا • قالت : « أسعدك الله بهما • وكم أتمنى اليوم لو كانت لى ابنة تجعل المستقبل أملا أرجوه ، وتكون لى فى هذا الحاضر عزاء وأنسا • لقد كنت صدر شبابى أعجب لبنات وطنك كيف يحز فى كبدهن ألا ينجبن ، وكنت أسائل نفسى ما لهن يردن أن يحملن فى الحياة أعباء ما أغناهن عن حملها • وكان عجبى يزداد حين أسمع الآباء يذكرون أن الطبيعة تقتضيهم أرباحا باهظة عن دينهم لآبائهم ، اذ يكفل الواحد منهم عدة أبناء وينفق على كل ابن وابنة أضعاف

ما أنفق عليه أبوه ليكون خيرا منه في المجتمع مكانا • أما اليوم فانى أشعر بالحزن أن لا ولدلى كشعورى بالحزن لفقد زوجى • لقد أظلم ماضى بموت زوجى والاحبة من أهلى وأصدقائى ، وأظلم مستقبلى لاننى لا أرى فيه طفلا يمت الى أحشائى وتبعث براءة ابتسامته الى نفسى أجمل الرجاء فى أن أسعد بسعادته • لم يبق لى اذن ماض ولا حاضر ، ولم يبق لى الا أن أجاهد الحياة بعزيمتى المفردة مابقيت • وسأجاهدها وسألتمس فى ظلمائها قبسا من نور لا أدرى كيف أجده ، ولكننى موقنة بأن العزم القوى الصادق قدير على كل شيء ، بل قدير على المستحيل • »

لا أريد أن أقص هنا مادار بينى وبين صاحبتى من حديث عن ذكريات شبابنا ، فالحديث فى أيام الكهولة عن ذكريات الشباب يوجب الحسرة • وحسبى ـ وأنا موشكة أن أختم قصتى ـ ماسطرت فيها مما أثار ألمى وتندى له جبينى • ثم حسبى أن أذكر أنى زرت صاحبتى هذه وزارتنى من بعد غير مرة ، وأنى رأيتها رغم صلابة عزمها فى مجالدة الحياة ، تضعف أحيانا حتى تنحدر الدموع من عينيها حين تذكر أحبتها وحين تذكر زوجها وحين تذكر عقمها • وكم قبلت بعد كل زورة من هذه الزورات ظاهر يدى وباطنها شكرا لله على ما أنعم به على من ولد ، وما أبقى لى فى كهولتى من صحة وحيوية لاتخجلان حين يذكر الشباب • أما الأحبة الذين انحدروا الى ظلمات القبور فهم السابقون ونحن اللاحقون ، وشكرا لله أن أنعم على فى صباى وكهولتى بنعمة التقوى والايمان لاستغفر لهم الله ولأتوب اليه لعله يشملهم ويشملنى برحمته •

وكم أدخلت هذه المقارنة بين حظى وحظ هذه الالمانية من الطمأنينة الى نفسى وذكرتنى بأن متاعب الحياة ومصائبها لاتحصى ،

فحق علينا أن نحمد الله كلما رأينا حظنا من ذلك خيرا من حظ غيرنا •

وذكرت لى الالمانية حين زارتنى للمرة الاخيرة أنها مسافرة الى أسوان بعد ثلاثة أيام بقطار عربات النوم • وذهبت اليها قبيل الغروب من يوم سفرها أودعها فرأيتها فى بهو الفندق الذى تقيم به ، فندق سميراميس ، ورأيت معها رجلا يتحدث اليها وكأن بينهما معرفة قديمة • فلما اقتربت منهما قام الرجل فاقبل نحوى مبتسما وهو يقول : هذا أنت ! •• وحدقت به فاذا هو الالمانى الذى عرفت بالاقصر منذ أكثر من عشرين سنة ، ولا تزال تبدو عليه مع ذلك مخايل الفتوة ، رغم بياض فوديه وبياض شعرات فى شاربه وحاجبيه • واغتبطت لمرآه وذكرت اعجابه بى كما ذكرت الهدية التى قدمها لى من صنع يده ، وابتسمت حين حييته وقلت : « ألا ترى أن العالم ضيق الرقعة وأن الزمن سريع الدوران » • قال وهو يبتسم كذلك : « كما أرى أن كهولتك لاتقل جاذبية عن شبابك • ألا تسافرين الليلة مع السفيرة ؟ أنا مسافر فى القطار الذى تسافر به ، ولكنى سأغادره بالاقصر أقضى بها أياما أستعيد بها أسعد ذكرياتى قبل أن أذهب الى أسوان » • وأجبته : «أمتعكما الله بالسلامة • أما أنا فانى أعد منذ الآن عدتى للسفر الى الحجاز»

وجلست معه الى السفيرة فأخذنا نتجاذب أطراف الحديث ونذكر خلاله ما بالأقصر من روائع الفن الفرعونى • وفيما نتحدث سمعنا ضجة اعجاب فى شرفة الفندق فأسرع الالمانى يرى سببها ثم نادانا قائلا : «هلما ! ان مغرب الشمس اليوم بديع • وهى تلقى من أشعتها على صفحة النيل وعلى أشجار الجزيرة مايحيلهما سحرا رائعا » • وقعنا فى بطء ، السفيرة لسمنتها وشيخوختها ، وأنا لزهدى وتقواى • لكنا مالبثنا حين رأينا هذا المنظر البديع أن وقفنا نستمتع بروعة جماله فى مثل حماسة الشباب ، وكأنا لم نر من قبل

مثله ، على كثرة ماتنعم به مصر من مغارب الشمس الرائعة • فلما آن للشفق أن يولى ، وللليل أن يسحب على هذا المنظر البديع رداءه، بدأ الناس يعودون الى مجالسهم ، وبدأت أستدير لأدخل بهو الفندق من جديد • لكنني شعرت بيد ناعمة على كتفي فنظرت فاذا صاحبتها صديقتي • وما لبثت حين استدرت اليها أحييها أن قالت :

« أنت هنا ! ذلك مالم أكن أصدقه » • على أنها رأت صديقنا الالمانى مقبلا نحونا وسرعان ماعرفته وقالت : الآن فهمت ! وسألتها : ماذا فهمت ؟ ولم تجب • ولم يذكر الالمانى شيئا عن سحر عينيها وكأنه لم يفتن بهما فى شبابها ، فسرنى ذلك منه واعتبرته خير جواب على سوء ظنها • وجاءت السفيرة بخطاها المتاقلة فقدمت اليها صديقتي ثم قلت : أخشى أن يحول وجودى دون القائك النظرة الاخيرة على متاع سفرك • ووجهت الكلام الى صديقتي قائلة :

« لقد جئت أودع السفيرة فى سفرها هذا المساء الى أسوان فألفيت صديقنا الالمانى معها فسررت لهذه المصادفة كسرورى لمقابلتك الساعة مصادفة كذلك » •

واستأذنت السفيرة وصاحبنا الالمانى ورجوت لهما سفرا سعيدا ، واستأذنت كذلك صديقتي وعدت الى بيتى ، فلما خلوت الى نفسى أثارت هذه الزيارة بمصادفاتها أمام خاطرى منظرا تعدل روعته منظر مغيب الشمس الليلة على صفحة النيل وعلى أشجار الجزيرة، ذلك منظر مغيب الشمس الذى كنا نشهده ونحن فى شرفة ونتر بالاس بالاقصر ، ونرى النيل ونرى هضاب طيبة الاموات تتابع عليهما ألوان هذا المغيب فتبعث اليهما من الجلال والجمال مايثير فى النفس أعظم الاعجاب • عند ذلك ذكرت الانجليزية التى لقيتنى عامين متتابعين بونتر بالاس ، والتى أخذ المنظر بجامع قلبها

فحدثتني وهي تحدق به عن اعجابها الذي لا حد له بالفراعنة وحضارتهم ، وقلت في نفسي : من يدري ! لعلها كانت بين الحاضرين في شرفة سميراميس الليلة ، هذا ان لم تكن قد تخطت حدود عالمنا الى عالم الارواح .

وهاجت هذه الذكرى خواطر شبابي فأردت كبتها فأويت الى حجرة خلوتي وقسرت نفسي على التفكير في جهاز سفري الى الحجاز . فقد كنا اذ ذاك في منتصف ذي القعدة ، ولم يكن باقيا على سفر الباخرة التي أبحر عليها غير أسبوعين اثنين . وانني لافكر في ذلك اذ دخلت على ابنتي ومعها زوجها وقالت بعد أن قبلتني : جئت يا أماه أزف اليك البشرى . لقد استجاب الله دعاءك أن تصبحي جدة لطفلنا المنتظر .

لم أشعر منذ عهد بعيد بمثل السعادة التي شعرت بها لسماع هذه البشرى . وقمت الى ابنتي أقبلها وأقبل زوجها وأنا في فيض من الغبطة أنساني كهولتي وأنساني خلوة عبادتي وفتح أمامي آفاقا من الامل الحلو وصور لناظري الطفل المرجو باسم الثغر والعينين ، وأرانيه يكبر بعناية أمه وعنايتي فيملأ البيت على أبويه وعلي بشرا وحبورا . وخرجت من خلوتي ومعي ابنتي وزوجها وذهبنا الى غرفة نومي وقد عقد السرور لساني . فلما اطمأنت الانفس قلت :

ـ كنت أفكر الساعة في جهاز سفري الى الحجاز لأهب حجتي الى عمكما ، ولأقيم بالمدينة حتى عامنا المقبل لأحج كرة أخرى وأهب حجتي لأبيك يا ابنتي ، ثم أبقى بعد ذلك بالمدينة راجية أن أظل في رحابها حتى يقبضني الله اليه بها وأدفن في ترابها . أما وقد وهبنا الله هذه النعمة ، التي بشرتني الساعة يا ابنتي بها، فسأعود بعد حجي وزيارتي هذا العام أنتظر الى جوارك حتى أطمئن عليك

وعلى وليدك ، ثم أعود العام المقبل فأحج وفاء بنذرى وراحة لضميرى ، وعند الله حسن الثواب •

وأخذنا نتحدث ، وجعلت أذكر لابنتى ، وقد حلت عقدة لسانى ، مايجب عليها لنفسها ولجنينها أثناء حملها • وكان زوجها يستمع لحديثنا وعلى محياه امارات السعادة ولا يقول شيئا • وفيما نتحدث دخل علينا ابنى وزوجه وكانا قد عرفا النبأ السعيد قبلى فشاركانا فى حديثنا • وأراد ابنى لهذه المناسبة أن يصرفنى عن الحج هذا العام لابقى الى جانب أخته فقلت له ان حجى وزيارتى لن يطولا أكثر من ستة أسابيع ، وان أخته لايزال أمامها فى الحمل أكثر من ستة أشهر • وما كنت لأعدل عن الوفاء بنذر نذرته والسبيل مهيأة للوفاء به •

وحججت وزرت ووهبت حجى وزيارتى لزوجى ولم يستغرق ذلك كله ستة الاسابيع التى ذكرتها لولدى • ووقفت ساعة الوداع أمام المقصورة النبوية وهتفت بصاحبها عليه أفضل الصلاة والسلام: « معذرة نبى الله ورسوله • لقد حرصت على أن أبقى فى جوارك حتى يختارنى الله الى جواره فأنعم فى عالم الارواح بطمأنينة السكينة الابدية ، فأبى القدر الا أن أعود الى وطنى وأهلى وأنتظر هذا المولود ليرد الى أهله والى نعمة الحياة ، وليحملنى من جديد أعباءها • فكن شفيعى عند ربى ليجعل لنا من هذا الحفيد سعادة ونعمة » •

وعدت الى مصر وبقيت الى جوار ابنتى حتى تم وضعها فأسمت الوليد باسم جده ، أبيها ، واستأثر هذا الوليد البرىء بكل ما فى قلبى من حنان وبر • ونظرت اليه يوما وهو بين ذراعى وقلت فى نفسى : ترى لو أن جده زوجى الاول كان اليوم حيا ، أفما كان قلبانا يجتمعان حول هذا الطفل يحوطانه بأجمل ماينبضان به

من عواطف . ولم ألبث حين مر هـذا الخاطر بخيالى أن سألت نفسى كيف سولت لى يوما أن أفكر فى فصم كل صلة بينى وبين هذا الرجل ، وأن أنسى أننا اذا انفصل جسمانا فمصير قلبينا الى اجتماع حول حفيدنا ، وأن الحكمة تقتضينا لذلك أن نعالج بالصبر أهواء الحياة ، فأهواء الحياة قلب ، وأساس الحياة الحق المحبة ، فاذا استبقيناها فى قلوبنا أبقينا على خير ما فى الحياة ، بل أبقينا على أساس الحياة وسر وجودنا فيها .

وجعل الطفل ينمو فيزيد نموه فى محبتى اياه . فلما انقضت أشهر على مولده وآن موعد الحج وفيت بنذرى فحججت وزرت ووهبت حجى وزيارتى لجده ، ثم عدت الى مصر مشوقة أشد الشوق لاجتلاء ابتسامته . وجاء ولدى يستقبلنى بالسويس . وفيما نحن فى طريق الصحراء الى القاهرة زف الى البشرى بحمل زوجه ، وبأننى سأصبح عما قريب جدة لولده كما أننى اليوم جدة ابن أخته . واغتبطت وقبلته ونحن فى السيارة تنهب بنا الارض الى غايتنا . فلما بلغت بيتى ألفيت ابنتى وزوجها وابنها وزوج ولدى فى انتظارى ، ثم ألفيتهم جميعا يقبلون على يقبلوننى ويرجون لى حجا مبرورا . وتناولت الطفل العزيز من أمه وقبلته وضممته الى صدرى ، وشعرت به فلذة من قلبى .

وفى المساء ذهبنا جميعا نتناول العشاء فى بيت ولدى ، وجلسنا كلنا فى بهو الاستقبال وفيه صورة زوجى الاول وكأنه ينظر بعينيه الثابتتين الى بنيه وحفدته .

عند ذلك أيقنت بأن الله أكرمنى بأن لم أعقب من زوجى الثانى ، وان حز فى نفسى ماتيقنته من أن هذا الرجل الذى أنقذنى وأكرمنى سيصبح عما قليل نسيا منسيا .

أتراني أستطيع بعد اليوم أن أفكر فى العود الى المدينة المنورة لأقيم فى رحابها ، حتى يقبضنى الله اليه بها ، فأدفن فى ترابها ؟! أم أن الحياة أمسكتنى هنا مع أبنائى وحفدتى الابرياء حتى أرقد الرقدة الاخيرة فى صحراء القاهرة ؟ ..

وهل أنعم الله على بهؤلاء الحفدة ليكونوا عزاء كهولتى وشيخوختى ، أم أن الحياة لاتزال تعد لى من بأسائها مايضطرب قلبى لمجرد تصوره .

علم ذلك كله عند ربى . والحمد لله الذى وهبنى على الكبر نعمة العود الى الحياة والمتاع بها من جديد مع حفدتى الأطفال الأبرياء .

خاتمة

فرغت الآن من تدوين قصتي ، متوخية فيها الصدق جهدطاقتي . أتراني أستطيع أن أغامر فأنشرها على الناس ؟!

لقد كان جبيني يندى وأنا أسطر بعض صفحاتها . ولشد ما أخشى اذا هي نشرت أن يندى هذا الجبين كلما لاح لخيالي قارىء يحاول أن يستشف من خلالها ما يرضي طلعته ، أو يقف منها على أسرار لا شأن لغيري بها ، ولا علم لغيري بدوافعها وملابساتها .

ولست آسف مع ذلك على ماأنفقت من وقت في تدوينها . فقد متعت أثناء كتابتها بألوان من المسرة ، سواء وأنا أجلو الصحف المضيئة أو الاركان المظلمة من حياة قلبتني على ورود وعلى أشواك يثير مسها في النفس أحاسيس متباينة تبعثاليهاالرضارغمتضاربها، لأنها مظهر حيوي خلال عشرات السنين التي طويت من عمر الحياة ، والتي أذاقتني كل ما في الحياة من هناء وشقاء ، ومن سعادة وبؤس ، ومن لذة وألم ، ومن أمل ويأس .

وكيف آسف واني لتهزني الغبطة كلما عدت الى هذه الصورة التي رسمتها من حياتي ورأيت هذه الحياة كاملة أمامي ، لايحجبها عني تعاقب الأزمنة ولا تغير الامكنة التي مررت بها . فأنا أرى فيها الطفلة التي كنتها ، والصبية التي ترعرعت على أعواد هذه الطفلة ، والشابة والزوج والأم ، وأرى انسياب الايام يندس الى هذا الشباب رويدا رويدا فيحيله كهولة تتخطى على هون الى مابعد الكهولة . واني لأبتسم لهذه الاطوار جميعا ، وأبتسم لآلام حزت يوما في نفسي وأوقفتني على حافة اليأس ، ثم مر الزمن بيدهالمحسنة على هذه الآلام فأصبحت اليوم موضع عطفي ومدعاة تقديري وغبطتي .

يذكر الذين ترجموا للمثال الايطالي الخالد ميكلانجلو أنه لما أتم

تمثاله « موسى » ورآه بلغ الكمال ، خاطبه مبـديا اعجابه بكماله .
فلما لم يجد لكلماته من جانب التمثال صدى نظر اليه مغضبا وضربه بأزميله وصاح به : مالك لاتتكلم ! ولست من الغرور لأنظـر مغضبة الى هذه الصفحات التي كتبت وأنا أعجب كيف لاتخرج من بينها الصبية والمرأة التي رسمت ممتلئة حياة ونشـاطا . فلم يبلغ ايماني بالفن مابلغه من نفس المثال الايطالى الخالد . وأنا أقل ايمانا بفني من أن يدور مثل هذا الخاطر بخلدى

ولهذا لا أحسبني أغامر فادع هذه القصة تنشر يوما على الناس.
وماجدوى نشرها ؟ لست من السذاجة بعد الذي قطعت من عمر الحياة وقطع الوجود من عمرى لأتوهم مايذهب بعض الكتاب اليه من أن قراءها سيجدون فيها عبرة تنفعهم فى حياتهم . فالعبرة كلمة نقولها ولا مدلول فى الواقع لها . وهل اعتبرت الانسانية بما يصيبها من أهوال الحرب وويلاتها فأقلعت عنها ؟ وهل يعتبر الشباب بما أصاب آباءهم وذويهم ليحتاطوا فلا يقعوا فيما وقع هؤلاء الآباء فيه؟ وكيف تنفع العبرة وفى الحياة من الغيب المستور ماتتغير معه المقدمات والنتائج تغيرا لايستطيع أكثر الناس ذكاء وعلما توقعه ، بله التقدير له ! وكيف يستطيع الشباب أن يتخذ العبرة من المشيب ولما يعرف من أمر المشيب قليلا ولا كثيرا ! لقد طالما اطلعت فى شبابى على مثل هذه القصة فوجدت فى مطالعتها تسلية ولذة لم يتعديا حدود اللذة والتسلية . وكان لأصحاب هذه القصص من البراعة ماليس لى .
فاذا لم تظفر قصتى بتسلية قرائها فمن حقهم أن ينقموا منى وأن يلعنوا غرورى . وخير لى أن أتقى النقمة واللعنة كليهما فلا أطالع النـاس بما يدفعهم اليهمـا . ذلك خير لهم ولى وأدعى أن ينفقوا وقتهم فيما يعود عليهم بما يلذهم ويرضيهم .

ولا أحسبنى أبالغ حين أذكر أن العبرة بما يصيب الغير كلمة لا مدلول لها فى الواقع . فنحن لانعتبر الا بما يصيب ذاتنا . كانت لى أخت طفلة لما تبلغ عامها الثانى . وكانت بادية الذكاء منذ طفولتها ،

وكان أبي مغرما بها ، يغتبط بمداعبتها ويقضي في ذلك سويعات كل يوم • وقد أدنى من أصبعها يوما عودا من الكبريت ملتهما ثم سحبه في حركة تدل على خوفه من أن يحرقها • لكن الصغيرة لم تفطن لهذه الحركة ولم تعتبر بها حتى أدنى والدى عود الكبريت الملتهب من أصبعها فكاد يحرقها • هنالك أدركت أن النار تحرق ، وصارت تسرع الى سحب يدها كلما أدنى أحد النار منها • وذلك شأننا جميعا في الحياة • اذا لم نكن نحن موضع العبرة لم يكن للعبرة مدلول في نظرنا • وكثيرا مانخطيء في تقدير مدى العبرة مما يصيبنا نحن فلا نفيد منها الا القليل •

وليس عجيبا أن تكون العبرة كلمة لا مدلول في الواقع لها • فنحن نحكم على الأشياء بمجموعة من العناصر الذاتية يختلف الحكم باختلاف تأثرها بما في الحياة وتأثيرها فيها • نحن نحكم بعقلنا ، وعلمنا ، وعواطفنا ، وميولنا ، وحواسنا ، واحساسنا ، وأعصابنا • وهذا المزاج من العناصر يتأثر بما نكون عليه من أحوال الغضب والرضا والطمأنينة والقلق ، كما يتأثر بالبيئة المحيطة بنا ولا سلطان لنا عليها • فأي هاتيك العناصر تكون أقوى أثرا في اعتبارنا بمانقرأ؟ وقد تكون البيئة أقوى من كل تلك العناصر أثرا •

كنت في العاشرة من سني ، وكنت تلميذة بالمدرسة السنية للبنات في العشرة الاولى من هذا القرن العشرين ، ولم يكن يومئذ للبنات مدارس مصرية غير السنية وأم عباس • واني لأمر بفناء الدار اذ دعاني والدي فدخلت غرفة الجلوس وحوله فيها جماعة من أصدقائه ومعارفه ، بينهم مطربشون ومعممون • وسألني والدي عما ندرسه في الجغرافيا والتاريخ • وخرجت من عنده وانتحيت جانبا في الفناء فلم ألبث أن سمعت مناقشة حادة بين الموجودين مع أبي ، يبدى أحدهم إعجابه بما سمع مني ، ويعترض آخر على ذهابي الى المدرسة اعتراضا شديدا ، ويعترض على تعليم البنات بوجه عام ، قائلا : ان مصير البنت أن تتزوج • فما فائدة أن تتعلم

القراءة والكتابة • بل ان فى تعليمها لضررا أبلغ الضرر • انه يمكنها من قراءة الروايات وما فيهـا من قصص الحب ومن كل مايفسـد الاخلاق • وهي بعد فى غير حاجة الى هذه المعرفة • فنحن لانعدها لوظيفة فى الحكومة ولا لعمل من الاعمال يحتاج القراءة والكتابة • واستمر الرجل يؤيد هذا الرأى ويزداد حماسـة فى تأييـده كلما ازداد مناقشه تأييدا لضرورة تعليم البنت لتستكمل وجودها الانسانى • وقد كان يؤيد ذلك المعارض فى تعليم البنت يومئذ كثيرون حتى من المتعلمين تعليما مدنيا • وكانت البيئـة تسيغ يومئـذ مثل ذلك التفكير • ترى أيمكن أن يدور مثل هذا التفكير اليوم بخاطر أحد أو يجرؤ على الجهر به وقد أخـذت البنـات مجلسهن من مقـاعد الجامعة ، وقد غصت وظائف الحكومة بالكثيرات منهن ، وقد أصبحت ميادين العمل الحر مفتوحة أمامهن ! أفلا يشهد ذلك بأن آراءنا وأحكامنا تتأثر بالبيئة الى حد كبير ؟ وهى تتـأثر كذلك باعتباراتنا الذاتية ، وقتية كانت هذه الاعتبارات أو غير وقتية ، مما يدل على أن العبرة التى تتلمسها فى القصص قليلة الاثر فى الواقع ، ان كان لها من هذا الاثر أى حظ •

لم أعن نفسي بهذا الحوار حول تعليم البنت يوم سمعته وأنا فى موقفى على مقربة من باب غرفة الجلوس ، بل فررت مسرعة الى داخل الدار خيفة أن يرانى أحد ويتساءل عن سبب وقوفى • وما كنت لأفكر يومئذ أى المتحاورين على حق • فقـد كان أبى هو الذي يفكر لى وهو الذى ينفذ تفكيره ، ان شاء أن أبقى بالمدرسة بقيت ، وان شاء أن أغادرها وألزم البيت كان الرأى رأيه • ولقد مر هذا الحوار من بعد بخاطرى فأثار مني ابتسامة اشـفاق حينا ، وابتسامة تخالطها المرارة أحيانا • أما الاشفاق فعلى هذا الذى توهم أن البنت تتعلم الحب فى قصـص الحب • وهل تقرأ الطـير قصص الحب وهى فى عشها وفى سماواتها ، وللطير على اختلاف أجناسها قصص فى الحب أروع من قصص بنى الانسـان ؟ فالحب غريزة

ركبت فى الذكر والانثى يلتمس كلاهما من سبيلها تخليد النوع . والفتى الساذج فى الحقل ، وفى المصنع ، والفتاة الساذجة التى تشاركه العمل ، ينجذب أحدهما نحو صاحبه ، فى غير حاجة الى كتاب يقرؤه ، مندفعين فى ذلك بحكم الغريزة التى لاتقهر .وهما يسمعان من قصص الحب مايغنيهما عن قراءة شعر المجنون أو قصة روميو وجوليت . فاذا توهم أحد أن قراءة قصص الحب مفسدة للأخلاق فهو جدير بالاشفاق وبأكثر من الاشفاق .

وأما المرارة التى خالطت ابتسامتى أحيانا فقد أثارها فى نفسى شعور ذاتى لاعتبار قل أن يرد بخاطر أحد . فأنا كثيرة القراءة . وادمان القراءة يدعو الى شيء من العمق فى التفكير ، والى عزلة لا مفر منها يدفع اليها التفكير العميق . فهذا التفكير فيما حولنا يكشف لنا عما فى حياة المجتمع من حمق وسخافة ويدفعنا للتعالى على هذا المجتمع بل الى ازدرائه فى كثير من الاحيان .

هذا لون من الغرور لا ريب . وهو غرور يجعلنا ننطوى على أنفسنا ونتذوق فى دخليتنا غبطة كبيرة بتفوقنا . ولكنه يدس الينا مع هذه الغبطة مرارة سببها انكماشنا عن الناس وتعذر التفاهم بيننا وبينهم فى كثير من الاحيان . وقد تبلغ هذه المرارة أن تدفعنا الى حافة اليأس فلا ينجينا منه الا أن ننزل الى المستوى العام وأن نفسى أنفسنا فى ألوان من المسرة يمجها ذوقنا لولا هذه المرارة التى تضطرنا للرضى بما لانرضاه بحكم عقلنا وثقافتنا .

واذا كان للبيئة من السلطان على أحكامنا ما قدمت فلظروفنا الخاصة سلطان لايقل عن سلطان البيئة . فهذه الظروف هى التى تكيف اتجاهنا فى الحياة ، وهى التى تكيف أحكامنا على ما رأينا وما نرى : أليس يختلف حكم الاغنياء عن حكم الفقراء على الاشياء ؟ وهلا يختلف حكم الأذكياء عن حكم الأغبياء ، ويختلف حكم أبناء الحرفة الواحدة عن أبناء الحرفة الأخرى على مايرون ؟ أولا ترى شخصا يوهب منذ مولده أذنا واعية للانغام والالحان وآخر

يوهب عينا بصيرة بالصور والالوان ، وثالث لايعنى من الانغام ولا من الالوان بأكثر من التسلية ، رغم ماله من ذكاء نفاذ وحسن بصر بالأمور .

وليس يسيرا أن نحيط بظروف الناس الخاصة ، فهى لاتحصى . ولكنى طالما سألت نفسى : أترانا رغم هذه الظروف نزعم أن لنا فى الحياة اختيارا بأى مقدار ؟ وهل كان لى اختيار أن أولد انثى ، وأن أولد فى المدينة وأبواى من أهل الريف ، وأن أكون على حظ قليل أو كثير من الجمال أو الذكاء أو الجاذبية ، وأن يكون أبواى من طبقة معينة من طبقات المجتمع ، وأن يقيدنى كل واحد من هذه الظروف بقيود لا فكاك لى منها ، ولا سلطان لى عليها ؟ وما هذا الاختيار الذى يحدثوننا عنه اذا كان الانسان مهددا بالعقاب لعمل يجترحه ، موعودا بالمثوبة اذا عمل صالحا . أم نحن مختارون حين يشتهى أحدنا صنفا من الطعام ويشتهى صاحبه صنفا آخر لان معدة الاول لاتطيق ماتطيقه معدة الثانى ! الحق أشهد أننى لم أشعر بأننى كنت مختارة فى يوم من الايام ، وانما فرضت الحياة نفسها على فلم يكن لى اختيار فى قبول ما فرضت مذ كنت طفلة الى هذا اليوم والى أن أموت .

واذا لم يكن لنا فى الحياة اختيار فهل يبقى لكلمة العبرة معنى أو مدلول فى الواقع . لقد عدت غير مرة الى كتب قرأتها منذ سنوات عديدة فتغير حكمى على مافيها عما كان عليه يوم قرأتها لاول مرة ، فأيقنت أن أحكام شبابنا تختلف عن أحكام كهولتنا ، لان عناصر الحكم الكمينة فينا يختلف مزاجها بتقدم السن أو بتغير أحوالنا المعيشية أو باختلاف البيئة التى تحيط بنا أو بما يمر بنا من حالات الصحة والمرض ، والنجاح والفشل ، والرجاء واليأس . وبعض هذه الكتب التى عدت الى قراءتها ليست قصصا جانب التسلية فيها أوفر من جانب العبرة ، بل هى كتب تفكير ورأى ، أو كتب علم أو فلسفة . فاذا كانت صور الاشياء تتغير أمامنا على هذا النحو فهى

اذن وهم وليست حقيقة ، وهى صورة لما نشعر به فى دخيلة أنفسنا أكثر منها حقيقة كونية مادية يمكن الاطمئنان اليها •

وبعد ، فهل فى الحياة حقيقة ثابتة ، أم أن ما فى الحياة كله حقائق وان كانت لاثبات لها ! أترى الحقيقة هى النور أم الظلام ، وهى السعادة أم الشقاء ، وهى الرجاء أم اليأس ، وهى الحياة أم الموت ؟ لقد طالما تبدت لتفكيرى صور وألوان من هذه الحقائق التى لا ثبات لها ، والتى نمر بها على دوام تغيرها متفانية متجددة ، فأوقعنى التفكير فيها فى حيرة كانت بعض أسباب المرارة التى اندست الى حياتى ، وبعض أسباب العزلة التى باعدت بينى وبين الناس ، ثم وجدت الوسيلة فى بعض الاحيان الى التغلب عليهـا بأن اندمجت فى غمار الناس وسرت سيرتهم وطلقت التفكير حتى اهتـديت آخر أمرى ، وفى مولّيات عمرى ، الى أن الحقيقة فوق هذه الصور جميعا ، والى أن التماسها يقتضينا السمو فوق مور الحياة فى انهيارها وتجددها لنطالع وجه الله الاكرم ذى الجلال •

ومالى أطيل التفكير فيما كتبت وهل ينشر على الناس أو لاينشر ، وفيما اذا كان لكلمة العبرة مدلول فى الواقع أو أنها ليس لها هذا المدلول ؟ أليس خيرا أن أدع التفكير فى هـذا لغيرى ، فاذا رأى قصة حياتى حقيقة بأن يطالعها غيرى فيجـد فيها متعة أو عبرة فلينشرها ، والا فليلق بها فى سلة المهملات كما يقولون ! اننى قد اعتزمت مغادرة مصر الى حيث أستطيع التوجه الى الله بكل قلبى ألتمس عنده المغفرة من ذنوبى ، وأجد منه الهدى الى الحقيقة التى يستريح لها وجدانى • ويوم يتاح لى تنفيـذ غرضى فسأدع هـذه القصة بين يدى من يستطيع أن يحكم عليها بأعدل مما أستطيع ، وله يومئـــذ أن يفعـــل بها مايشـــاء ، فاذا نشرت فلن أستطيع قراءتها مطبوعة لأننى سأكون بعيدة عن مصر بعيدة عن هذا المجتمع الذى نعمت به وشقيت ، والذى عرفت بين أحضانه ألوانا من السعادة والبأساء ، ومن اليأس والرجاء ، أكثر مما عرفت

كثيرات من بنات جنسي .

والله أسأل أن يهيء لى فيما بقى من أيام حياتى سبيلا أهدى من السبيل التى اجتزت الى اليوم ، وأن يكتب لى أن أموت راضية مرضية ، وأن يجعل من توبتى ومن أيام شقوتى شفيعا عنده ، اليه المرجع والمآب وهو الحكم العدل اللطيف الخبير .

***

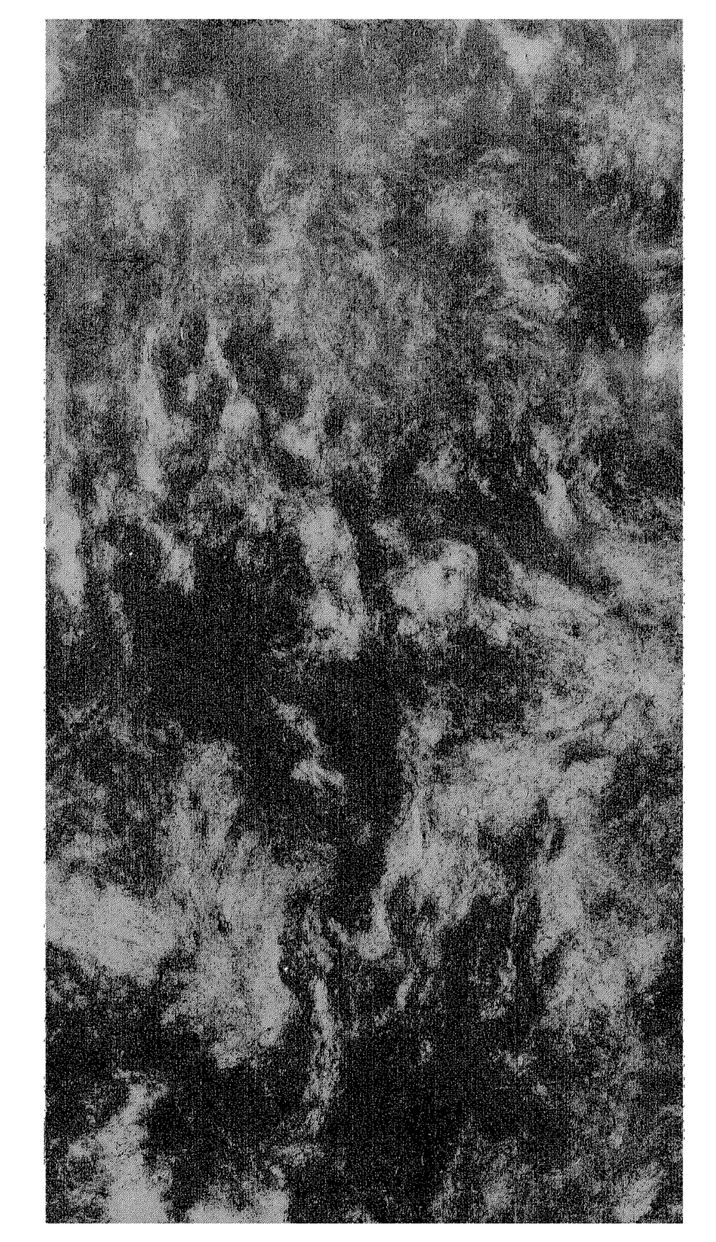
أتممت كتابة ماتقدم عشية الحج لاول مرة . وكنت أحسب يومئذ أني فرغت من تدوين قصتى ، ورسمت الطريق لما بقي لى فى الحياة من أسابيع أو شهور أو سنين كثيرة أو قليلة . لكن القدر سرعان ما أثبت لى مرة أخرى أنه لايعبأ باراداتنا الانسانية وما نرسم أو نصور ، وأنا أضعف أمامه من أن تثبت بارادتنا شيئا فى لوحه .

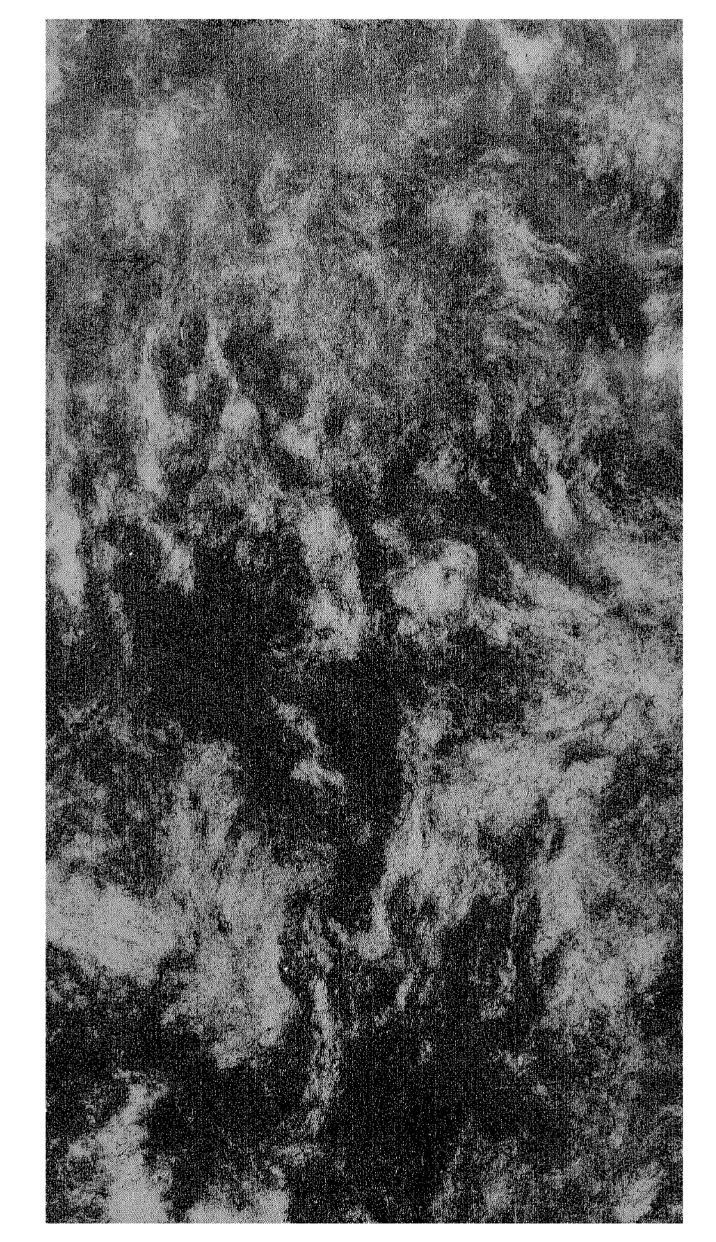
صحيح أني حججت وزرت مدينة الرسول وعزمت أن أجاوره .. لكن هذا العزم ما لبث أن عبثت به الأقدار واضطرتنى للعود الى القاهرة لاواجه بها أقسى مايواجه انسان في حياته . وعدت فعزمت أن أقيم بالمدينة المنورة آملة أن أظل في رحابها حتى يقبضنى الله بها ، وأدفن في ترابها ، فاذا هذا العزم لايثبت المرة الثانية أكثر مما ثبت المرة الاولى ، واذا بى أضطر للمقام فى مصر فى جوار أحفادي ، سعيدة بهذا الجوار ، مشفقة من هذه السعادة ، خائفة أترقب مايخبيء الغد فى طياته مما قد أنوء به .

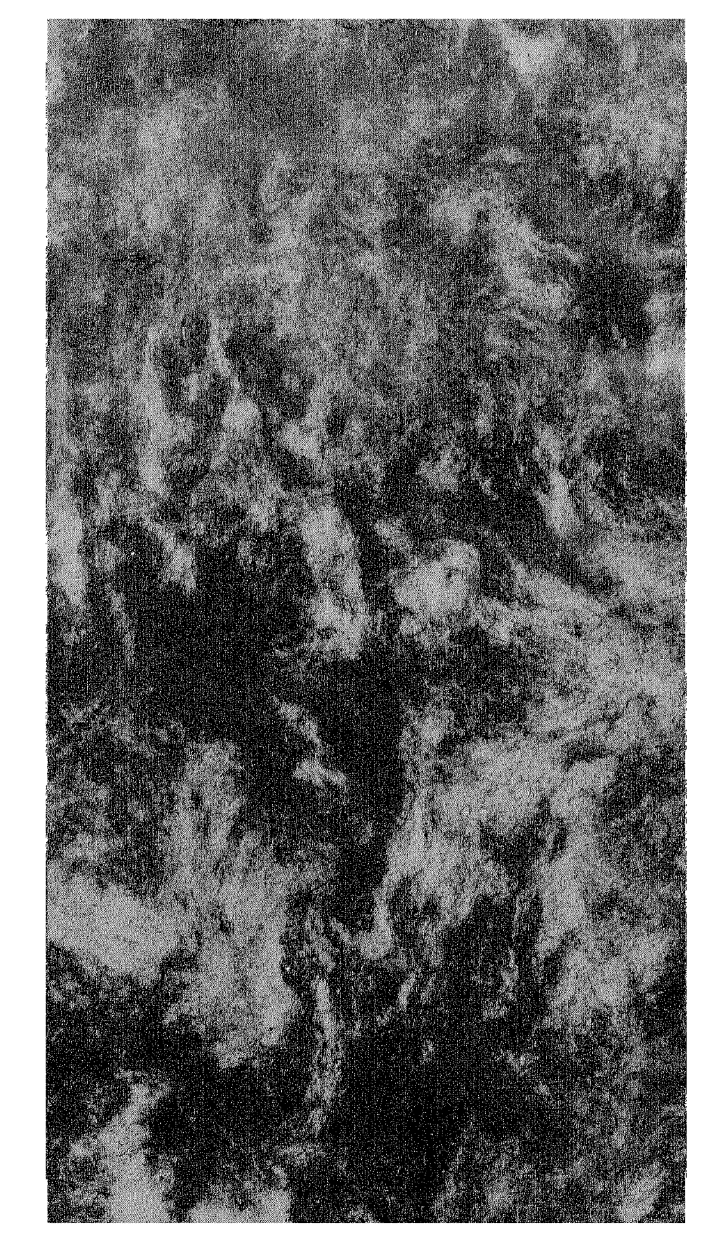
وقد قضضت ذلك كله بعد زمن طويل من تدوين ماجرى فى شبابي وبوادر كهولتى . ولست أدرى أيعنى أحد بأن يطلع عليه . ولذلك تركته مع ماسبقه الى من يستطيع أن يقطع فيه بحكم فينشره أو يهمله .

وسواء على أنشرت هذه القصة أم لم تنشر . فحسبى أن دونتها ولن أعود الى قراءتها من بعد ، فلى من هؤلاء الاحفاد مايشغلنى عنها وعما كان زوجي الاول يسميه غيرتي وغروري .

والله أرجو أن يتوب على ويغفر لى ، انه الغفور الرحيم .








Bibliotheca Alexandrina
03564481